خوليو رييس روبيو "المجريطى"

الأندلس
بحثًا عن الهوية الغائبة

ترجمة وتقديم: غادة عمر طوسون
رنـــا أبو الفضـل

مراجعة: سرى عبد اللطيف



1938



يلقى كتاب " الأندلس .. بحثاً عن الهوية الغائبة " الضوء على فترة مهمة من تاريخ إسبانيا وتاريخ العالم ، وهى فترة الوجود الإسلامى فى الأندلس التى استمرت قرابة ثمانية قرون ، وضع المسلمون بصماتهم عليها، لكن الغرب سعى لطمس ملامح تلك الهوية.

ويأتي المؤلف بعد مرور أكثر من خمسة قرون أخرى ليزيل الغبار عن هذه الحقبة ، ويؤكد للعالم أن الفضل يرجع للعرب وللحضارة الإسلامية فى نهضة إسبانيا وأوروبا كلها .

ورغم أن موضوع الحضارة الإسلامية فى إسبانيا تناولته أقلام كثير من المؤرخين والكتاب والمفكرين ، فإن طريقة الطرح والمعالجة تختلف فى هذا الكتاب ،إضافة إلى التوقيت الذى صدر فيه ، ومناسبته للمرحلة الحالية .

تصميم الغلاف : نسرين كشك

الأنـدلـس
بحثـًا عن الهوية الغائبة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 1938
- الأندلس: بحثا عن الهوية الغائبة
- خوليو رييس روبيو "المجريطى"
- غادة عمر طوسون، ورنا أبو الفضل
- سرى محمد عبد اللطيف
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

Al Andalus:
En busca de la identidad dormida
Por: Julio Reyes Rubio "AL-Mayriti"

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الأندلس

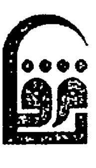
بحثا عن الهوية الغائبة

تأليـــــــف: خوليو رييس روبيو "المجريطي"

ترجمة وتقديم: غادة عمر طوسون

رنا أبـــو الفضـــــل

مراجعـــــة: ســري عبد اللطيـف



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

روبيو "المجريطى"، خوليو رييس.

الأندلس: بحثا عن الهوية الغائبة / تأليف: خوليو رييس روبيو "المجريطى"، ترجمة وتقديم: غادة عمر طوسون، ورنا أبو الفضل، مراجعة: سري عبد اللطيف.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤
٢٨٦ ص ، ٢٤سم
١- الأندلس
(أ) طوسون، غادة عمر (مترجم)
(ب) أبو الفضل، رنا (مترجم مشارك)
(جـ) عبد اللطيف، سري (مراجع)
(د) العنوان ٩٥٣,٠٧١

رقم الإيداع ٢٠١١/١٦٤٧٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N 978- 977-704-760-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم الترجمة

إن اختيار عمل ما لترجمته من اللغة الأجنبية إلى العربية يعتمد على أسس كثيرة، من أهمها موضوع هذا العمل وما يقصد إليه.

والكتاب الذي بين أيدينا يلقي الضوء على فترة تاريخية مهمة في إسبانيا، بل وفي العالم كله، وهي فترة الوجود العربي الإسلامي في الأندلس التي امتدت لثمانية قرون وساد فيها الإسلام بتسامحه، ولكن الغرب سعى بجد لطمس معالم هذه الهوية الإسبانية الإسلامية، فجاء المؤلف بعد مرور أكثر من خمسة قرون أخرى ليزيل الغبار عن هذه الحقبة، ويؤكد للعالم أن الفضل يرجع للعرب والحضارة الإسلامية في نهضة إسبانيا وأوروبا كلها.

ورغم أن موضوع الحضارة الإسلامية في إسبانيا قد تم تناوله من قِبَل العديد من المؤرخين والكُتّاب والمفكرين، فإن طريقة الطرح والمعالجة المختلفتين في هذا الكتاب لتلك المسألة، إضافة إلى التوقيت الذى صدر فيه هذا العمل يعدان السببين الرئيسيين في اختيارنا لترجمته.

لقد ألَّف الكاتب عمله في وقت يتعرض فيه الإسلام لهجمات شرسة من كل جانب، ويُتهَم فيه المسلمون بالتخلف والإرهاب، فإذا بالمؤلف ينكر ذلك كله ويعرض لنا فكر الآخر وتصوره المحايد عن الإسلام والمسلمين.

وهنا تجب الإشارة إلى أنه رغم دراسة المؤلف خوليو ربيس للقانون، فإن له أعمالاً عديدة عن الأندلس وباعًا طويلاً في الدراسات التاريخية.

ويبدأ الكاتب عمله بالحديث عن دين الإسلام ورسالة خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، شارحًا باستفاضة كل أركان الإسلام ومبادئه. ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن فتح العرب للأندلس، ووضعها إبان الفتح، والحكام المسلمين الذين تعاقبوا عليها من أمراء وخلفاء، مرورًا بملوك الطوائف والمرابطين والموحدين، ووصولاً لبني الأحمر الذين ضاعت في زمانهم الأندلس من المسلمين بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م.

ثم يُفرد فصلاً كاملاً عن أثر الحضارة الإسلامية في الأندلس في المجالات كافة في نهضة البشرية بأسرها، كما يتحدث عن الأدب العربي من عصور الجاهلية وحتى خروج المسلمين من الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر.

ونجده في فصل آخر يذكر الشريعة الإسلامية ومصادرها وتأثيرها في القانون التاريخي الإسباني، مع ذكر أنظمة مثل "قوانين مسلمي الأندلس" التي كان معمولاً بها في المجتمع الأندلسي حتى نهاية فترة الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا.

وينتقل لجزء مهم في الكتاب خصص له ما يقرب من خمسين صفحة، يتحدث فيه عن هوية إسبانيا المزدوجة، وعن دورها في التوفيق بين الحضارتين الشرقية والغربية. وفي هذا الصدد يضع تصورًا للتحكيم الدولي لحل النزاعات، ودور إسبانيا المستقبلي فيه كوسيط يسعى إلى تحقيق التكامل والتوافق في العلاقات بين الشرق والغرب، وذلك بعدما أشار إلى تلك العلاقات التاريخية بين أوروبا والشرق منذ الفتح الإسلامي للأندلس في مطلع القرن الثامن، ومرورًا بالحملات الصليبية الموجهة للشرق وتاريخ الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية... إلخ.

ومن هذا العرض الموجز لما يتناوله الكتاب يتضح لنا أن أهم ما يميزه هو جمعه بين الدين والتاريخ والحضارة والسياسة والقانون في عمل واحد، وربطه بين الماضي والحاضر والمستقبل.

لكن ذلك كله لا يعني اتفاقنا الكامل مع ما يعرضه الكاتب من آراء، فهناك – وإن كان قليلاً – خلط لديه بين بعض المبادئ وبين الخرافات أو القصص التي تداولها الغرب عن الإسلام ونبيه التي تخلو تمامًا من الصحة.

ويجدر أن نشير أيضًا إلى أننا قد وجدنا صعوبة ما في تحديد أسماء الأعلام العربية، وذلك لعدم اتباع الكاتب نظام النقل الصوتي المُعتمد والمتعارف عليه عند نقل الأسماء من الإسبانية وإليها، كما أن هناك بعض التواريخ والأسماء الخاطئة التي قمنا بتصويبها.

وفي الختام لا يسعنا سوى أن نشكر المؤلف على سهولة منحنا حقوق الترجمة وسرعته في ذلك وتعاونه المستمر معنا ورده على استفساراتنا، وأن نشكر المركز القومي للترجمة على موافقته على نشر هذه الترجمة، آملتيْن من الله عز وجل أن يسهم هذا العمل في التقارب بيننا وبين الآخر، ويعزز ثقة المسلمين في ماضيهم ودينهم.

والله الموفق

غادة عمر طوسون
رنا أبو الفضل

إهداء

إلى روح والديَّ ليأخذا بيدي
إلى الجنة، وإلى عائلتي الحبيبة، زوجتي سولانخي
وابنتيَّ تريسا إوخنيا وأنابيللا

تمهيد

بمجرد أن نذكر كلمة الأندلس فإنها ترتبط – كما يبدو لكثير من السامعين – بالمنطقة الجنوبية من إسبانيا حيث يوجد حاليًا إقليم أندلوثيا، الذي ظل لفترة طويلة من الزمان على اتصال بالحضارة الإسلامية في إسبانيا.

منذ فجر التاريخ، ونظرًا للموقع الجغرافي في جنوب غرب أوروبا، كانت لإسبانيا علاقة عابرة مع بعض الشعوب والبحارة مثل الفينقيين واليونانيين، حيث كانت تتبادل معهم منتجاتهم لأغراض تجارية خالصة وبشكل سلمي؛ وشعوب أخرى محاربة مثل القرطاجيين والونداليين، وبعض الأمم الجرمانية مثل الألانيين والسويبيين (كلاهما غزا إسبانيا في القرن الخامس الميلادي) وذلك لأغراض حربية مثل الاحتلال.

ومع ذلك، فلم يكن وجود تلك الشعوب الأخيرة مهمًا، حيث إنها لم تترك تقريبًا أي أثر. ورغم ذلك فهناك غزوان تركا أثرًا لا يُمحى في هويتنا، واستقرا في إسبانيا بعد الغزو العسكري وهما: الغزو الروماني والفتح الإسلامي.

- خلَفت روما لإسبانيا اللغة اللاتينية، كما أنها أثرت بشكل عميق في النظامين السياسي والقضائي وكذلك فى النظم اللغوية والأدبية والفنية والدينية.

- تنازلت إسبانيا المسلمة (الأندلس) عن تقاليدها لتندمج في العالم الإسلامي وثقافته، وهو عالم امتد من الهند حتى الأندلس، وكانت ثقافته موحدة ولها ميزة الانصهار في تركيبة عملاقة هي ثقافة البلاد الإسلامية المتعددة: الهند وفارس والشرق الأوسط ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا.

لقد شكل هذا التراث الثقافي لكلتا الحضارتين جزءًا من هويتنا المزدوجة.

بينما كانت السيطرة الرومانية في إسبانيا دامية للغاية، بدءًا من عام ٢١٨ ق.م. في الحرب القرطاجية الثانية، وانتهاءً بالسلام مع أغسطس عام ١٩ ق.م. كانت السيطرة العربية في إسبانيا سمحة بشكل عام، وفي مدة لا تتجاوز العامين كان قد عم السلام في مجتمعنا.

ومع ذلك، فربما تكون روح التعصب الديني للصليبيين، والتي أججتها المسيحية في الغرب في أوائل العصور الوسطى، قد جعلت كل ذلك يُنسى بطريقة مجحفة بعد بقاء المسلمين في إسبانيا لمدة ثمانية قرونٍ. وبمجرد طرد آخر الممالك الإسلامية من إسبانيا بعد سقوط غرناطة، بقى أثرٌ لا يُمحى لهذه الحضارة المميزة من خلال المظاهر الفنية والأدبية واللغوية والثقافية التي ورثناها عنهم.

هذا هو الهدف من هذا الكتاب، الذي اتخذت له عنوان "الأندلس بحثًا عن الهوية الغائبة".

فعلى إسبانيا أن تستيقظ من هذه الفترة الطويلة من السبات، التي امتدت منذ ١٤٩٢م حتى وقتنا هذا، وأن تستعيد هذه الهوية الغائبة. عبر سلسلة من الإجراءات، يجب أن تعود إسبانيا إلى المصير الذي منحه الله لها – دون أن تتنازل عن كينونتها ولا عن المسئولية المنسوبة إليها؛ وذلك لثروتها متعددة الثقافات، فعليها أن تكون الحكم والوسيط للتفاهم بين الشرق والغرب.

سنطرح في هذا الكتاب سلسلة من الأفكار والمبادرات لكي تنضم إسبانيا داخل "مبدأ تحالف الحضارات" تحت رعاية الأمم المتحدة، وتمارس عملها الأساسي بشكل تام، وهي الفكرة الأصلية لحكومتي إسبانيا وتركيا. والهدف من ذلك هو تحقيق تفاهم فعال بين الشرق والغرب وجعل السلام والتوافق الدوليين واقعًا.

إن الفكرة العقائدية للإسلام والمطروحة في هذا الكتاب هي ثمرة تفاسير وأفكار الأستاذ المودودي، الذي كرس حياته كلها للدعوة إلى الله والدفاع عن الحقيقة من خلال تحليله للنص الديني "القرآن الكريم".

وقد حاولتُ أن أعرضه بموضوعية، وباحترام شديد لمعتقداته دون التعبير عن مشاعري الخاصة متبعًا بإخلاص تعاليم الأستاذ من خلال عمله، ومخلصًا للتقاليد الإسلامية.

ومع ذلك، وبسبب تعقيد الموضوع المطروح، فربما يثير الجدل بين قرائه وغضب طبقات المجتمع على اعتبار – خطأ – أن عملي هذا يعد انحرافًا، وذلك عند تفسيره بشكل بعيد عن الموضوعية كفتح إسلامي جديد لإسبانيا.

ليس هناك شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك، حيث أخطأ أولئك الذين نسوا أصولهم وأنكروا بشكل مجحف هويتهم وحضارتهم وثقافتهم.

إن الهدف الأخلاقي من هذا الطرح البسيط، بجانب بعض المحاولات التي قام بنشرها كُتاب عدة للغرض نفسه، هو التمكن من إنارة عقول كبار المسئولين السياسيين في العالم، وأن يحققوا السلام بين كلتا الحضارتين وذلك لقناعاتهم الأخلاقية و/ أو الدينية. لو تحقق ذلك، فإن طبع ذلك العمل المتواضع سيستحق العناء ليس لمنفعة البشرية الحالية فحسب، بل أيضا لأجيال المستقبل.

المؤلف

الفصل الأول

مقدمة

إن المؤرخ يصاهر زمنه وعمله الفكري عاكسًا بوعي أو دون وعي التخطيطات العقلية للزمن التاريخي الذي أتيح له أن يعيشه، لهذا لا يمكن تحقيق أي بحث عن كتابة فترة تاريخية محددة دون الأخذ في الاعتبار الظروف التي قام كاتبو التاريخ بتحملها خلال حياتهم. وهكذا فمن البدهي أنه عند كتابة فترة تاريخية ما، من الأفضل أن نوضح أسباب الذاتية لنقترب بدقة أكثر من الموضوعية التي حدثت.

ومع ذلك، فيجب أن نحترم فكر أرسطو فيما يتعلق بالبحث عن الحقيقة، الذي كان سائدًا في نقطة المنتصف، لكي نحسب مدى تحيز قصص التاريخ التي نستخدمها، وذلك بتطبيق القياس المنطقي لتجنب الوقوع في تفسيرات مغرضة.

على الرغم من ذلك، فلكي نفهم جيدًا الوضع والإطار التاريخي الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل وصول المسلمين، فإنه من الضروري معرفة الأسباب التي من أجلها فقد القوط السيطرة السياسية على المجتمع الفاسد الذي كانوا يحكمونه.

لقد كانت إسبانيا تجتذب على مدى قرون – منذ الأزمنة السحيقة – مستعمري آسيا الصغرى (اليونانيين والفينقيين والقرطاجيين) وذلك لثرواتها المعدنية (مثل الفضة، والقصدير، والنحاس...). وكان لهذا الاقتراب لشعوب البحارة محرك اقتصادي، فأسسوا مستعمرات لتبادل المنتجات بالمقايضة مع الجماعات العرقية الموجودة (الأيبيريين والسلتيين والسلتي أيبيريين).

وبعد ذلك اكتسب الشعب الأصلي، بالحفاظ على العلاقات السلمية، التأثير الثقافي الناتج عن علاقة كل حضارة بالأخرى واللتين كانتا مختلفتين بشكل واضح، ولكن كانت حضارة الزوار أكثر تطورًا.

وفيما بعد، أصبحت شبه الجزيرة الأيبيرية ساحة للحروب بين الشعوب المختلفة التي كانت تتقاتل للسيطرة المطلقة والحصرية على الشعوب الأخرى (الرومانيين والقرطاجيين).

بعد الانتصار العسكري، استقر الشعب الروماني الذي غزا شبه الجزيرة كمقاطعة وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية لمدة ستة قرونٍ وأصبحت هدفًا لغزو الشعوب البربرية.

ومع تقدم الزمن، وفي القرن الخامس تحققنا من أنه قد تم احتلال شبه جزيرة أيبيريا من قِبَل مجموعة قبائل المحاربين الجرمان الذين حاولوا حكم المقاطعة الواسعة بإخضاع الناس في المدن والقرى.

من بين القبائل الغازية كان الوندال الذين اشتق العرب منهم اسم الأندلس الذي أطلقوه على إسبانيا. ومع ذلك، فقد استقر الوندال لفترة قصيرة إلى أن تم طردهم إلى إفريقيا على يد قبائل أخرى. وفي عام ٤٥٦م. وطد القوط نفوذهم في إسبانيا.

حظيت إسبانيا القوطية بمرحلة ازدهار حافظت فيها على الثقافة الإسبانية الرومانية، وأسست عاصمتها السياسية والثقافية في طليطلة. سقط هذا المجتمع القوطي بعد قرنين ونصف من الفساد، وضعفت سلطة الملك الذي أصبح عاجزًا عن حماية العبيد من غير القوط من طمع الإقطاعيين الذين احتلوا ثلثي أرض شبه الجزيرة. لقد تدهور النظام الاجتماعي حيث كان القوط لا يدفعون الضرائب ويحيون حياة الترف والبذخ، بينما كان الباقون – العبيد – يعيشون الفقر المدقع (قلة الغذاء، فقر مطلق...).

كانت هذه هي الدوافع التي جعلت ذلك الشعب المقهور يقترب من العصيان المدني ضد السلطة، مكونًا عصابات من الثوار كانت تمارس العنف ضد النظام الاجتماعي القائم.

لقد أصدرت سلطة القوط مراسيم "عدم التسامح الديني" ضد جماعات عرقية أخرى (اليهود) لتجبرهم على الدخول في المسيحية بوصفها دينًا رسميًا، أو الطرد في حالة رفضهم. وقد نص مرسوم عام ٦٩١م. على إجبار الشعب اليهودي على الدخول في المسيحية، وإذا لم يقبلوا ذلك بحرية يُفرض عليهم أن يُباعوا بعدّهم عبيدًا.

ومع ذلك، كانت الأزمة في طبقة النبلاء – في المجتمع القوطي – حيث تورطوا في نزاعات داخلية مستمرة دون الخضوع لتحكيم السلطة الملكية. واشتد هذا التدهور من جيل إلى جيل، بحيث بعد موت الملك ويصا في علم ٧١٠م. استمرت الحرب من أجل العرش بين كلٍ من ابنه، والسيد لذريق المتطلع لخلافته وهو ذو الأصل النبيل ولديه تطلعات مشروعة بسبب الطابع الانتخابي لعرش القوط.

سمحت هذه الأسباب، التي لم تكن مجهولة بالنسبة للمسلمين المقيمين في المغرب أن يشنوا هجومًا على سواحل الأندلس في عام ٧١٠م. وذلك عندما كان القوط منغمسين في الحرب الأهلية.

كانت الغنائم التي حصل عليها العرب مغرية، وكانت مقاومة القوط ضعيفة للحد الذي جعل موسى ينظم الغزو بصفته حاكمًا لشمال إفريقيا.

أبحرت حملة مكونة من بربر المنطقة تحت قيادة طارق مع ٧٠٠ رجل عند صخرة جبل طارق وغزت شبه الجزيرة الأيبيرية. تقدمت من جبل طارق حتى نهر برباتي Barbate حيث انتظرت جيش القوط وعلى رأسه الملك لذريق، الذي حضر لمواجهة الغزو بعد سير طويل قادمًا من شمال شبه الجزيرة ليقرر في هذه المعركة مستقبل إسبانيا.

وكما نرى في ديوان الشعر القديم Romancero Viejo، تقرر في وادي لكة هزيمة مملكة القوط الإسبانية واستقرار سلطة سياسية جديدة وتدعيمها، لها تراثها الثقافي المعمول به عبر القرون من خلال أصولهم والموجود في المجتمع الإسباني الحالي.

لقد انقسم المجتمع القوطي، وأصبح جزءًا كبيرًا من مجتمع النبلاء في صف العرب، بينما فر جزء من جيش القوط، وسُحق الجزء الآخر مع السيد لذريق، ولم يُعرف شيء مطلقًا عن نهاية السيد لذريق الذي اختفى إلى الأبد غرقًا أو منجرفًا نحو البحر.

واصل طارق تقدمه سريعًا آنذاك - دون عوائق تمنعه - من مدن جنوب إسبانيا دون أن يواجه أي مقاومة، وكان توسعه غير دامٍ مستخدمًا بذلك الطريقة نفسها التي استعملها الإسلام في انتشاره بالشرق عبر نظام من المعاهدات و/ أو اتفاقات التسليم المشروط التي تنص على الاحترام المطلق للحياة والممتلكات، والتسامح الديني، وحرية العبادات مقابل دفع الجزية.

كان الواقع الاجتماعي هو أن العبيد لم يريدوا الحرب مع أسيادهم نظرًا لحالة العزلة التي كانوا فيها والاحتقار الذي عانوا منه، بينما رحب اليهود بالعرب.

كان الغزاة أكثر تسامحًا فيما يتعلق بمسألة الدين، فبالإضافة إلى بقاء اليهود في المدن التي فتحها العرب كانوا يتعاونون مع الغزاة أثناء زحفهم نحو مدن الشمال.

لقد تحقق النصر بسهولة وكانت الغنائم كثيرة لدرجة أن طارقًا تجاهل أوامر موسى بعدم مواصلة التقدم واستمر حتى فتح العاصمة طليطلة. وجاء الربيع وأصبح طارق مالكًا لنصف إسبانيا، فلم يكن هناك بين الأحداث التاريخية فتحًا سريعًا كهذا، ولا حتى في تاريخ الإسلام.

وهكذا قرر موسى الذهاب مع جيشه للبحث عن نائبه طارق – شاعرًا بالغيرة من انتصاراته – وتقدم حتى أبواب مدينة طليطلة ولحق به.

لقد كان حدثًا تاريخيًا عندما ذهب طارق لاستقبال قائده موسى بينما قام الأخير بضربه على وجهه بالسوط لعدم إطاعة أوامره فيما يتعلق ببعض تقنيات الفتح، وألقى القبض عليه وأمر بتقييده. ومنذ تلك اللحظة استمر الفتح بنفس السهولة وفقًا لأوامر موسى حتى تم سحق كل مقاومة منظمة في عام ٧١٤م.

لقد وصل المسلمون في توسعهم إلى شبه جزيرة أيبيريا في بداية القرن الثامن، حيث ضموا الأندلس إلى بلاد الإسلام، واستمرت كذلك حتى القرن الخامس عشر عندما تم استرداد غرناطة في١٤٩٢م.

ويُعد بقاء المسلمين في شبه الجزيرة أحد الأحداث الحاسمة في التطور التاريخي لإسبانيا العصور الوسطى والحديثة، فهو– في الوقت الحالي – يحدد مواصفات هويتنا كشعب من خلال اللغة والأشكال الفنية والثقافية الخاصة بنا.

الفصل الثاني

الأندلس والحضارة العربية: ماض مشترك

١- البيئة والإنسان

لقد ظهرت الحضارة العربية في شبه الجزيرة العربية حركةً كبيرة امتـدت منذ بداية القرن الخامس في شمال إفريقيا ووسطها حتـى وسـط آسـيا وجنـوب أوروبا. ومن خلال اللغة الشفهية ثم المكتوبة تمكنت من ممارسـة سـلطتها فـي تطوير العادات والمؤسسات والنفوس، بحيث طعمت الجذور الاجتماعية بكل ما هو عربي فتشربه شكل الحياة الاجتماعية.

وقد أوجدت هذه الحركة شعراء قبل أن يكون لديها شعر، وقصاصين رغـم عدم وجود أدب، ولكن كان لدى أبناء الصحراء هؤلاء عاملان أساسـيان للتعبيـر عن الفكر وهما: الإحساس بالإيقاع وبالصورة بالنسبة لشعب ولد وعاش ونما تحت الشمس المشرقة الموجودة في أرضهم.

وقامت هذه الحضارة فوق هضبة عالية تمتد أسفلها وديان خصبة مما جعـل بيئة العربي تتمتع بأكثر الأجواء صحة في العالم. فالهواء كان نقيًا خالصًا، والبيئة أثرت بشكل عجيب في الساكن – الذي كان قنوعًا وقويًا – ووجد الطريقـة التـي يسكن بها جوعه دون الخوف من الغد، وفي الوقت نفسه ضمن له التـوازن قوتـه البدنية واستمرار الشباب وسكون الشهوات.

لقد عرف هذا الإنسان عواطفه ولكن لم يسيطر عليه شيء أكبر من سـلطة الدين التي من أجلها أظهر كل همته، فالحب خفف من حـدة تعـصبه أكثـر مـن

الإيمان، وكان إذا استجاب لثورة المشاعر يعرف كيف يتحكم فيهــا مــن خــلال طمأنينة التأمل.

علاوة على هذه العطاءات، كانت لديه مميزات عقليــة، فهــو ذو بــصيرة مدهشة، وتفهم غير عادي وفطنة وقوة ملاحظة، وهي سمة هذه الجماعات العرقية السامية.

لقد قدمت أرض شبه الجزيرة العربية هذه لأهلها كل ما يمكن أن يُطلب من أرض تغذيهم، فالأمطار الخريفية تكسو الأرض بالخضرة الوفيرة والعشب المغذي لإطعام الأنعام، وكان الأعرابي يتنقل خلال فصول العام حيث المــاء والمــزارع تحت ظل أشجار الهضبة. وساعدت هذه التنقلات في الاتصال بين القبائل لتبــادل منتجات الأرض والنبوغ والأفكار. وبهذه الطريقة أصبح للبدو الرحل موضــوعات للحوار، وكانوا يستمعون للقصاص دون شك في صدق حكاياتــه ووصــفه الــذي يجعلهم مفتونين به.

لقد تدرب العربي سريعًا على السلطة والكلمة فصور كل ما أبهره أو أمــلاه عليه خياله، فإن كان فيلسوفًا فهو يكسو مبادئه التي تفيض حكمــة بجمــال أقوالــه المأثورة؛ وإن كان شاعرًا فهو يثير القلوب وتفيض كلماته غنائية وعذوبة يستدعي بها في أوقات الجهاد المفاخر الحربية... وهو في أوقات الترحال قائد للقوافل، وفي أوقات الفتوحات أمير للمؤمنين تحت راية خضراء مقدسة يردد أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- الرسالة الإلهية: ظهور النبي...

في هذه البيئة المهيئة للعربي، كان الرجل الذي يتحدث ويخلب العقل ويقنــع هو المعلم الحقيقي. وترجع مكانة محمد صلى الله عليه وسلم وقوته، لــسحر قوتــه

الشفهية التي لا تقاوم. اكتسب فن الإقناع الذي تعلمه من أبيه عبد الله(*) وجده عبد المطلب وعمه أبي طالب والراهب بحيرى الذي اعتاد زيارة صومعته.

وكان النبي ينتمي لقبيلة قريش التي كانت تقوم بحماية الكعبة. وهو ينحدر مباشرة من سلالة إسماعيل بن إبراهيم وهاجر عليهم السلام. لقد كان في شبابه تاجرًا، فتدرب على اللهجة الفصحى السليمة وطاف ببلاد أجنبية، فتعلم استعمالاتهم وعقائدهم وتقاليدهم وطقوسهم، وعلمه الراهب بحيرى عقيدة المسيح عليه السلام والمواعظ وحكايات الإنجيل فتغذى فكره على هذه الحكايات. ثم تزوج السيدة خديجة (أرملة غنية بمكة) وآمنت بدعوته وساعدته ثروتها على نشر الرسالة.

اختاره الله لرسالته فجاء بالإسلام الذي يستند إلى الوحي الإلهي، كوَّن أتباعًا، وآمن به أكثر الشخصيات مكانة في مكة، وعُرفت عنه الرؤى الصادقة من خلال وعوده التي تتحقق، وعلاوة على أعبائه الروحية أُضيف دور آخر أهم، وهو أن يكون رسول الله.

كانت تغمره متعة التعبد، ويجتمع حوله المؤمنون والورعون مثل أبى بكر حميه وعلي ابن عمه وزوج ابنته بعد ذلك وأقاربه وأصحابه الذين ألان قلوبهم بالوثوق في رسالته. كان مطاردًا من زعماء قريش وتخلص من اضطهادهم بالفرار إلى المدينة متخفيًا عن ملاحقيه - كما تروي السيرة - في الغار حيث كانت المعجزة أن نسج عنكبوت خيوطه ليحميه من أعدائه. كان يبلغ من العمر آنذاك ٤٠ عامًا وقد صار نبيًّا.

بدأت الهجرة عام ٦٢٢م. ومنها بدأ التأريخ الإسلامي بتأسيس الإسلام. وعند وصوله إلى المدينة تم استقباله استقبال المنتصرين، وشرع مع أتباعه في حرب كفار مكة حيث انتصر على قريش ببدر، لكنه عانى بعد ذلك هزيمة في أحد عام ٦٢٥م.

(*) لسنا ندري كيف يقرر الكاتب أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلم من أبيه مع أن الرسول وُلِد بعد وفاة أبيه. (المترجمة)

لقد تجمعت جيوشه وبدأت حملة منتصرة على بلاد الشام وصدت بنجاح هجومًا على المدينة. ولاحقًا تم عقد هدنة لكي يستطيع المسلمون دخول مكة للحج، ثم أخضعوا كل شبه الجزيرة العربية وساروا منتصرين لفتح مصر والإمبراطورية الرومانية وفارس.

فُتِحت مكة في ٦٣٠م. وتحطمت الأصنام وتم التمسك بالعقيدة الحقيقية التي أنزلها الله عن طريق ملائكة الوحي وسادت وفقًا للمشيئة الإلهية. وسريعًا، عبدت كل الجزيرة العربية الله الذي أنزل تعاليمه على نبيه المنتصر، والذي حج حجة الوداع وقد ذاع صيته يرافقه آلاف من المؤمنين. ثم عاد إلى المدينة حيث توفي في العام الحادي عشر من الهجرة الموافق ٦٣٣م. بين ذراعي زوجه السيدة عائشة، مُوَرِّثًا اسمه للسيدة فاطمة ابنته وزوجه علي.

لقد تجسدت في محمد صلى الله عليه وسلم قوة الكلمة التي أسست الإسلام، التي ظهرت في جزء كبير من دعوته، وفي القرآن الذي يحوي العقيدة، وهو المصدر المقدس للقانون الإسلامي السياسي والمدني والديني، حيث تم جمعه في عهد أبي بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

حوى القرآن الوحي والمواعظ الكبرى والحِكم والوصايا الموحاة إلى الرسول – للحث على اعتناق الإسلام، وتضرعاته – وثناءه على الله، ونصائحه وتحذيراته، ولعناته على اليهود والمسيحيين والكفار، والقصص والترغيب والترهيب، وقواعد الأخلاق، ووصايا الطهارة وعقائد الموحدين والمؤثرين على أنفسهم، كل ذلك على أساس الهيمنة المطلقة والكونية لله الواحد، الذي يطلب من الجميع الدعاء والطاعة وفعل الخير، والأخوة واحترام المرأة، والطهارة والاعتدال، والتضحية بكل الرغبات في سبيل الإسلام.

هكذا أسس النبي صلى الله عليه وسلم قواعد البناء الاجتماعي على الدين الحقيقي، وجعل رأس الأمر فيه القانون المطلق المجموع في القرآن الذي كان

وسيظل نقيًا مقاومًا لكل الهجمات منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنـًا، دون أن ينكسر ودون أن يستطيع هزيمته أي تهديد مستقبلي.

٣- الإسلام والحضارة

كوّن العرب حضارة خاصة تتميز بانتشار الفنون والآداب والعلوم.

ففي فن العمارة، وصلوا إلى أعلى درجات التعبير، لأن القرآن حرم تصوير الكائنات الحية مما أدى إلى منع تطور الرسم والنحت، فلذلك استخدموا في العمارة تقنيات التزيين بابتكار أشكال هندسية، ورسم الأزهار والفواكه والأوراق التي تجمل المباني والمنشآت المدنية والدينية. وكانوا يستخدمون في البناء الداخلي الرءوس مع تعزيزات للحواف البارزة والأسقف، مستعملين الخطوط والمساحات بطريقة جمالية. وكانوا في بادئ الأمر يستعملون في خارج المباني الحليات المعمارية وردية الشكل، والأعمدة والحوامل من الطوب ذات قوس مدبب. كما أنهم استعملوا – بطريقة تنظيمية – القوس على شكل حدوة الحصان نصف الدائرية، ثم لجأوا لاحقًا إلى التقاطعات والأقواس العلوية ذات الفصوص الثلاثة أو الخمسة وهي الأكثر شيوعًا. ولكثرة الديكورات، كانت تمتاز العمارة باستخدام الجص وألواح من الألبستر أو المرمر والفسيفساء والرسوم، مستعملين أفكارًا مختصة بالنقوش ذات الزخارف المشبكة والنباتات المشكلة من الأوراق الصغيرة التي تعرف بالتوريقات.

أما فيما يتعلق بالأدب العربي، فقد كان غزير الإنتاج في جميع الأجناس، ونذكر من أدب العصر الجاهلي "المعلقات في القرن السادس" وهي مجموعة أشعار لشعراء عدة يعكسون ثراء الصور، واصفين بخطوط عريضة حياة العرب والبدو المتنقلة، وأحداثًا من الحياة اليومية، وقصص الصيد، والحروب، ومشاهد المحبين... لتكون بهذا سلسلة من القصائد لشعراء مختلفين.

يجب الإشارة إلى أنه بعد مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وُلد نوع أدبي جديد وهو القصة النثرية والشعرية، التي ظهرت منذ رواية الفرسان ذات الإنتاج الأدبي الكبير والذي يستحق الذكر منه قصيدة عنترة، علاوة على النوع الملحمي مثل "موت الحسين" وقصص "ألف ليلة وليلة" الرائعة، والنوع الساخر مثل الأساطير، وأعمال أخرى ذات طابع تاريخي أو فلسفي ولكنها أقل أهمية.

وهناك مجالات أخرى للمعرفة يظهر فيها تفوق العرب، وهو غزارة إنتاجهم في العلوم والأبحاث اللغوية وتطور الفلسفة.

فظهرت مجموعة من الشخصيات التي أشرقت بضوئها في الفروع المختلفة مثل الرياضيات والفلك والجغرافيا والكيمياء والطب واللاهوت واللغة، وأمدوا العالم الغربي بخدمة لا تقدر، وهي تجنب تدمير أمهات الكتب للفكر اليوناني، حيث ترجموها وشرحوها في المدارس التي أسسوها.

ويستحق الذكر من بينهم أبو ريبان في عهد الغساسنة، وكان معجزة في كل أمور العلم، يمكن مقارنته بأرسطو من القدماء الكلاسيكيين. وحظيت أعماله بشهرة عالمية في المراصد، والأكاديميات، ومكتبات بغداد وبخارى وسمرقند.

ويرجع الفضل لهؤلاء العباقرة العرب في الحفاظ على كتاب المجسطي وإتمامه، والذي يعد موجزًا للمعارف القديمة، وأفضل أعمال هذه المجموعة من الشخصيات، كان نتيجته إنقاذ أعمال أرسطو التي درسوها وترجموها، ثم من خلال منشوراتهم تحولت لأساس أفكارهم الفلسفية للإسلام والعالم المسيحي، وأصبحوا معلمين للفلسفة الكلاسيكية والجدل والمنطق وعلم الأخلاق.

يجب أن نذكر الكندي من البصرة الذي ترجم لأرسطو ومارس بنفس البراعة فن العلاج، تمامًا مثل الفارابي الطبيب الشهير الذي عمم الأرسطية في بغداد في القرن العاشر ودرَّسها في دمشق.

ولا يجوز أن نغفل أيضًا عبقريتَين بارزتَين غير عاديتَين في العلوم العربية يجدر ذكرهما، هما: ابن سينا وابن رشد اللذان سطعا بتألقهما في هذا المجال.

٤- الأندلس وهويتها

يمكن تعريف الأندلس بأنها الأرض التي استقر بها المسلمون في شبه جزيرة أيبريا، التي ضمت كل شبه الجزيرة في القرن الثامن، حتى تم تغيير الحدود بعد ذلك إلى الإسبانية الإسلامية، والقشتالية الأرجونية، خلال غزوهم للإقليم حتى نهاية القرن الخامس عشر.

في هذا الإقليم، تشكلت حضارة أشعت بضوئها على الغرب والشرق، لكونها منطقة التقاء وتقابل ثقافي وبشري، نسيتها أوروبا، لكنها بقيت دائمًا في الذكرى الخالدة للعالم الإسلامي.

وعلينا أن نشير إلى أن العرب – بعد الفتح الإسلامي للأندلس عام ٧١٠م– كانوا جماعة أقلية، بينما كان البربر والإسبان هم الأغلبية.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه طوال القرن التاسع لم تكن العربية لغة الحديث، بل اللاتينية، فقد حدثت حركة تعريب قوية مرتبطة بأهمية اللغة التي نزل بها القرآن الكريم. وهكذا أصبحت اللغة العربية في الأندلس مرادفًا للذوق الرفيع والعلم، ودرسها المستعربون والمسيحيون الذين كانوا يعيشون تحت السيطرة الإسلامية، والذين أصبحوا يتكلمون ويكتبون بهذه اللغة، مثلهم مثل بعض الجماعات العرقية، كاليهود الذين شاركوا من خلال جالياتهم في الحياة العامة في الأندلس.

كان للتعليم والمعرفة أهمية كبيرة في مجتمع الأندلس مثلما أوضحت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي جُمعت بحيث، أصبح يُستخدم بين العامة تعبيرات مثل "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، و"ليس هناك شيء أحب إلى الله

من رجل تعلّم العلم وعلّمه للناس" (حديثان شريفان). فكانت هذه هي الحِكم الأكثر تأثيرًا في ذلك العصر.

لقد تبدلت حياة السكان في الأندلس بعد تأثير الإسلام، بحيث تغيرت العادات، والبنية الاجتماعية والنظام. تشكل في الأندلس مجتمع حضري متقدم ومثقف ومنظم جيدًا، كانت نواته الحضارية هي المدينة، التي كانت مصممة في منطقتين: السكنية والتجارية.

نجد في المدينة السوق وهو مكان الالتقاء للأنشطة التجارية، حيث يقوم الناس بالمعاملات التجارية. وتوجد منتجات متنوعة مثل: الأقمشة والتوابل والعطور واللحوم والفواكه والخضراوات والصيغة والفخار، وكل تلك المنتجات موجودة تحت رقابة المحتسب وتفتيشه الذي يمارس رقابة حازمة للعمليات، واستخدموا في المعاملات التجارية العملة التي سكت في دار سكة قرطبة، التي تم تداولها في شكل دينار أو درهم أو فِلس، وكانت هي العملات الشائعة للحصول على البضائع.

كان الجامع هو المركز الروحي للمدينة، وهو المكان الذي يرتاده الناس ليس لصلاة الجماعة فحسب، بل أيضًا لعقد اجتماعات أخرى ذات طبيعة اجتماعية، ولأداء الصلاة الفردية، ولتنفيذ أحكام القرآن.

كانت المنطقة السكنية خارج المنطقة التجارية أو السوق، وتقع في أحياء محصنة حيث تغلق الأبواب ويكون عليها رقابة طوال الليل.

كان المسكن عادةً متواضعًا من الخارج وأحيانًا فخمًا من الداخل، ويتكون من حجرات متنوعة: صالونات ومطبخ وغرف نوم... ويوجد حول الفناء بركة أو على الأقل بئر، وكانت المرأة تجتهد في المطبخ لتعد الفطائر المقلية المعسلة والكبيبة والكسكس والفطائر المحشوة بالبازلاء والأسماك والباذنجان...

أما الأثاث فكان بسيطًا، فكانوا يستعملون طاولات منخفضة، وسجادًا من الصوف، وصناديق كبيرة، وبعض العلب والكوات لحفظ الأشياء، كما استعملوا أيضًا الفرن والوسائد الحريرية مساند للراحة مزودة بزينة بسيطة.

وكانت المدن مزودة بإنارة تعمل في شكل شبكة عامة، إضافة إلى نظام صرف لم يكن مستخدمًا في جزء من أوروبا خلال القرنين التاسع والعاشر.

بالإضافة إلى ذلك، كان موجودًا في المدينة الحمامات العامة العديدة للوضوء ونظافة الجسم، حيث يغتسل الناس رجالاً ونساءً، كل في دوره، بحيث يكون الصباح للرجال والمساء للنساء، اللاتي كن يتحدثن ويتزين ويستخدمن بعض المواد للعناية بالجسم، مثل العطور ومعجون مزيل للشعر وصابون طبي للشعر وقشرة الجوز لتلوين الشفاه...إلخ، وكان لديهن منتجات متنوعة مثل أدوات التجميل للزينة.

وفي الحدائق، كانت تُزرع كل أنواع الزهور العطرية مثل: الخيري، الزهر، سلطان الجبل، والياسمين، علاوة على الخضراوات مثل: الباذنجان، والخرشوف والهندباء والهليون؛ والفواكه مثل البطيخ والمشمش والرمان...إلخ. وكان لديهم الساقية من تقنيات للري والنواعير التي تستخرج المياه من الآبار.

كان التكوين الفكري يحدث في المدرسة أو في المسجد، حيث تُعطى دروس في العلوم والنصوص القرآنية واللاهوت. وقد كان التعليم ذا قيمة لدى المسلمين، وكانت تُفرض برامج لتطويره وضمانه لساكني المدينة من خلال طلبات رسمية.

الفصل الثالث

رسالة النبي محمد: القرآن ومبادئ الإسلام

١- الوحي الإلهي

الإسلام كلمة عربية تعني التسليم والطاعة، لذلك فهو يدعو للخضوع والطاعة التامة لله. وكلمة الإسلام لا تقتصر على شخص أو شعب أو بلد بعينه، ولا تُعد شيئًا خاصًا بنفس بشرية ولا جماعة بعينها. إنه دين عالمي ينزع إلى تيسير وتحفيز صفة الطاعة والخضوع المطلق لله لدى الإنسان.

ووفقًا للإسلام، فإن الرسول – النبي – هو الذي يبلغ الناس رسالة الله. ولذلك، حسب علم الدين الإسلامي، يوجد نوعان من الأنبياء: النبي الذي تقتصر رسالته على مجرد النبوة، والرسول الذي يتعدى النبوة إلى التبليغ.

فالأول يتلقى رسالة ولكن لم يُكلف بشيء يجب عليه إبلاغه، لذلك فإن المجتمع الإنساني يعرفه بأنه نبي ويوقره مثل موسى عليه السلام(*) الذي أبلغ التوراة.

ومع ذلك، فإن الثاني هو الرسول أو المُبلغ لأنه يبلغ بوجود الرب الإله الواحد صاحب العناية الإلهية الذي يكافئ مَن يعمل الخير ويعاقب مَن يعمل الشر. وهكذا فإن النبي يكون في الوقت نفسه هو الرسول والهادي لجماعة المؤمنين.

وقبل أن يبدأ محمد صلى الله عليه وسلم رسالته مثل أنبياء بني إسرائيل، كان لديه كرامات خاصة مثل موسى عليه السلام والشجرة المشتعلة، وإسحاق عليه

(*) أخطأ المؤلف في اختيار المثال، لأن موسى عليه السلام كان نبيًا ورسولًا، بل هو أحد أولى العزم من الرسل. (المترجمة).

السلام ورؤاه الإلهية. كان محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ أربعين عامًا، ويذهب كل عام لجبل حراء بالقرب من مكة حيث كان يختلي في الغار.

حسبما يوضح المفسر، الذي يشرح كيف كانت أول رؤية للنبي – صلى الله عليه وسلم – حسب الوحي، ظهر نجم للرسول صلى الله عليه وسلم عند بزوغ الفجر. كان بحاجة لأن يأوي للوحدة في الغار بجبل حراء، وكان يخصص الليالي المقمرة للتأمل. ثم جاءه الحق فجأة وقال له: "يا محمد أنت رسول الله". كان النبي واقفًا ثم جثا على ركبتيه، وخرج في الحال يجري بحثًا عن السيدة خديجة، وصاح قائلاً لها: "زملوني..." حتى ذهب الروع عنه.

وظهر له الوحي الإلهي مرة أخرى قائلاً: "يا محمد أنت رسول الله". آنذاك، فكر النبي في هبوط الوهد، وعندما استعد لذلك ظهر له مرة أخرى قائلاً: "يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله. اقرأ". فقال محمد: "ما أنا بقارئ". فضمَّه جبريل حتى بلغ منه الجهد – ثلاث مراتٍ – ثم سقط على الأرض منهكًا. وعاد جبريل ليقول له: "اقرأ باسم ربك الذي خلق". وعندها قرأ.

ذهب مرة أخرى بحثًا عن خديجة وقال لها: "لقد خشيت على نفسي اليوم بشدة". وشرح لها ما حدث. قالت: "افرح، والله ما يخزيك الله أبدًا. والله، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". وعندئذ أخذته إلى ورقة بن نوفل بن أسد وقالت: "اسمع بإصغاء لابن أخيك". فسأله، وحكى له ما حدث. قال ورقة: "هذا هو الناموس، القانون الذي نزل على موسى عليه السلام. يا ليتني فيها جذع (شاب) ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك".

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أو مخرجي هم؟" فأجاب ورقة: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا".

بالنسبة للمسلمين، فإن كلمة "تنزيل" تطلق على النزول – بالمعنى الحقيقي للكلمة – كتاب سماوي، الذي يظهر فيه مكتوبًا نص مقدس (القرآن) – والذي نزل بغتة على محمد – صلى الله عليه وسلم – بواسطة الملك جبريل (أمين الوحي).

استجاب محمد صلى الله عليه وسلم لإلحاح الملَك، وتعلم فحوى ما يريده، ومنذ ذلك الوقت أصبح النبي المبلغ لرسالة الله. وهكذا تم آخر تنزيل من الله للعباد، ومحتواه هو النسخة الصحيحة لكتاب خالد وهو القرآن الذي يسمى بأم الكتب.

تعلن الشهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" خمس مرات في اليوم وقت النداء للصلاة (الأذان).

يوجد لدى المسلمين مسلّمتان دينيتان غير منفصلتين ومتكاملتين وهما: الثنائي (الله – محمد) في نفس المستوى[*]، وبالتالي فهي تبين الأهمية التي نسبها الإسلام للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أعلن محمد – صلى الله عليه وسلم – أن مهمته هي إبلاغ الناس القرآن أو الوحي الإلهي. ويمكن تعريف القرآن على أنه:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة ٧٧– ٧٩).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الواقعة ٨٠).

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ (البروج ٢١ –٢٢).

﴿كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام ٥٩).

﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل ٨٩).

(*) لقد قمنا بترجمة ما كتبه المؤلف كما هو، وذلك لا يعني أننا متفقتان معه فيما يقول، حيث إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – نهى في أكثر من موضع عن أن يجعله أحد ندًا لله تعالى. (المترجمة).

﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت ٤٢).

﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (يونس ٥٧).

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الزمر ٢٣).

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت ٢،٣).

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (ابراهيم ١).

لم تكن مهمة محمد – صلى الله عليه وسلم – سهلة، حيث كان عليه أن يواجه المصالح الاقتصادية والتجارية والدينية لكبار الأسر في مكة، ويواجه بدو الصحراء وعائلته نفسها، ولكن في النهاية أصبح محمد مكرمًا ليس لقوة إقناع كلماته فحسب، بل أيضًا للقوة الحربية لجماعة المؤمنين الذين ساعدوه في نشر وحي الله في كل العالم.

٢– مبادئ الإسلام

إن كلمة الإسلام لا تنطبق على شعب أو مجتمع إنساني أو تراث بعينه، ولذلك فهو دين عالمي غايته تحفيز أخلاق الإسلام لدى الإنسان وزرعها.

الإسلام هو كلمة عربية تعني التسليم والطاعة الكاملة لله. يمكن أن نعدد مبادئ الإسلام كما يلي:

(أ) طبيعة الإسلام

تشكل الأرض التي نعيش عليها جزءًا من الكون المنظم، حيث تحكم القوانين والقواعد كل شيء فيه. ينتمي كل من الشمس والكواكب والقمر وباقي الأجسام السماوية إلى النظام نفسه حيث تتبع مسارًا لا يتغير في ظل قوانين ثابتة.

إن ميلاد الإنسان ونموه وحياته ورزقه في الطبيعة محكومون بنظام من القوانين البيولوجية التي تحكم عمل جميع الأعضاء من أصغر جزء إلى القلب والمخ.

وهكذا، يخضع الكون لقانون، وكل شيء يعمل بحتمية كما هو مقدر له. يتبع هذا النظام الكوني الذي يحكم الكون – من الجزيئات الدنيا مثل الذرَّة إلى المجرات – قانون الله خالق هذا الكون وربه. وإذا كان الخلق يطيع القوانين الإلهية، فالكون كله يتبع حرفيًا دين الإسلام لأن الإسلام هو التسليم والطاعة الكاملتان لرب الكون وهو الله.

إن الإنسان يملك طبيعة مزدوجة، وتتطور حياته على مستويين مختلفين. فهو مخلوق بشري، يعتمد على القوانين الطبيعية تمامًا ويخضع لها، كما أنه مزود بعقل وذكاء ولديه القدرة على الاختيار أو الرفض، على الموافقة أو الاستنكار، على اختيار دينه، ونوع حياته؛ ومن خلال إرادته الحرة يقرر سلوكه الخاص.

بتطبيق هذه البدهيات، فإن الإنسان يولد مسلمًا إذا اتبع أوامر الله، وكانت لديه الرغبة من خلال إرادته الحرة لأن يكون مسلمًا أو لا، وأن يشكل جزءًا من المجموعتين اللتين تنقسم إليهما البشرية: المؤمنين والكفار.

إن الذي يختار أن يعترف بخالقه، ويقبله ملكًا واحدًا، ويخضع لأوامره بدقة ملتزمًا بالقانون الذي نزل للإنسان لحياته الشخصية أو الاجتماعية، يصبح مسلمًا بحق. فهذا الشخص قرر بإرادته أن يطيع الله على المستوى الذي قررته إرادته الحرة، بحيث أصبحت حياته بأكملها حياة تسليم لله، وأصبح مسلمًا تامًّا وإسلامه كاملاً لأن تسليمه الكامل لمشيئة الله هو الإسلام.

والآن فإن وجوده هو تجسيد للحقيقة، لأن طبيعته المزدوجة وغريزته وإرادته تطيع قوانين الله الواحد، رب الكون.

وعلى النقيض، فإن الإنسان الذي يعيش حياته كلها – رغم أنه مسلم بالطبيعة – دون وعي ولا يمارس قدراته العقلية ليعترف بربه وخالقه، ولا يستخدم حريته في الاختيار إلا لينكر وجوده، يكون إنسانًا كافرًا كما يسميه الإسلام.

إن الإنسان الذي ينكر الله كافر لأن جحوده يحجب ما هو ملازم لطبيعته وروحه، وذلك لأن الطبيعة موجهة بالغريزة نحو الإسلام. والنتيجة الحتمية لهذا الإنكار للحقيقة هو أن يفقد الإنسان أسمى الغايات في حياته، على أساس أن الكافر لن يجد أبدًا طريق المعرفة الحقيقية لأنه إذا كان غير قادر على أن يعرف الخالق نفسه فلن يعرف أي حقيقة أخرى.

(ب) الإيمان والطاعة

الإسلام يعني طاعة الله. فما هي المبادئ التي يجب على الإنسان معرفتها ليدير حياته وفقًا للتعاليم الإلهية؟

في المقام الأول، يحتاج إلى إيمان لا يتزعزع في وجود الله. ولهذا الهدف، من الضروري معرفة صفات الله التي دون معرفتها لا يستطيع الإنسان أن يزرع في نفسه الخصال النبيلة ويعيش حياة الفضيلة والخير. علاوة على ذلك، يحتاج لمعرفة نوع الحياة التي يمكن أن ترضي الله. فكيف يستطيع الإنسان أن يختار شيئًا ويرفض الآخر إذا كان يجهل ما يرضي الله وما لا يرضيه؟

إذا لم يكن لديه المعرفة بالقانون الإلهي فكيف يمكن أن يتبعه؟ وهكذا فإن معرفة القانون والتنزيلات الإلهية تُعد أيضًا أساسية في هذا الشأن. ولكن هذا لا يكفي، فالمعرفة البسيطة غير كافية. يجب أن يكون لدى الإنسان ثقة أكبر ومعرفة أوسع وأكمل لماهية القانون الإلهي؛ وأن نجاته تعتمد كليًا على اتباع هذا القانون،

لأن المعرفة دون اقتناع لا تؤدي إلى دفع الإنسان نحو الطريق القويم، بل تعرضه لخطر أن يضل في طريق المعصية.

ومن الضروري أيضًا معرفة عواقب الطاعة والإيمان، وعواقب الكفر والمعصية. يجب أن يكون لدى الإنسان إيمان قوي في أن الموت لا يعني نهاية الحياة، وأن هناك بعثًا ووقوفًا أمام المحكمة العليا التي يرأسها الله نفسه، وأنه في يوم الحساب ستسود العدالة وستُكافأ الأعمال الصالحة بينما تُعاقب السيئة. هذا الشعور بالمسئولية أساسي تمامًا للطاعة غير المشروطة لقانون الله.

(ج) النبوة

من الضروري عرض النقاط التالية:

١- من العدل أن يعيش الإنسان حياة الطاعة لله، ولذلك فإن المعرفة والإيمان ضروريتان بالتأكيد مثل معرفة الله وصفاته، ومعرفة الطريق ويوم الحساب والإيمان الثابت في صدق هذه المعرفة.

٢- أراد الله أن يُجنب الإنسان اكتساب هذه المعرفة بمجهوده الشخصي، فأنزلها على الأنبياء المصطفين من بين الناس وأمرهم بإبلاغ سائر البشر بإرادته هذه وتبصرتهم بالطريق القويم.

٣- يجب على كل الرجال والنساء الاعتراف بأحد الأنبياء ثم، بعد التأكد من أنه رسول بحق، الإيمان به وبتعاليمه وطاعته طاعةً كاملةً ليصلوا إلى طريق النجاة.

بعد القيام بهذا العرض للمبادئ، من الضروري تحليل تاريخ النبوة، بمعنى ما هي أول سلسلة من حلقات الأنبياء التي انتهت بخاتم النبيين – محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الجنس البشري أصله رجل واحد ،و آدم عليه السلام، أبو البشر ، الـــذي امتد البشر منه وتكاثروا. كان آدم عليه السلام -- أول إنسان على الأرض – هـــو أول نبي أنزل الله عليه الدين وأمره بنقل المبادئ التالية لذريته: أن هناك إلهًا واحدًا خالقًا ومالكًا للكون وتجب عبادته وحده وطاعته واللجوء إليه لطلب العون، ويجـــب أن يعيش الإنسان حياة صالحة وعفيفة ترضي الله. إذا عاشوا كذلك ســيباركهم الله ويكافئهم بما يستحقونه، وإذا ابتعدوا عن ذلك وعصوه سيكونون مذنبين فـــي هـــذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وسيعاقبهم الله لكفرهم وعصيانهم.

لقد اتبع الأخيار من ذرية آدم – عليه السلام – الـــصراط المـــستقيم الـــذي أرشدهم إليه أبوهم، ولكن الأشرار تركوا تعاليم آدم وانحرفـــوا ليعبـــدوا الـــشمس والقمر والكواكب، حيث ظهرت أشكال الشرك المتعددة وكثرت الأديان.

في ظل هذه الحالة، بدأ الله في بعث الرسل في كل قوم لـــدعوتهم للإســـلام فعلموهم عبادة الله، ووضعوا نهاية لممارسة الشرك والوثنية، وطهروهم مـــن كـــل العادات التي ولدت في الجاهلية، ولقنوهم طريقة الحياة التي تصلح أن يمارســـوها ليرضوا الله، وأعطوهم مجموعة قوانين تنظم لهم حياتهم في المجتمع.

كان سلوك الإنسان تجاه الأنبياء الحقيقيين غريبًا جدًا. في البدايـــة أســـاءوا معاملتهم ورفضوا سماعهم واتباع تعاليمهم. بعض الأنبياء نُفوا، وآخـــرون قُتلـــوا، وهناك مَن ظل يدعو على الرغم من الإعراض، بينما ترك بعض رسل الله الدعوة وسط الاعتراض والسخرية والإهانات.

في البداية ظهر أنبياء مختلفون في كل قوم، وكانت تعاليمهم موجهة بـــشكل خاص لأقوامهم. والسبب في ذلك أنه في هذه الفترة من التاريخ كانت الشعوب تحيا منفصلة عن بعضها حتى أن كلاً منهم كان يقيم في حدوده الجغرافيـــة واحتمـــالات التبادل كانت معدومة.

لاحقًا، ومع تقدم التجارة والصناعة والفنون وتطورها نشأت العلاقات بين الشعوب، ولأنهم قد تقاربوا أصبح ذلك دافعًا لعقيدة واحدة يرسلها الله تضمن للناس حياة عالمية تتناسب مع الأحكام البشرية الأخلاقية والروحية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية. واعتمدت البشرية بأكملها على التطور العقلي الذي كان يتطلع إلى دين عالمي.

وهناك عقائد دينية أخرى – كالبوذية – لا تحتوي سوى على مبادئ أخلاقية. ولكنها لا تأتي بالإيمان بإله أعلى ولا تذكر شيئًا عن الهدف الروحي للإنسان. وقد ظهرت هذه العقيدة في الهند وامتدت في البداية حتى اليابان ومنغوليا، وبعد ذلك إلى أفغانستان وبخارى على الرغم من أن المبشرين بها طافوا العالم.

وعلى صعيد آخر، فإن الديانة التي جاء بها المسيح عليه السلام ما هي إلا الإسلام، ولكن حوارييه اختصروها لتصبح مزيجًا مع اليهودية وسموها المسيحية. وكانت موجهة في البداية لبني إسرائيل ثم بعد ذلك انتشرت في فارس وآسيا الصغرى وأوروبا وإفريقيا.

وتثبت هذه الأحداث بوضوح أن ظروف العصر كانت تتطلب رسالة عامة لكل البشرية، والحاجة الملحة لذلك تمثلت في غياب دين حقيقي وكامل للناس. في هذه الحالة الحرجة، تطلبت الروح الإنسانية دينًا عالميًا، وبُعث نبي في شبه الجزيرة العربية للعالم بأكمله ولكل الأقوام. الدين الذي تم اصطفاؤه لينتشر هو الإسلام، فأصبح محمد صلى الله عليه وسلم نبي الإسلام، وسُمي نبي كل الجنس البشري، وانتشرت رسالته في كل العالم.

في فترة ظهور النبي محمد – صلى الله عليه وسلم، كانت هناك شعوب متحضرة ومتطورة ثقافيًا تسكن جنوب أوروبا وتوجد على مسافة متساوية تقريبًا من كل الجزيرة العربية والهند.

بالنسبة للبلاد المجاورة: فارس وبيزنطة ومصر كانت أكثر تطورًا ولكن الجزيرة العربية لم تتأثر بثقافتهم.

كانت شبه الجزيرة العربية تقع بين آسيا وإفريقيا وأوروبا، وهي معزولة بمساحات شاسعة من الرمال، ولها لغة متطورة وقادرة على التعبير عن الطابع الذكي للفكر الإنساني والذوق الأدبي الذي صُقل بدراسة تراثهم الأدبي.

وعلى العكس، يمكن الإشارة إلى أن معارفهم كانت محدودة، ومستوى الحضارة كان منخفضًا ومتشبعًا بالخرافات والأفكار والعادات الهمجية والشرسة، وكانت مفاهيمهم الأخلاقية فظة وحقيرة.

كان شعبًا دون حكومة حيث تدعي كل قبيلة سيادتها وتعتبر مستقلة. لم يكن هناك قانون غير العنف بحيث كانت الغنائم والحرق وقتل الضعفاء والأبرياء هي الأحداث اليومية، وكانت حياة الإنسان والملكيات والشرف مهددين بشكل دائم.

في تلك الظروف كانت كل مفاهيم الأخلاق والثقافة والحضارة التي يملكونها بدائية وفظة، بحيث كان هناك اضطراب في التمييز بين الطاهر والدنس، وبين العرف والمثالي، وبين البدائية والتحضر.

أما فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، فقد كانوا يعانون من نفس ما يعانيه باقي العالم: يعبدون الحجارة والشجر والأصنام... إلا الله. كانوا يتذكرون بطريقة مبهمة أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا جديهما الأولين ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن دعوتهما ولا عن الله الذي كانا يعبدانه.

في تلك الفترة، وفي هذه الأمة غير المثقفة وُلِد رجل. عندما كان طفلاً مات أبواه ثم بعد عدة سنوات مات جده. ونتيجة لذلك حُرِم من الثقافة والتعليم القليلين اللذين يمكن أن يتلقاهما طفل في هذا العصر، فتفرغ خلال طفولته لرعي الأغنام

والماعز مع بدو صغار آخرين. وعندما أصبح شابًا عمل بالتجارة، ولم تكن لديه علاقات مع الآخرين فلم يكن قد تعلم في تلك الفترة وكان أميًا تمامًا. لم يستطع يومًا أن يُصاحب أناسًا مثقفين لأن مثل أولئك الناس لم يكونوا موجودين في شبه الجزيرة. كان عليه أن يخرج في بعض المناسبات من مجتمعه، ولكن رحلاته كانت تقتصر على بلاد الشام، ولم تكن سوى رحلات تجارية تقوم بها القوافل العربية. ولا يمكن لهذه البدائيات أن تكون أساسًا للمعرفة الواسعة الضرورية لتجعل البدوي الأمي رئيسًا ليس لقومه فحسب، بل للعالم بأسره ولكل الأزمنة القادمة.

وأيا كان التأثير الثقافي والفكري الذي يمكن أن ينسب لتلك الرحلات، فإنه لا يمكن في أي حال أن يعلمه هذه المفاهيم وهذه المبادئ وتلك الأخلاق الدينية والثقافة والحضارة غير الموجودة تمامًا في عالم هذه الفترة، ولا أن يخلق هذا النموذج السامي والكامل للشخصية الإنسانية الذي كان يستحيل إيجاده آنذاك.

إن هذا الرجل كان مختلفًا تمامًا عن الناس الذين وُلِد بينهم وقضى شبابه وسنوات نضوجه الأولى معهم. كان قومه يشهدون بالإجماع على أمانته حتى أن أسوأ أعدائه لم يتهموه قط بالتلفظ بأي كذبة. كان يتحدث بلطف ولم يستخدم قط لغة بذيئة أو جارحة. كانت لديه شخصية وآداب ساحرة تأسر قلوب الذين يقابلونه. فكان يتبع مبادئ العدالة في علاقاته مع أمثاله. تفرغ للتجارة خلال سنوات لكنه لم يقم أبدًا بصفقات مشينة. كل مَن كان على علاقة به كانت لديه الثقة الكاملة في أمانته. فكان مجتمعه بأكمله يسميه الصادق الأمين.

لقد وُلِد وتربى بين قوم يعتبرون السُكْر واللهو فضائل، ولكنه لم يشرب الخمر قط ولم يترك ذمام نفسه للهو.

كان قومه وحشيين وظالمين، ولكن تجسدت في نفسه أعلى درجات الثقافة والمظهر المهذب. ورغم أنه كان محاطًا بأناس غلاظ القلوب، كان قلبه يفيض

حنانًا وإنسانيةً. كان يساعد الأرملة واليتيم، وكان حسن الوفادة مع الحُجَّاج. لم يضر أحدًا، بل على العكس كان يعاني من أجل الآخرين، وكان يعيش بين أناس أفظاظ، الحرب بالنسبة لهم وضع معتاد، فكان هو روح السلام، ينفطر قلبه عليهم عندما كانوا يأخذون السلاح ويدمرون حياتهم، سما فوق خلافات القبائل وكان دائمًا الأول في اقتراح الصلح.

تربى في قوم وثنيين، وكانت لديه روح متبصرة وطاهرة حتى أنه عرف أنه ما من شيء في السماء ولا في الأرض يستحق العبادة إلا الرب الحقيقي، الله الواحد. لم يسجد لأي مخلوق، ولم يشارك في تقديم القرابين للأصنام، وذلك منذ طفولته المبكرة. كان يكره بفطرته كل أشكال العبادة التي لا توجه لله.

باختصار، فإن الشخصية الساطعة وغير العادية لهذا الرجل ظهرت في وسط جو مظلم تمامًا مثل الفنار الذي يضيء في الليل الحالك، أو الدرة اللامعة في جبل من الطين والحجارة. عاش لوقت طويل حياة عفيفة وطاهرة وسامية للغاية، فحدث شيء مفاجئ.

كان قد أحس بالتعب من الظلمات والجهل الذي يحيط به، وأراد أن يهرب من جحيم الفساد والفجور والوثنية والفوضى التي تحيط به من كل جانب، كل ما كان يحيط به كان يجرح روحه. انسحب إلى التلال بعيدًا عن ضجة المجتمع، قضى أيامًا وليالي متأملاً في وحدة تامة، كان يصوم حتى تصبح روحه وقلبه أكثر نقاءً وسموًا. بحث عن ضوء لكي يبدد الظلمات التي تحيط به، كان يود أن يقتنصه لتوعية العالم الفاسد في عهده وليضع الأساس لعالم أفضل.

كانت هناك ثورة ملحوظة تهيج بداخله، وفجأة أضاء النور الإلهي قلبه، وأعطاه القوة التي كان يحلم بها. ترك العزلة عن قومه، وعاد وتوجه إليهم بتلك الكلمات(*): "إن الأصنام التي تعبدونها خدعة خالصة، فاتركوا عبادتها".

فلا يستحق العبادة أي إنسان ولا كوكب ولا شجرة ولا حجر ولا حتى روح، فلا تحنوا رءوسكم أمامهم. إن الكون بأسره وكل ما يحتويه ينتمي إلى رب واحد، القادر على كل شيء، هو وحده خالقكم وحافظكم، وبالتالي فهو ملككم الحقيقي. يجب أن تسجدوا أمامه وتصلوا وتقدموا فروض الطاعة. وهكذا فلا تعبدوا غيره ولا تطيعوا غير أوامره وحده.

إن الغنائم والسلب والقتل والسرقة والظلم والقسوة... كل تلك الرذائل تعد جرائم عند الله.

اتركوا الأخلاق المشينة، فالله يبغضها. قولوا الحق، كونوا عادلين، لا تسرقوا، خذوا فقط الجزء الذي يخصكم. أعطوا الحق للآخرين بالعدل، فأنتم بشر وكل الناس متساوون أمام الله.

لا أحد يُولَد موسومًا بخاتم الحقارة أو النبل، فمَن يؤمن بالله هو فقط النبيل والشريف، وهو الرحيم والمخلص في أقواله وأفعاله. إن ميزات النبل والمجد والأصل ليست معيارًا للعظمة والشرف. فمَن يؤمن بالله ويعمل أعمالاً صالحة فهو أسمى الناس. بينما الملعون هو المحروم من حب الله، والذي يعتاد الأفعال السيئة.

هناك يوم محدد بعد موتكم سيكون عليكم الوقوف فيه أمام الله. سيُنادَى عليكم لتُحاسَبوا على أعمالكم خيرها وشرها. لن تستطيعوا إخفاء شيء. كل حياتكم ستكون ككتاب مفتوح أمام الله.

(*) كل ما لم يُذكر بجانبه عبارة (حديث شريف) فليس نص حديث. (المترجمة)

سيعتمد مصيركم على أعمالكم خيرها وشرها. لدى المحكمة، القاضي الحقيقي هو الله القادر ولن يكون هناك توصية ولا محاباة. لا تستطيعون أن تؤثروا فيه، فالإيمان الحقيقي فقط وأعمالكم الصالحة هي التي ستوضع في الاعتبار في تلك اللحظة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ (القارعة ٦-٩).

كانت هذه هي الرسالة التي حملها لقومه الذين انقلبوا ضده ووجهوا لشخصه العظيم الإهانات والعنف. لقد تَحَمَّل كل أنواع العذاب والقسوة ليس لفترة قصيرة بل لما يزيد على ثلاثة عشر عامًا طويلة. وفي النهاية خرج من مدينته ولم يعقدوا معه هدنة، وكانوا يسيئون معاملته في دار هجرته لوقت طويل. هبت كل الجزيرة ضده، طاردوه واضطهدوه دون توقف لمدة ثماني سنوات كاملة. تَحمّل كل ذلك دون أن يتغير موقفه، فقد كان جريئًا، حازمًا وثابتًا على عقيدته.

لماذا أصبح قومه أعداءه الذين لا يقبلون المصالحة؟ هل كان الهدف من مطاردته الذهب والفضة أو ثروات أخرى من الأرض؟ هل كان بسبب صراع دموي؟ هل طلب منهم شيئًا؟

لا، كل ذلك العداء كان لسبب واحد: أنه طلب منهم عبادة الرب الحقيقي، الله الواحد، وأن يعيشوا حياة الاستقامة والرحمة والخير. كانت دعوته ضد الوثنية، فأعلن نموذجًا لحياة واحدة، ودمر سلطة الزعماء الوثنيين.

أراد تغيير تركيبة المجتمع بأكملها، التي كانت متأصلة منذ الأزمنة السحيقة. قال له أهل مكة إن مبادئ رسالته تناقض تقاليد أجدادهم وطالبوه بالتخلي عنها مخافة العواقب الوخيمة.

يمكن أن نسأل لماذا تحمّل كل تلك المضايقات؟ عرض قومه عليه أن يجعلوه ملكًا، وأن يضعوا أمامه كل الثروات بشرط أن يترك دعوته ورسالته.

ولكنه فضّل أن يرفض تلك العروض بما في ذلك أكثرها إغــراء وعــانى في سبيلها. لماذا؟ لأن لديه مكسبًا آخر وهو رؤية الناس، وقــد أصـــبحوا أتقيــاء أو مستقيمين.

لماذا لم ينشغل بالثروات والترف والمجد والثروة؟ هل كـــان يبحـــث عـــن ممتلكات مادية أعلى حتى إن تلك العروض بدت تافهة بالمقارنة بها؟ أم هل كانـــت تطلعاته سامية لدرجة أنه يفضّل معاناة النار والسيف وتحمل عذاب البدن والـــروح دون تألم؟

من الضروري تأمل هذه الأسئلة بهدوء لنجد الإجابة.

هل يمكن تخيل هذا النموذج شديد السمو في التضحية والحب والكـــرم مـــع الغير، حتى إنه ضحى بسعادته من أجل صالح الآخـــرين، بينمـــا رجمـــه قومـــه بالحجارة وسبوه وأخرجوه ولم يعفوا عنه حتى في منفاه، وعلى الرغم مـــن ذلـــك رفض أن يوقف حربه من أجل سعادة قومه.

عاش عربيا وسط العرب خلال أربعين عامًا، فلم يتميز بينهم رئيسًا لقومـــه ولا داعية ولا خطيبًا. لم يسمعه أحد يعرض لحكمته ولا معرفته مثلما بدأ يفعل بعد ذلك. لم يُرَ قط متفكرًا في أسس الميتافيزيقا والأخلاق والقانون والاقتـــصاد وعلـــم الاجتماع. لم يقل قط كلمة عن الله ولا الملائكة ولا الكتـــب المنزلـــة ولا الأنبيـــاء السابقين ولا يوم الحساب ولا الحياة بعد الموت ولا الجنة ولا النار.

كان بالفعل ذا شخصية ممتازة ومهذب الأخلاق، وكانت تربيته سامية ومـــع ذلك لم يكن به شيء ملحوظ يمكن أن ينبئ بمشروع ثوري كبير في المستقبل. كان معروفًا بين أصدقائه بأنه شخص حكيم وهادئ ولطيف ومحترم للقوانين وذو تربية جيدة. عندما عاد برسالته الجديدة من المكان الذي كان يتأمل فيه كان هناك تحـــول كامل في حياته.

عندما بدأ في الدعوة لرسالته، اندهشت كل الجزيرة حيث تعجبوا من لباقته الرائعة وموهبته في الخطابة. كان مؤثرًا وآسرًا لدرجة أن أسوأ أعدائه كانوا يخافون أن يسمعوا له حتى لا يأسر قلوبهم ويجعلهم يتركون دينهم ومفاهيمهم القديمة. كان لا يُقارَن فلم يكن هناك بين الشعراء ولا الدعاة أو الخطباء مَنْ يماثله أو يقترب من جمال لغته وبريق قوله، عندما تحدى خصومه أن يأتوا حتى مجتمعين بمثل أصغر آية يمكن مقارنتها بما يتلوه، لم يجد خصمًا واحدًا.

علاوة على ذلك، بدا أمام قومه كالفيلسوف الوحيد، والمصلح الفذ الذي كان له أثر في الثقافة والحضارة، وهو السياسي اللامع والرئيس العظيم والقاضي البارز ولكنه كان بصفة عامة إنسانًا.

هذا البدوي البارز، ورجل الصحراء المدهش تحدث بمعرفة وحكمة كما لم يُرَ من قبل ولن يكون له مثيل بعد ذلك. عرض مشكلات الميتافيزيقا المعقدة وتحدث في علم الدين، ألقى خطبًا عن أسس تدهور الأمم والإمبراطوريات وانحدارها ذاكرًا لمعلومات الماضي التاريخية تدعيمًا لنظرياته. وفحص كتب قدماء المصلحين، وحكم على الأديان المختلفة في العالم، وأعطى آراءً حول الخلافات والنزاعات بين الأمم. لقد أصدر قوانين أخلاقية وثقافية وصاغ القواعد الاجتماعية والاقتصادية عن سلوك الجماعة والعلاقات الدولية.

كانت آراؤه حكيمة جدًا لدرجة أنَّ المفكرين البارزين لم يستطيعوا تقديرها بقيمتها الصحيحة وذلك بعدما قاموا بأبحاثهم بزمن طويل. لقد غيَّر طرق تفكيرهم وتقاليدهم بما في ذلك أخلاقهم. حوّل الأفظاظ إلى متحضرين، والمجرمين إلى أتقياء مستقيمين ومؤمنين؛ فتعلمت الطبيعة الفوضوية والمتوحشة الطاعة والخضوع للقانون والنظام.

إن المجتمع الذي لم يَرَ رجلاً محترمًا مثله منذ قرون، شاهد ظهور محمد- صلى الله عليه وسلم - وآلاف الأرواح النبيلة التي رحلت إلى أبعد الأماكن في العالم لتدعو وتعلم مبادئ الدين والأخلاق والحضارة.

أتم محمد صلى الله عليه وسلم كل ذلك دون أن يستخدم الحيلة ولا العنف ولا القسوة، بل اجتذب صداقة أعدائه بفضل خصاله الأسرة وشخصيته وأخلاقه غير العادية وقدرة تعاليمه على الإقناع، مع سلوكه النبيل السامي. عفا عن كل مَن أساء إليه، لم ينتقم لنفسه قط من مصيبة أصابته أو ضر ألَمّ به.

على الرغم من أنه كان زعيم قومه، كان نزيهًا ومتواضعًا لدرجة أنه يتصرف دائمًا ببساطة، وكان معتدلاً في كل عاداته. عاش بقناعة كما في الماضي: في بيته المتواضع من الطين، كان ينام على حصير ويرتدي ملابس بسيطة، يأكل طعامًا بسيطًا وغالبًا ما كان يوزعه على الفقراء دون أن يأكل شيئًا.

كان عادةً يقضي ليالي كاملة مصليًا لله.

في شهادة أخيرة يجب أن نفكر ونتأمل ونتساءل: كيف يصبح لدى تاجر وراعي أغنام سابقًا – عربي وأمي – النور والحكمة وقوة الإقناع والذكاء والإمكانات والفضائل الأخلاقية المتطورة في تلك الفترة المظلمة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وفي منطقة يكسوها الظلام مثل شبه الجزيرة العربية؟

يمكن أن يُقال إنه لا يوجد شيء غريب في رسالته. إنها ثمرة روحه، ولو كان هكذا بالفعل لاستطاع أن يعلن أنه إله. ولو قام بمثل ذلك التأكيد في تلك الفترة لكانت أقوام الأرض – التي لم تتردد في تسمية كل من كريشنه وبوذا إلهين، وعيسى – عليه السلام – ابن الله من محض خيالهم، ولم تتشكك في عبادة قوى الطبيعة مثل النار والماء والرياح – بإرادتهم سيعترفون بألوهية شخصية مذهلة مثل محمد – صلى الله عليه وسلم.

ولكننا نجده قد أكد العكس تمامًا، لأنه أعلن "ما أنا إلا بشر مثلكم"(*). لم آتِ لكم بشيء من عندي، كل ذلك أوحى به ربي إليَّ، كل ما أستطيع أن أملكه ينتمي له. هذه الرسالة الموجهة إلى البشرية بأسرها هي رسالة الله وليست نتاج روحي

(*) جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف/١٠، وفصلت/٦). (التحرير)

أنا. قد أُوحي إليّ بكل كلماتها وكل عزّ يأتي من الله. كل المعجزات التي هي في صالحي أمام بصركم، وكل القوانين التي أعطيتها، وكل المبادئ التي أعلنتها وعلمتها... كل ذلك لم يأتِ مني. في الواقع أنا عاجز عن خلق مثل هذه الأشياء. أنا أبحث عن الأوامر الإلهية في كل الأشياء. "كل ما أمرني به أعمله وكل ما أملاني إياه أبلغه"(*).

يا له من مثال رائع وحي للصراحة والاستقامة والصدق والشرف، سيحاول الكذاب أو المنافق عامةً أن ينسب لنفسه صدق أفعاله أمام الآخرين حتى عندما يمكن إثبات كذب ما يقول بسهولة، ولكن هذا الرجل العظيم لم يدّعِ قيامه بهذه المآثر حتى عندما لم يستطع أحد أن يعارضه لأنه لم يكن ممكنًا اكتشاف مصدر وحيه.

هل يمكن أن يكون هناك دليل أوضح لعفة مبادئه الكاملة ولاستقامة شخصيته وعظمة روحه؟ هل يمكن أن يكون هناك إنسان أكثر إخلاصًا منه يتلقى هبات فريدة في الخفاء، ومع ذلك يكشف مصادر إلهامه؟

هذه الأسباب تجعلنا نستنتج حتمًا أن هذا الرجل هو رسول الله الحقيقي، إنه نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم، إنه أعجوبة من العجائب لمميزاته غير العادية، الذي تتسابق فيه الفضيلة والخير، وهو رمز الحقيقة ونبي الله العظيم ورسوله في الأرض. كانت حياته وفكره وإخلاصه وطيبته وشخصيته وأخلاقه وأيديولوجيته ومآثره دليلاً لا يُدحض لشرعية نبوته.

من جانب آخر، علينا أن ندرك أننا بفضل محمد – صلى الله عليه وسلم – فقط، عرفنا الآن الطريق القويم للإسلام.

(*) قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ (الأنعام/١٤)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة/٦٧). (التحرير)

إن القرآن وحياة محمد صلى الله عليه وسلم التي يُقتدى بها هما المصدران الوحيدان الجديران بالثقة اللذان قُدر للبشرية أن تعرف منهما مراد الله من خلقه.

إن محمدا هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لكل الإنسانية، وتختتم به سلسلة الأنبياء الكبيرة وهو آخر النبيين، وكل الأوامر التي أراد الله أن ينقلها للإنسانية بالوحي المباشر أرسلها عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم ودُوِّنت في القرآن والسنة. الآن، أيًا كان الذي يبحث عن الحقيقة ويريد أن يصبح مسلمًا مستقيمًا وتلميذًا مخلصًا يجب أن يؤمن بآخر أنبياء الله، يقبل تعاليمه ويتبع الطريق الذي أرشد الإنسان إليه. هذا هو طريق النصر والخلاص الحقيقي.

(د) العقيدة

بإيجاز هي التالي:

١- الإسلام هو التسليم والطاعة لله رب الكون ومع ذلك يمكن تعريف الإسلام على أنه دين يتطلب إيمانًا كاملاً بتعاليم النبي وقبولاً تامًا لنظامه الحياتي علمًا وتطبيقًا والأخذ به باعتباره وسيلة وحيدة أكيدة لمعرفة الله ومراده وقانونه الموجود في تعاليم النبي الحق.

وبالتالي. الذي يرفض الوسيط، الذي هو النبي، ويتطلع إلى اتباع الله مباشرةً ليس مسلمًا.

٢- ظهر في الماضي أنبياء متعددون الواحد تلو الآخر.

في تلك الفترة كان الإسلام يطلق على الدين الذي ينزل في أمة ما عن طريق نبي واحد أو أنبياء متعددين. وعلى الرغم من أن الإسلام لم يغير طبيعته ولا جوهره مهما كان الزمان والمكان، فإن طرق العبادة، ومجموعات القوانين، والقواعد الأخرى لتفاصيل الحياة تختلف قليلاً حسب الظروف الخاصة في كل قوم. وبالتالي لم يكن لزامًا على قوم ما أن يتبعوا نبي قوم آخر، بل عليهم الالتزام بأوامر نبيهم هم.

٣- انتهت هذه الفترة من تعدد الأنبياء في وقت واحد بظهور محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اختتم تعاليم الإسلام التي تشكل قانونًا أساسيًا ووحيدًا للكــون كلــه، وأصبح نبيًا لكل الإنسانية. لم تكن نبوته موجهة لقوم أو بلد أو عصر بعينه، بل كانت رسالته عالمية وخالدة.

إن بعض القوانين السابقة قد تم إقرارها بظهور محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أعطى للعالم قانون حياة كاملاً. والآن لن يكون هناك نبي فــي المــستقبل ولا قواعد دينية أخرى حتى نهاية العالم، فتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم موجهة لكل بني آدم عليه السلام ولكل الجنس البشري. الآن، الإسلام يعني اتِّباع محمد - صلى الله عليه وسلم، بمعنى الاعتراف بوضعه نبيًّا، والإيمان بكلامــه واتبــاع أقوالــه وأفعاله، والخضوع لكل أوامره ووصاياه التي هي نفسها أوامــر الله، وهــذا هــو الإسلام.

وهذا يحملنا تلقائيا إلى السؤال: ما الذي أمرنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به؟ ما هي العقيدة الإسلامية؟ لنفحص أركان العقيــدة البــسيطة، والمهمــة والصالحة لرفع الحالة الروحانية لإنسان هذا العالم ولإنسان المستقبل.

التوحيد (الإيمان بالله الواحد)

إن المبدأ الرئيسي والأهم لمحمد صلى الله عليه وسلم هو الإيمان بوحدانيــة الله. ويتم التعبير عن ذلك في الكلمة الأساسية في الإسلام، "لا إله إلا الله". هذا التعبيــر الجميل هو جوهر الإسلام وفحواه. هذا هو التعبير عن الإيمان، والذي يميز المسلم الحقيقي عن الكافر أو المشرك (الذي يشرك مع الله آلهة أخرى) أو الملحد.

إن قبول هذه الجملة أو رفضها يحدث اختلافًا كبيرًا بــين النــاس، فالــذين يؤمنون بها يُكَوِّنون جماعة موحدة، والذين يرفضونها يشكلون جماعــة مخالفــة.

والمؤمنون يتقدمون في طريق النصر في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة أيضًا، بينما الفشل والخزي يكونان هما المصير النهائي لمن يرفضون الإيمان بها.

معنى كلمة "الشهادة": "لا إله إلا الله"

كلمة "إله" تعني في اللغة العربية "المعبود" أي هو الذي يستحق أن يُعبد لعظمته وقوته، ويستحق السجود له دليلاً على التذلل والخضوع.

إن أي مخلوق أو كائن يُمنح قوة كبيرة جدًا بالمقارنة بباقي الناس يسمى أيضًا إلهًا. فمفهوم الإله يقتضي امتلاك قوى لا نهائية، مدهشة ومعجزة، ويقتضي أيضًا أن يعتمد الكل عليه بينما لا يعتمِد هو على أحد.

إن كلمة "إله" تحوي أيضًا فكرة السر والغموض، فالإله لا تراه الأبصار ولا تدركه الحواس. فكلمة Khuda في الفارسية وDeva في الهندية وDios في الإسبانية وDieu في الفرنسية وGod في الإنجليزية وGott في الألمانية كلها لها المعنى نفسه. وهناك لغات أخرى في العالم بها كلمة بالمعنى بنفسه. لكن كلمة "الله" في العربية – على العكس من ذلك – هي اسم عَلَم للرب.

و"لا إله إلا الله" تعني حرفيًّا "أنه لا يوجد إله إلا الله المعروف بالرب". وهذا يعني أنه في كل الكون لا يوجد مَن يستحق العبادة سوى الله، والذي يجب أن يسجد له كل البشر دليلاً على العبودية والخضوع، وهو الوحيد الذي له كل السلطات، ويحتاج الناس للطفه، وكلهم مضطرون لطلب العون منه. إنه محجوب عن أحاسيسنا، ولا تستطيع روحنا اكتشاف ماهيته.

بعدما شرحنا معنى هذه الكلمات، نحاول أن نكتشف الآن مداها الحقيقي.

طبقًا لما يمكن أن نعرفه من التاريخ الإنساني منذ الأزمنة السحيقة، ومن الآثار البعيدة والقديمة التي وصلتنا، يمكن أن نثبت أنه في كل عصر كان الإنسان يعبد واحدًا أو أكثر من الآلهة.

حتى في العصر الحالي، تؤمن كل أمة على الأرض - من الأكثر بدائية حتى الأكثر تحضرًا - بإله وتعبده. وهذا دليل على أن مفهوم الرب وعبادته متأصل بعمق في الطبيعة الإنسانية، فهناك شيء في نفس الإنسان يقوده إلى ذلك دون أن يقاومه.

يمكن إذن أن نتساءل: ما هذه الفكرة؟ ولماذا وصل الإنسان إلى تصورها؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بدراسة وضع الإنسان داخل العالم المترامي الأطراف. وإذا تفحصنا الإنسان وطبيعته، يظهر لنا عجزه لعدم قدرته على فعل كل شيء. فهو لا يمكنه أيضًا أن يمد نفسه بكل احتياجاته، لأن قدراته محدودة. وفي الواقع هو مخلوق ضعيف وهش وقد يصيبه الضرر. يعتمد وجوده على عدد لا يحصى من القوى، والتي دون مساعدتها لا يستطيع التقدم، ولكن ليست كلها تحت سلطته تمامًا، فأحيانًا يطوعها بطريقة بسيطة وطبيعية، وأحيانًا أخرى يجد نفسه محرومًا منها.

هناك أشياء كثيرة مهمة يحاول الحصول عليها ولا يستطيع دائمًا، لأنه ليس في مقدوره اكتسابها. وهناك أشياء كثيرة ضارة؛ فيمكن للحوادث أن تقضي في لحظة على حياته المليئة بالعمل أو على كل آماله، ويهدده المرض والقلق والكوارث بشكل مستمر، وتلك الأشياء تعوق مسيرته نحو السعادة، وهو يحاول تجنب ذلك ولكنه ليس بمأمن أبدًا من التخلص منها.

وتوجد أشياء كثيرة تجعله يحترمها لعظمتها وجلالها مثل الجبال والأنهار والحيوانات العملاقة والوحوش.

يعاني من الزلازل والعواصف والكوارث الطبيعية، يلاحظ السُّحب فوق رأسه، وعليه آنذاك المحافظة على أوامر الله بإخلاص، وأن يتجنب ما يحرّم الله، يتبع أوامره حتى لو كان وحده ومختفيًا في ظلمة الليل لأنه يعرف أن رقابة الله التي ليس لها حدود لا تضعف قط؛ يخشى المحكمة التي لا يمكنه تجنب حكمها. لهذا السبب أصبح الشرط الأول والأكثر أهمية للمسلم هو الإيمان بأنه "لا إله إلا الله".

كلمة "مسلم"، كما قلنا، تعني المطيع لله، وهذه الطاعة تكون مستحيلة إذا لم يؤمن بحزم بأنه لا إله إلا الله، بمعنى أنه لا أحد يستحق أن يُعبد إلا الله. في تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم يعد الإيمان بالله الواحد المبدأ الرئيسي والأساسي. هو أساس الإسلام نفسه ومصدر قوته. كل عقائد الإسلام الأخرى وأوامره وقوانينه التي تقوم على هذه القاعدة لها قوتها، وإذا استُهين بها فلن يبقى شيء من الإسلام.

الإيمان بالملائكة

علمنا النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – أيضًا الإيمان بوجود ملائكة الله، وهذا الركن في العقيدة الإسلامية مهم جدا، لأنه يطهر مفهوم التوحيد ويستأصل خطر الشرك.

إن المشركين يعترفون بنوعين من المخلوقات لله:

١- التي لديها وجود مادي، وهي مُدركَة للعين البشرية مثل الشمس والقمر والكواكب والنار والماء والحيوانات...

٢- التي ليس لها وجود مادي ولا يمكن أن تدركها العين البشرية؛ المخلوقات غير المرئية التي يتصور الإنسان أنها مسئولة عن التحكم في الكون. أحدها، مثلاً يتحكم في الرياح، وآخر هو خالق الضوء، وآخر ينزل المطر، وهكذا على التوالي.

والنوع الأول من الآلهة المزعومة لها وجود مادي ويمكن للإنسان أن يراها. إن زيف ألوهيتهم شيء واضح تماما في كلمة "لا إله إلا الله"، فهي كافية لرفض الفكرة، التي بموجبها يمكن أن يمتلكوا أي ذرة من الألوهية أو يستحقوا الاحترام.

إن مخلوقات النوع الثاني، غير المرئية بالفعل، تغيب عن إدراك الإنسان ولهذا فهي غامضة؛ ومن ثَم يميل المشركون للإيمان بها، يتخذونها آلهة أو أبناء لله. يشكلون تماثيل لصورها، ويقدمون لها القرابين. وقد أمرنا الإسلام بالإيمان بملائكة الله، وذلك لتنقية الإيمان بوحدانية الله وللتخلص من الإيمان بالآلهة غير المرئية (النوع الثاني).

وقد أخبرنا محمد – صلى الله عليه وسلم – أن هذه المخلوقات الروحية التي لا تدركها حواسنا، والتي يتخذها الناس آلهة أو أبناء لله هي في الحقيقة الملائكة، لا يشاركون الله في صفة الألوهية، إنهم تحت سيطرته ومطيعون له لدرجة أنهم لا يستطيعون عصيان أمره مهما كان صغيرًا.

يستخدم الله ملائكته لتنفيذ أقداره، وهم يطيعون أوامره بالضبط وبدقة، ليس لديهم السلطة ليقرروا، لا يمكن أن يقدموا لله أي مشروع من ابتكارهم، وغير مسموح لهم حتى بالشفاعة للإنسان أمام الله. إن عبادتهم وطلب مساعدتهم مذل ومشين للإنسان، حيث جعلهم الله في أول يوم للخلق يسجدون لآدم عليه السلام، الذي أعطاه الله علمًا أكثر منهم، وجعله في مكانة أعلى منهم، بحيث أصبح آدم خليفة الله في الأرض.

ونهانا محمد – صلى الله عليه وسلم – أن نعبد الملائكة أو ننسب إليها أي صفة إلهية بجانب الله، وفي الوقت نفسه، وضّح لنا أن الملائكة هي مخلوقات اصطفاها الله، منزهة عن كل ذنب، ولطبيعتها فهي غير قادرة على معصية الله وموكلة بتنفيذ

أوامره إلى الأبد. بالإضافة إلى ذلك، أخبرنا أن ملائكة الله هذه تحيط بنا في كل جانب وتصاحبنا دائمًا.

إنهم يرقبون ويدونون أعمالنا الصالحة والسيئة ويحتفظون بتقرير كامل عن حياة كل واحد منا. ولذلك، بعد موتنا وعندما نمثل أمام الله، سيقدمون هذا التقرير الكامل عن أعمالنا في حياتنا على الأرض، وفيه تم تسجيل كل شيء بإخلاص تام، دون حذف أصغر شيء حتى لو كان أكثرها تفاهة أو أكثرها خفاء.

من الضروري أن نعرف بدقة الطبيعة الذاتية للملائكة، وأن نؤمن بهم تمامًا مثلما أُمرنا.

يعد إنكار وجودهم كفرًا، لأنه أولاً ليس لدينا أي حق لعمل ذلك، وثانيًا لأن إنكارهم يعني أننا ننسب إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - الكذب، ولذلك فإننا نؤمن بوجودهم، ببساطة لأن رسول الله الحقيقي أخبرنا بذلك.

الإيمان بالكتب السماوية

ثالث ركن من العقيدة التي أمرنا بها محمد صلى الله عليه وسلم هو الإيمان بكتب الله، الكتب التي أرسلها للبشرية عن طريق الأنبياء في العصور المختلفة.

فقد أنزل الله كتبًا على أنبيائه قبل -محمد صلى الله عليه وسلم- بالطريقة نفسها التي أنزل بها القرآن على محمد. ولقد أُخبرنا بأسماء هذه الكتب: صحف إبراهيم عليه السلام وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام، لا نعلم أسماء الكتب التي أُعطيت لرسل آخرين.

ومع ذلك، ففيما يتعلق بوجود كتب سماوية أخرى؛ لا نستطيع أن نؤكد بيقين إذا كانت في أصلها كتبًا منزلة أم لا، على الرغم من أننا نؤمن ضمنًا بأن كل الكتب المنزلة من الله حقًا.

بين الكتب التي ذكرناها صحف إبراهيم عليه السلام التي اختفت ولم يبق لها أثر في الأدب العالمي الموجود. فيما يتعلق بزبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام، يقول القرآن إن الناس قد غيروا هذه الكتب، وأن كلمة الله قد اختلطت بنصوص من تأليفهم. هذا التغيير والتبديل في محتوى الكتب المقدسة واضح جدًا، لدرجة أن اليهود والمسيحيين يعترفون أنهم لا يملكون نصوصًا أصلية وليس لديهم سوى ترجمات عانت منذ قرون، ولاتزال تعاني من تحريفات كثيرة.

وبدراسة هذه الكتب يتضح لنا تمامًا وجود فقرات وقصص عديدة لا يمكن أن تأتي من الله. لقد حدث خلط بين كلمة الله وكلمة الإنسان في هذه الكتب، وليس لدينا وسائل لمعرفة ما يأتي من الله وما يأتي من الإنسان.

ولقد أُمرنا بالإيمان بالكتب المنزلة سابقًا، ولكن هذا يعني فقط أننا يجب أن نعترف بأنه قبل القرآن أرسل الله أيضًا كتبًا عن طريق أنبيائه، وكلها تأتي من الله الواحد الذي أنزل القرآن، وتنزيل القرآن فى صورة كتاب إلهي ليس حدثًا جديدًا ولا غريبًا، بل يهدف إلى تثبيت واحترام وإكمال التعاليم الإلهية التي شوهها الإنسان أو أضاعها في القدم.

القرآن هو آخر الكتب الإلهية المنزلة من الله، ومختلف بشكل ملحوظ عن الكتب السابقة، ويمكن طرح هذه الاختلافات باختصار فيما يلي:

١- إن النصوص الأصلية لمعظم الكتب الإلهية السابقة ضاعت ولم يبق سوى الترجمات، بينما القرآن، على العكس، موجود كما أُنزل على محمد- صلى الله عليه وسلم - بالضبط دون تغيير لكلمة واحدة أو حرف واحد. فيمكن أن نجده في نصه الأصلي، وكلمة الله محفوظة هكذا لكل الأزمنة القادمة.

٢- في الكتب الإلهية السابقة، مزج الإنسان تعليقاته مع كلام الله؛ بينما في القرآن لا نجد سوى الكلمة الإلهية فقط في نقائها الأصلي، وهذا شيء معترف به حتى من قِبل خصوم الإسلام.

٣- لا يمكن لأي كتاب مقدس آخر حفظته الأقوام المختلفة أن يرتكز على أساس من الوضوح التام بحيث ينتمي حقًا للرسول ويُنسب إليه، وبالنسبة لبعضهم لا يُعرف حتى في أي عصر كان ولا على أي نبي نزل.

وفيما يتعلق بالقرآن، فإن الدلائل على أنه مُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عديدة، ومقنعة جدًا، ولا يمكن دحضها، حتى إن أسوأ خصم للإسلام لا يمكنه الشك فيها، وهذه الدلائل مفصلة لدرجة أن العديد من الآيات وأوامر القرآن تُعرف يقينًا، وحتى مناسبة نزولها ومكانه.

٤- إن الكتب الإلهية السابقة كُتبت بلغات ميتة منذ زمن، وفي العصر الحالي لا توجد أي أمة أو جماعة تتحدث بهذه اللغات، سوى عدد قليل من الناس يمكنه فهمها.

هكذا، وبنفس الطريقة، لو أن هذه الكتب وُجدت اليوم في شكلها الخالص والأصلي، سيكون مستحيلاً عمليًا فهمها وترجمة أوامرها بشكل صحيح وتنفيذها في عصرنا.

لكن على العكس، لغة القرآن لغة حية، ملايين من الناس يتحدثون بها، وملايين آخرون يعرفونها ويفهمونها. إنها تُدرس في كل جامعات العالم تقريبًا، الكل يستطيع أن يتعلمها، ومَن ليس لديه الوقت لذلك سيجد في كل مكان أناسًا يعرفونها ويمكنهم أن يشرحوا له معاني القرآن.

٥- كل الكتب المقدسة لأمم العالم المختلفة كانت مرسلة لقوم بعينهم، كل منها. يحتوي على عدد محدد من الأوامر التي تبدو موجهة لعصر تاريخي بعينه

وتلائم احتياجات هذا العصر فقط، وهي ليست ضرورية اليوم، ولا يمكن تطبيقها بطريقة مُرضية، وهذا يبرهن بوضوح على أن هذه الكتب كانت مُرسلة إلى قوم بعينهم وليس للعالم أجمع. علاوة على ذلك، لم تنزل لتكون مُتبعة بشكل دائم حتى بالنسبة للأمة التي أُرسلت إليها، فهي مُرسلة لتستعمل خلال فترة محددة فقط.

على النقيض، فإن القرآن أُرسل إلى كل الإنسانية، وليس هناك أي من أوامره يمكن الشك في أنه مُرسل لقوم بعينهم بنفس الطريقة، إن أوامر القرآن هي التي يمكن استخدامها في كل مكان وزمان، وهذا يبرهن على أن القرآن أُرسل للبشرية بأكملها، وأنه قانون خالد لحياة الإنسان.

٦- لا يمكن إنكار أن الكتب الإلهية السابقة تتضمن أيضًا مبادئ الاستقامة والفضيلة؛ فهي تُعلم أيضًا أسس الأخلاق وتطرح طرق الحياة المناسبة لإرضاء الله، ولكن ليس بينها كتاب واحد يمكن أن يتصف بالعالمية بالشكل الكافي، ويضم كل ما هو ضروري لحياة الإنسان الفاضلة دون حذف شيء أو ذكر شيء زائد عن الحاجة، وبعض هذه الكتب تعد ممتازة من وجهة نظر البعض، وبعضها الآخر ممتاز كذلك من وجهة نظر الآخرين.

والقرآن لا يشتمل فحسب على كل ما هو جيد في الكتب السابقة، بل يتضمن أيضًا كلمة الله ويقدمها مجملة، ويطرح قانونًا للحياة شاملاً كل ما هو ضروري للإنسان في هذا العالم.

٧- بسبب التفسيرات الإنسانية دخلت أشياء كثيرة في هذه الكتب تخالف الحقيقة، وتثير العقل، وتعد إهانة لغريزة العدالة. يوجد فيها أشياء قاسية وظالمة، مناسبة لإفساد معتقدات الإنسان وأعماله. وللأسف، فيها أيضًا أشياء بذيئة، فاحشة وفاجرة.

أما القرآن فيخلو من هذه الزيادات، ولا يحتوي على شيء يمكن أن يهين العقل أو الأخلاق. ليس هناك أي من أوامره ظالم أو خادع؛ ولا توجد فيه إشارة – ولو عابرة – إلى الفحش أو الفجور. فالكتاب مليء بالحكمة والحقيقة من البداية حتى النهاية، يحتوي على أفضل الفلسفات وقوانين الحضارة الإنسانية مشيرًا إلى الطريق القويم، ويهدي الإنسان للفوز والخلاص.

وتقديرًا لهذه السمات الخاصة للقرآن، تمت دعوة كل شعوب العالم للإيمان به، ورفض باقي الكتب الأخرى وعدم اتباع غيره؛ لأنه يشمل كل ما هو أساسي ليتناسب مع إرادة الله، وبعده لا توجد حاجة ما لأي كتاب إلهي آخر.

إن دراسة الاختلافات بين القرآن وباقي الكتب الإلهية الأخرى تجعلنا نفهم بسهولة أن طبيعة الإيمان في القرآن ليست نفسها في الكتب السابقة.

ففيما يتعلق بالكتب الإلهية السابقة، يجب أن يذعن المؤمن للاعتراف بأن كل الكتب تصدر عن الله، وأنها كتب صحيحة نزلت لتنفذ في عصرها هدفًا مشابهًا للهدف من القرآن. وعلى العكس، ففيما يتعلق بالقرآن يجب على المؤمن أن تكون لديه قناعة أنه يمثل كلمة الله، وأنه صحيح تمامًا وأن كل كلماته محفوظة بدقة، وكل ما فيه مضبوط، وأن الإنسان ملتزم بتطبيق كل أوامر القرآن في حياته، وتجنب كل ما هو مخالف لتعاليمه.

الإيمان بالرسل

كما عرضنا سابقا، فقد بُعث رسل الله كل إلى قومه، وكلهم جاءوا في الأساس بنفس الدين (الإسلام) الذي كان على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – نشره بعد ذلك.

وبحسب وجهة النظر هذه، فكل رسل الله ينتمون لنفس الفئة، وهم على نفس المستوى، ورفْض أحدهم يساوي رفض الكل، وإذا اعترف الإنسان وقبل أحدهم فيجب أن يعترف بالكل.

والسبب في ذلك بسيط: لنفترض أن هناك عشرة رجالٍ يؤكدون نفس الشيء، لو قبلتم أن أحدهم يقول الصدق فبذلك نعترف -في نتيجة حتمية - أن التسعة الباقين يقولون أيضًا الحقيقة، ولو أنكرتم ما يقوله واحد منهم، فأنتم ضمنًا تنكرون كلام الباقين. لهذا السبب يقول الإسلام بضرورة الإيمان الضمني بكل أنبياء الله، ومَن لا يؤمن بأحد الأنبياء فهو كافر، حتى إذا آمن بالباقين.

حسب الروايات، فإن العدد الإجمالي للأنبياء المرسلين لمختلف الأقوام منذ عصور شتى يعد أكثر من مائة ألف نبي. ولو تفكرنا في وجود العالم منذ ظهور الإنسان، وأعداد الشعوب والأمم المختلفة التي مضت، فإن هذا العدد لن يكون مرتفعًا للغاية.

وعلينا أن نؤمن يقينًا بالأنبياء الذين ذُكرت أسماؤهم في القرآن، علاوة على ذلك، علينا أن نؤمن أن كل الأنبياء المرسلين من الله لهداية الإنسانية صادقون.

بهذه الطريقة، نؤمن بكل الأنبياء المبعوثين في الهند والصين وفارس ومصر وإفريقيا وأوروبا وفي كل بلاد العالم، ولكن لا يمكن أن نكون على يقين فيما يتعلق بكل مَن لم يُذكروا في قائمة الأنبياء التي وردت بشكل خاص في القرآن.

إنهم أنبياء الله، أرسلهم الله ليبينوا طريق الإسلام القويم، وعلى هذا المستوى لا يوجد اختلاف بين محمد -- صلى الله عليه وسلم -- وباقي الأنبياء، ونحن مأمورون بالإيمان بهم جميعًا.

ولكن على الرغم من أنهم متساوون على هذا المستوى، فتوجد الاختلافات التالية بين محمد صلى الله عليه وسلم وباقي الأنبياء:

١- جاء أنبياء الماضي في عصر معين لقوم بعينهم، بينما أُرسل محمد صلى الله عليه وسلم للعالم بأسره ولكل الأزمنة.

٢- إن تعاليم هؤلاء الأنبياء - باستثناء المسيح وإبراهيم وموسى عليهم السلام - اختفت أو ما بقي منها ليس خالصًا أو نقيًا أو أصليًا، وكثيرًا ما يوجد ممزوجًا بإثباتات مختلفة أو خاطئة أو خيالية. لهذا السبب، حتى لو قرر أحد اتِّباع تعاليمهم فلن يستطيع.

على العكس، فإن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته ورواياته وطريقة معيشته وأخلاقه وعاداته وفضائله... باختصار كل تفاصيل حياته وأعماله تم الحفاظ عليها، وبالتالي فإن محمدًا، صلى الله عليه وسلم هو الوحيد في صف الأنبياء الطويل الذي يعتبر شخصية حية، ويمكن اتباع آثاره الباقية بكل يقين.

٣- إن الأوامر التي تركها لنا الأنبياء في الماضي ولم تُذكر في القرآن ليست كاملة ولا عالمية. فكان كل نبي يتبع الآخر الذي يقوم بتغييرات وإضافات على تعاليم وأوامر مَن سبقه، وهكذا تشكلت الإصلاحات. ولهذا دخلت تعاليم الأنبياء السابقين في طي النسيان بعد مضي الوقت.

فمن البدهي أنه لم تكن هناك حاجة للاحتفاظ بالتعاليم السابقة في الوقت الذي تبعتها تعاليم مُعدلة ومُحسنة.

في النهاية أُعطي القانون الكامل للبشرية عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم- وأُلغيت كل القوانين السابقة تلقائيًا، وسيكون من العبث والحماقة اتباع قوانين غير كاملة بينما يوجد قانون كامل.

إن مَن يستمع لصوت محمد صلى الله عليه وسلم فهو يسمع كل الأنبياء، لأن كل ما يمكن أن يكون طيبًا وصالحًا من تعاليمهم يوجد في تعاليمه. وبالتالي مَن يرفض اتباع تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم، ويختار اتباع أي نبي آخر لا يفعل سوى حرمان نفسه من مجموعة إرشادات صالحة ونافعة يمكن أن يجدها في تعاليم محمد - صلى الله عليه وسلم. لهذا السبب وجب على كل إنسان أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبع غيره.

ولتكون مسلمًا حقيقيًا وتلميذًا وتابعًا لطريقة حياة النبي، من الضروري الإيمان التام بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والتأكيد على أنه:

١- هو النبي الحقيقي لله.

٢- تعاليمه كاملة بشكل مطلق وخالية من كل خطأ.

٣- أنه خاتم أنبياء الله ولن يظهر بعده أي نبي آخر في أي قوم، ولا أي شخص يجب على المسلم الإيمان به.

الإيمان بالحياة الأخرى بعد الموت

خامس أركان العقيدة الإسلامية هو الإيمان بالحياة بعد الموت.

قال لنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالحساب"(*).

إن العناصر الأساسية لهذا الإيمان مثلما تعلمناها منه هي التالية:

١- ستنتهي الحياة الدنيا وكل ما فيها في يوم محدد، هذا اليوم يسمى القيامة والآخرة.

٢- سيعود كل البشر، الذين جاءوا للعالم منذ بدايته، للحياة مرة أخرى، ويمثلون أمام الله الذي سيقيم الحساب ذلك اليوم، وهذا يسمى "الحشر".

(*) جاء فى صحيح البخارى حديث سؤال جبريل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان والإسلام...إلخ. (التحرير)

٣- في يوم الحساب، سيُعرض على الله التقرير الكامل عن الأعمال، خيرها وشرها، لكل رجل وامرأة.

٤- سيقرر الله الجزاء النهائي لكل مخلوق، سيزن أعمالنا، مَن ترجح كفة حسناته سيتلقى الثواب، ومَن سترجح عنده كفة السيئات سينال أشد العقاب.

٥- سيُعطى الثواب والعقاب بالعدل، مَن يخرجون فائزين من ذلك الاختبار سيذهبون للجنة وستفتح أمامهم أبواب السعادة الخالدة، وأولئك الذين سيدانون سيرسلون إلى جهنم، مكان اللهب والعذاب لأنهم يستحقون العقاب.

هذه هي العوامل الأساسية للإيمان بالحياة بعد الموت.

لماذا يعد هذا الإيمان ضروريًّا؟

إن الإيمان بالحياة بعد الموت كان يشكل بصفة دائمة جزءًا من تعاليم الأنبياء، وقد أمر كل رسول أتباعه بالإيمان به، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فعل الشيء نفسه.

كان ذلك دائمًا ركيزة أساسية في العقيدة الإسلامية، وقد صرح كل الأنبياء - بطريقة خاصة - بأن مَن لا يؤمن بذلك أو يشك فيه يكون كافرًا، وذلك لأن إنكار فكرة الحياة الأخرى يجرد كل أركان العقيدة الأخرى من كل معنى. وهذا الإنكار يعني أيضًا أن الحياة الفاضلة ليس لها ثواب، وتؤدي بالإنسان لأن يعيش حياة الجهل والكفر.

ولهذا نحاول أن نفيض في هذا المعنى ونفكر فيه لنفهمه بشكل أفضل: في حياتكم، في كل الأيام، كلما تُؤمرون بفعل شيء ما فإنكم تفكرون فورًا في أي شيء يفيد وما الذي أخاطر به إن لم أفعله؟

وهذا شيء موجود في طبيعة الإنسان نفسها، أن يعتبر بالفطرة أن ما لا ضرورة له فعل لا فائدة منه.

لا تريدون أبدًا أن تضيعوا وقتكم وطاقاتكم في تحقيق عمل غير مفيد وغير مثمر. وبالطريقة نفسها، لا تبذلون الجهد لتجنب شيء ليس ضارًا، وعامةً إذا اقتنعتم بفائدة شيء ما، سيكون جوابكم حازمًا.

والآن، إذا شككتم في فعاليته ستترددون، بالإضافة إلى ذلك، لماذا يضع طفل يده في النار؟ لأنه غير مقتنع بأن النار تحرق.

تأملوا الآن الإنسان الذي لا يؤمن بيوم الحساب. أليس لديه النزعة للتفكير في الإيمان بالله وبحياة مناسبة لرغباته دون اهتمام؟ ما القيمة التي ستكسبها الحياة القائمة على البحث عن إرضاء الله؟ بالنسبة له، طاعة الله لا تجلب له أي ميزة، ومعصية قوانينه ليس لها أي عيوب.

كيف سيكون إذن من الممكن أن يتبع أوامر الله بدون شك، وأوامر نبيه وكتابه؟ أين يجد الدوافع والحوافز الضرورية لمواجهة الاختبارات والتضحيات ولرفض ملذات الدنيا؟

إذا لم يتبع الإنسان قانون الله، وكان يعيش وفقًا لرغباته الخاصة ودوافعه، ففي أي شيء يفيد إيمانه بوجود الله، إذا اقتصر على هذا فحسب؟

هذا ليس كل شيء، لو تأملتم أكثر ستصلون إلى النتيجة: أن الإيمان بالحياة الأخرى هو عامل محدد وأساسي في حياة الإنسان، إن قبوله ورفضه يحدد اتجاه الحياة وسيرها.

إن رأى الإنسان النجاح أو الفشل في هذا العالم فحسب، فلن ينشغل إلا بالمنافع أو الصعوبات التي يمكن أن تحدث له في هذه الحياة أو هذا العالم. فنحن لا نرغب في الإقدام على أعمال حسنة إلا إذا كنا نأمل أن نجد فيها فائدة دنيوية، ولا نتجنب الأعمال السيئة إلا إذا كانت تضر بمصالحنا في هذا العالم.

ولكن الإنسان الذي يؤمن بالحياة الأخرى، في العالم الآخر، والمقتنع تمامًا بالعواقب النهائية لأعماله، يقدر المكاسب أو الخسائر في هذه الدنيا المادية، بحيث تظهر النتائج المادية فقط للأعمال كاملة، بينما النتائج المنطقية والمعنوية لن تظهر دائمًا.

في الواقع، لا يمكن أن تظهر إلا بإقامة نظام جديد للأشياء، تسود فيه القوانين المنطقية والمعنوية وتسيطر بشكل مطلق، بينما القوانين المادية تكون هي الخاضعة لها.

إنه عبارة عن العالم الجديد الذي قلنا سابقًا عنه إنه المرحلة التطورية القادمة للكون. إنه تطوري بمعنى أنه ستحكمه القوانين المعنوية وليس المادية؛ ستظهر حينذاك النتائج المنطقية للأحداث البشرية - المعلقة اليوم - في كل العالم أو في جزء منه.

ستُحدد قيمة الإنسان العقلية والأخلاقية – حسب سلوكه في هذه الحياة المعدة للاختبار – خلاصه ونجاته.

وآخر نظرية لهذا الإيمان هي وجود الجنة والنار، وهي أشياء غير مستحيلة. فإذا كان الله يستطيع أن يخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض، فلماذا لا يستطيع أن يخلق الجنة والنار؟

على الرغم من أنه لديه محكمته ويصدر أحكامه العادلة، مكافئًا من يستحق، ومعاقبًا المذنبين، يجب أن يكون هناك مكان يستطيع فيه الأناس المميزون الاستمتاع بمكافأتهم وسعادتهم ونعمهم من كل الأنواع؛ ومكان آخر يعاني فيه الملعونون الذل والألم والشقاء.

بعدما درسنا كل هذه المسائل سيصل كل إنسان عاقل إلى النتيجة: أن الإيمان بالحياة بعد الموت هو المفهوم الأكثر عقلانية، وأنه لا يوجد شيء غير منطقي أو مستحيل فيه. علاوة على ذلك، عندما يؤكد نبي حق مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - على هذا بصدق مطلق، ونحن نعلم أنه يقول دائمًا كل ما هو خير لنا، يحثنا العقل على الإيمان الضمني بذلك، ولا نرفض هذا الإيمان دون أسباب حقيقية.

أركان العقيدة التي تشكل أساس الإسلام خمسة، تكمن فحواها في الجملة القصيرة: كلمة وطيب(*).

عندما تقرون أنه "لا إله إلا الله"، فأنتم ترفضون كل الآلهة المزيفة وتعلنون أنكم خلق الله الواحد؛ وعندما تضيفون "محمد رسول الله" فأنتم تؤكدون وتعترفون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الاعتراف بنبوته يحمل معه الإيمان بالطبيعة الإلهية وبصفات الله والإيمان بملائكته وكتبه المنزلة والحياة بعد الموت. ويجبرك كذلك على متابعة طريق الطاعة بحرص، وعلى عبادة الله التي دلنا إليها النبي محمد - صلى الله عليه وسلم- فهنا يكمن طريق النصر والخلاص.

(هـ) الصلاة والعبادة

أشارت التفسيرات السابقة إلى أن الله قد أمر عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - بالإيمان بخمسة أركانٍ للعقيدة:

١- الإيمان بأنه لا شريك لله.

٢- الإيمان بملائكة الله.

(*) يقصد المؤلف بهذه الجملة "كلمة التوحيد وعملٌ طيب"، وربما يشير بها إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "قل آمنت بالله ثم استقم". (المترجمة)

٣- الإيمان بالكتب الإلهية وبالقرآن آخر الكتب.

٤- الإيمان برسل الله وبمحمد آخر الرسل.

٥- الإيمان بالحياة بعد الموت.

تشكل خمسة الأركان جوهر الإسلام.

مَن يؤمن بها يدخل في رحاب الإسلام ليصبح عضوًا في المجتمع الإسلامي، ولكن لا يكفي الإعلان عن الإيمان شفهيًا فحسب لتصبح مسلمًا كاملاً. لكي تصل إلى ذلك، من الضروري التطبيق التام للإرشادات التي تركها محمد صلى الله عليه وسلم، والتي أوحى بها الله إليه، لأن الإيمان بالله يؤدي بالضرورة إلى الطاعة العملية لكلماته، وطاعة الله هي التي تشكل الإسلام. ستعلنون بهذا الإيمان أن الله هو ربنا، وهذا يعني أنه خالقكم وأنتم مخلوقاته، وأنه ربكم وأنتم عباده، وأنه مالككم وأنتم رعيته. وبعدما اعترفتم بأنه ربكم ومالككم، لو رفضتم طاعته فستكونون باعترافكم عصاة.

في الوقت نفسه الذي تؤمنون فيه بالله، تؤمنون أن القرآن هو كتاب الله، وهذا يعني أنكم تقبلون بكل ما في محتوى القرآن كما أنزله الله، وبهذا يصبح لزامًا عليكم أن تقبلوا وتطيعوا كل ما هو موجود فيه.

وفي الوقت ذاته، لقد قبلتم أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - رسول الله ما يعني اعترافكم بأن كل أمر من أوامره ونواهيه يأتي من الله. لو قبلتم ذلك، فسيكون واجبكم طاعته.

إن قواعد السلوك التي علمها محمد - صلى الله عليه وسلم - كما أوحاها له الله القادر تعد إلزامًا إجباريًا للمسلم.

روح العبادات

عبادات كلمة عربية مشتقة من عبد وتعني الخضوع، ترمز إلى أن الله هو ربكم وأنتم عباده، وأن كل ما يستطيع العبد فعله لطاعة الله وإرضائه هو عبادات، والمفهوم الإسلامي للعبادات مفهوم واسع جدًا.

لو طهرتم ألسنتكم من الألفاظ غير المهذبة والكذب واللعن والسب، وعندما تقولون دائمًا الصدق وتتحدثون عن أشياء فاضلة، فأنتم تفعلون ذلك فقط لأن الله أمرنا به. هذه الأفعال هي العبادات، على الرغم من أنها قد تبدو وكأن ليس لها علاقة بالدين.

إذا اتبعتم قانون الله اتباعًا معنويًا وماديًا، وفي أعمالكم المعتادة واليومية، إذا كنتم مخلصين في علاقاتكم مع آبائكم وأصدقائكم ومع كل مَن له صلة بكم، فكل أعمالكم هي عبادات حقًا. لو ساعدتم الفقراء والجياع والمكروبين ليس من أجل مصلحة شخصية بل بحثًا عن رضا الله فحسب، فهذا العمل أيضًا عبادة.

حتى أعمالكم الاقتصادية التي تقومون بها لكسب عيشكم ولتعولوا الأشخاص المسئولين منكم، فهي عبادات لو أديتموها بشرف وفضيلة وحافظتم على قانون الله.

باختصار، كل أعمالكم وحياتكم بأكملها عبادات إذا كانت متفقة مع قانون الله، وإذا كانت قلوبكم مليئة بخشية الله، وإذا كان هدفكم الأخير هو فعل الأشياء كلها بحثًا عن رضا الله. هكذا، كلما تفعلون الخير وتجتنبون الشر لخشية الله – لا يهم في أي حقل أو نشاط – فأنتم تؤدون فروضكم الإسلامية.

المعنى الحقيقي للإسلام هو: أن الإنسان يجب عليه التسليم الكامل لإرضاء الله دون أي استثناءات. لتحقيق هذه الغاية، تشكلت سلسلة من العبادات المحددة، والتي تتم بشكل معين في إطار من التدريب. إذا داومنا على التدريب باجتهاد سنكون مُجَهزين لنحقق الانسجام بين أهدافنا وسلوكنا العملي.

العبادات، إذن، هي الأعمدة التي يقوم عليها بناء الإسلام.

الصـــلاة

الصلاة هي أول هذه الفروض وأهمها. ما الصلاة؟

هي خمس صلوات مفروضة يوميًا، تكررون فيها خمس مرات فـــي اليـــوم الأركان التي قامت عليها عقيدتكم. تستيقظون في الصباح المبكر لتنظفوا أجسادكم، ثم تقفون أمام الله للصلاة. إن الحركات التي تؤدونها خلال الصلاة ترمز إلى روح الخضوع؛ إن تلاوة القرآن في صلاتكم تذكركم بواجبكم نحو الله.

تبحثون عن أوامر الله، وتطلبون منه دون توقف أن يعفو عنكم، وأن تسيروا في الطريق القويم. ستقرأون آيات من كتاب الله، شاهدين بذلك على صدق النبـــي، وبهذه الطريقة ستحيون إيمانكم بيوم الحساب وبأنكم يجب أن تمثلوا أمامه لعهـــدكم معه.

إنكم تتركون للحظات التزاماتكم الدنيوية وتطلبون مقابلة ربكم، وهذا يذكركم مرة أخرى بدوركم الحقيقي في الحياة.

بعد هذه العبادة، تعودون إلى مشاغلكم، وبعد ذلك تقفون أمام الله من جديـــد. فالصلاة تناديكم مرة أخرى، ومن جديد تركزون انتباهكم في شروط عقيدتكم.

عندما تغيب الشمس وتبدأ ظلمات الليل تحيط بكم، تخضعون مـــن جديـــد لله بصلوات بهدف ألا تنسوا واجباتكم وفروضكم في ظلام الليل الذي يقتـــرب. بعـــد ذلك بوقت ليس طويلاً، تقفون مرة أخرى أمام الله وهي صلاتكم الأخيرة في اليوم. بهذه الطريقة، وقبل الذهاب للنوم تتذكرون مرة أخرى عقيدتكم وتتـــسون شـــئونكم الحياتية بالمثول أمام ربكم.

إن توقيت الصلوات وتكرارها غايته ألا ننسى أبدًا ما هـــو هـــدف حياتنـــا ورسالتها في دوامة الأنشطة الدنيوية، فمن السهل إدراك كيـــف تقـــوي الـــصلوات

اليومية أساس عقيدتكم، فهي تعدكم للمحافظة على حياة من الفضيلة وطاعة الله، وتحيي هذا الإيمان، حيث تظهر الحماسة والإخلاص والتفكر وطهارة القلب والروح وتمكين الأخلاق.

الصوم

مثلما يجب أن تؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم، فإن الصوم يكون خلال شهر رمضان – الشهر التاسع من السنة القمرية – أي مرة واحدة في العام. خلال تلك الفترة، من طلوع الفجر حتى غياب الشمس لا نأكل أي شيء ولا نشرب، مهما كان إغراء الطعام ومهما كان جوعنا وعطشنا.

ما الذي يجعلنا نتحمل هذه المشقة طوعًا؟

لا شيء سوى الإيمان بالله وباليوم الآخر، ففي كل لحظة خلال صيامنا نكبت عواطفنا ورغباتنا، ونعلن بسلوكنا سيادة القانون الإلهي.

هذا الوعي بالواجب، وروح الصبر التي يعلمنا إياها الصوم الدائم خلال شهر كامل، يساعدنا على تقوية الإيمان، حيث تضعنا الشدة والنظام خلال هذا الشهر وجهًا لوجه مع حقائق الوجود، وتساعد في أن تجعل حياتنا خلال باقي العام حياة تسليم حقيقي لإرادة الله.

وعلى صعيد آخر، فالصوم له أثر كبير في المجتمع لأن كل المسلمين أيًا كانت حالتهم يجب أن يحترموا الصوم في الشهر نفسه، وهذا يحدد المساواة الأساسية بين الناس، ويخلق فيهم أعمق مشاعر الحب والأخوة.

خلال شهر رمضان يختفي الشر بينما يقفز الخير للمستوى الأول، وتمتلئ البيئة كلها بالرحمة والطهارة، لقد فُرِض هذا النظام لصالحنا.

فيما يتعلق بأولئك الذين لا ينفذون هذا الفرض الأساسي لا يمكن الوثوق بهم في تنفيذ فروض أخرى، ولكن أسوأ الناس هم الذين لا يترددون في الأكل والشرب

جهارًا خلال هذا الشهر، فسلوكهم يدلل على أنهم لا يأخذون في الاعتبار أوامر الله الذي يتجرأون عليه، ومع ذلك يعلنون إيمانهم بخالقهم. إنهم أيضًا يظهرون بذلك أنهم ليسوا أعضاءً مخلصين في المجتمع الإسلامي، أو ليس لديهم أي صلة حقيقية به، فمن الواضح أنه يمكن توقع الأسوأ من هؤلاء المنافقين فيما يتعلق بالطاعة والاحترام والثقة بهم.

الزكـــاة

ثالث فرض هو الزكاة.

يجب على كل مسلم زاد وضعه الاقتصادي عن الحد الأدنى للحاجة الضرورية أن يدفع سنويًا ٢,٥٪ من مدخراته إلى أحد المحتاجين أو أحد المسلمين حديثًا أو ابن السبيل أو شخص عليه ديون. هذا هو الحد الأدنى.

إذا دفعتم أكثر يكون الثواب الذي سيمنحه لكم الله أكبر، المال الذي ندفعه تحت اسم الزكاة ليس شيئًا يحتاجه الله أو يأخذه. فالله غني عن كل حاجة أو رغبة، فهو يعدُنا بنعمه التي لا تنتهي، بثواب لا يُحصى إذا ساعدنا الغير، ولكنه وضع لذلك شرطًا أساسيًا: عندما تُعطى الزكاة باسم الله يجب ألا ننتظر أو نطلب منفعة دنيوية من المنتفعين بها، ولا نحاول أن نجعل لنا بذلك سمعة في فعل الخير.

الزكاة أساسية في الإسلام مثل باقي أشكال العبادات: الصلاة والصوم. تكمن أهميتها في أنها تحافظ فينا على خصال مثل التضحية وتطهرنا من الأنانية.

إن الإسلام يحتضن هؤلاء المستعدين لتوزيع جزء من أملاكهم في سبيل الله – والتي حصلوا عليها بالمجهود الشخصي – طوعًا ودون أي انتظار لمنفعة دنيوية أو شخصية. فالإسلام يرفض البخل، وعندما يأتي نداء الله سيضحي المسلم الحقيقي بكل ما يملك مطيعًا لإرادة الله، لأن الزكاة تحمله على ذلك.

لقد كسب المجتمع المسلم كثيرًا بتأسيس نظام الزكاة، ولأنه أكثر الفروض صرامة على كل مسلم ميسور، فعليه مساعدة الفقراء أو الذين هم في وضع غير ملائم.

ولا يجوز أن يستخدم ثروته لراحته ورفاهيته الشخصية فحسب، فالآخرون لهم أيضًا حق في ما يملك، الأرامل والأيتام في المجتمع، والفقراء والمعاقون، والذين لديهم المقدرة ولكن أعيتهم سبل البحث عن عمل نافع أو لا يملكون المال لكي يتعلموا ولكي يكونوا أعضاءً فعالين في المجتمع.

إن الذي لا يعترف بحق هؤلاء الأشخاص في مجتمعه فيما يملكه فهو قاس، لأنه لا يمكن أن يكون هناك أقسى من أن تملأ خزانتك بينما هناك آلاف من الناس يموتون من الجوع أو لا يجدون عملاً، إن الإسلام لا يقبل التصالح مع هذا الشكل من الأنانية والبخل.

إن الكفار المحرومين من كل إحساس بالحب تجاه العالم لا يعرفون إلا الاحتفاظ بأموالهم وإقراضها بفوائد حتى تزيد. وتعارض تعاليم الإسلام هذا السلوك معارضة تامة، حيث يجب أن نتقاسم الثروة مع الغير، ونساعدهم في أن يكتفوا ذاتيًا بأنفسهم ويصبحوا أعضاءً منتجين في المجتمع.

الحج

الحج إلى مكة هو رابع العبادات الأساسية، وهو ليس فرضًا إلا على مَن استطاع إليه سبيلاً، ومرة واحدة في العمر فقط.

تضم مكة مكان البناء الصغير الذي أقام قواعده نبي الله إبراهيم عليه السلام لعبادة الله، كافأه الله جاعلاً من هذا البناء بيته والقبلة التي يجب على الجميع الاتجاه إليها للصلاة(*).

(*) بيت الله الحرام هو أول بيت أقيم على الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران (٩٦)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ (البقرة/ ١٢٧) (التحرير)

وقضى الله أن كل مَن استطاع يجب عليه أن يزور هذا المكان مرة واحدة في العمر على الأقل. هذه الزيارة ليست فقط زيارة فضل (بل هي فرض) فلهذا الحج طقوسه وشروطه التي من الضروري الالتزام بها والتي تعلمنا الرحمة والفضيلة.

عندما نشرع في الحج، يأمرنا الله بأن نكبح عواطفنا، وأن نمتنع عن إراقة الدماء، وأن نكون أعفاء في القول والفعل، ولقد وعدنا الله بأن يكافئ إخلاصنا وخضوعنا.

إن هذا الحج – إلى حد معين – هو أعظم العبادات، لأنه إذا لم يكن الإنسان يحب الله بحق فلن يقوم برحلة طويلة تاركًا خلفه كل ما يحبه. وهكذا، فإن هذا الحج مختلف عن أي رحلة أخرى.

هناك تتركز أفكارك في الله، وترتجف في داخلك من العبادة المكثفة، عندما تصل إلى المدينة المقدسة تجد هناك بيئة مليئة بالرحمة والفضيلة، وتزور أماكن تشهد على مجد الإسلام، وكل ذلك يترك في النفْس انطباعًا لا يُنسى يستمر حتى آخر نَفَس. بعد باقي المناسك، يجب أن يخرج المسلمون بمنافع كثيرة من هذا الحج.

إن مكة هي المركز الذي يجتمع فيه المسلمون مرة في العام، يتقابلون ويناقشون القضايا التي تهمهم، وبشكل عام يحيون في أنفسهم القناعة بأن كل المسلمين سواسية ويستحقون حب الآخرين وعطفهم، مهما كان أصلهم الجغرافي أو الثقافي، وهكذا فإن الحج يجمع بين مسلمي العالم في أخوة عالمية.

حماية الإسلام

على الرغم من أن حماية الإسلام ليست مبدأ أساسيًا بشكل بيِّن، فقد أُشير إلى الحاجة إليها وأهميتها مرارًا في القرآن والحديث، إنها أساسًا اختبار لإخلاصنا في اتباع الإسلام.

إذا لم ندافع عن مبادئنا وعقائدنا ضد الدسائس وضد هجمات أعداء الإسلام، إذا لم ننشغل بمصالحه، إذا سرنا في طريق الأنانية وحده، فنحن حقيقةً مسلمون مزيفون.

بالطريقة نفسها، لو أعلنا إيماننا بالإسلام فيجب أن نحفظ ونحمي مكانة الإسلام بحماس، وهدفنا الوحيد في هذا التصرف يجب أن يكون مصلحة المسلمين عامةً، وخدمة الإسلام الذي ينبغي أن تتجه كل اهتماماتنا إليه.

الجهاد

الجهاد هو جزء من حماية الإسلام، يعني الكفاح حتى نهاية قوتنا.

الإنسان الذي يقوم بكل ما هو ممكن ماديًا أو معنويًا أو يستخدم ممتلكاته في سبيل الله، هو في الواقع ملتزم بالجهاد.

ولكن، بلغة الشريعة، تستخدم هذه الكلمة بشكل أكثر خصوصية للقتال المُعلن فقط باسم الله، ضد الطغاة وضد أعداء الإسلام، وهذه التضحية العليا بالنفس تنبغي على كل مسلم. ومع ذلك فلو أن جماعة من المسلمين توجهت طوعًا للجهاد، يُعفى كل المجتمع من مسئوليته.

ولكن إذا لم يتطوع أحد فالمجتمع كله آثم. هذا الإعفاء لا يكون مع مواطني دولة إسلامية عندما تهاجم هذه الدولة من قِبل قوة غير مسلمة. ففي هذه الحالة يجب أن يتطوع كل العالم للجهاد. لو أن الدولة التي تم الاعتداء عليها لم تكن قوية بالدرجة الكافية لكي ترد الاعتداء يكون فرضًا دينيًا على جيرانها المسلمين أن يساعدوها، وإذا انهزموا أيضًا فإن مسلمي العالم بأكمله يجب أن يقاتلوا العدو المشترك.

في كل الأحوال، الجهاد فرض أساسي على المسلمين يخصهم تمامًا مثل الصلاة اليومية أو الصوم، والذي ينصرف عنه فهو آثم ويمكن الشك في إيمانه المزعوم بالإسلام، وما هو إلا منافق لا يجتاز اختبار الإخلاص، وكل عباداته وصلواته ليست إلا خدعة ورغبة زائفة في العبادة.

الدين والشريعة

من الضروري تمامًا أن نفرق بين الدين والشريعة، لقد أوضحنا أيضًا أن كل الأنبياء الذين ظهروا دوريًا نشروا الإسلام بمعنى الإيمان بالله وكل صفاته وباليوم الآخر وبالأنبياء وبالكتب المنزلة؛ وبالتالي أمر كل منهم قومه بأن يعيشوا حياة الطاعة والخضوع لربنا، وهذا هو ما يشكله الدين.

وهناك "الشريعة" وهي القانون المفصل للسلوك، أو القوانين التي تصف طرق العبادة، والآراء عن الأخلاق والحياة والأشياء المحللة أو المحرمة، والقوانين التي تفصل بين الخير والشر.

وقد لاقى هذا القانون الديني تعديلات من آن لآخر، وعلى الرغم من أن كل نبي كان لديه نفس الدين فقد أتى بشريعة مختلفة تلائم ظروف قومه وعصره، بهدف جعل حضارات الشعوب المختلفة تتقدم عبر الزمن وتسمو بأخلاقها.

لقد انتهى الأمر بوصول محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء الذي أتى بالقانون النهائي المرسَل إلى البشرية بأكملها لكل العصور القادمة. أما الدين، فلم يلاقِ أي تغيير، ولكن الشرائع السابقة نُسِخَت كلها الآن ولم يبقَ إلا الشريعة العالمية التي أتى بها محمد - صلى الله عليه وسلم. إنها القمة، نهاية عملية التشكيل الكبيرة التي بدأت في فجر العصر الإنساني.

مصادر التشريع

هناك مصدران يمكن أن نجد فيهما شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم: القرآن والحديث.

القرآن هو التنزيل الإلهي، وكل كلماته تأتي من الله، والحديث هو تذكير بالتعاليم التي أتى بها آخر الأنبياء وسيرته مثلما حافظ عليها مَن عاش في صحبته أو أولئك الذين نقلوها عن شهود عدول. لقد تم تنقية هذه النصوص وجمعها بعد ذلك في شكل كتب من بينها: موطأ مالك وصحيح البخاري ومسلم والترمذي وأبو داوود والنسائي وابن ماجه، وتعد كلها أصلية.

الفقه

إن القانون المفصل الذي يأتي من القرآن والحديث يختص بمشكلات لا تحصى يمكن أن تظهر في حياة الإنسان، وقد جمعه بعض من العلماء المسلمين البارزين في الماضي. وتعترف الشعوب المسلمة بهؤلاء الرجال العلماء المتبصرين والمثقفين الذين كرسوا حياتهم لدراسة القرآن والحديث وتحليلهما، فسهلوا هكذا مهمة كل مسلم راغب في أن تبلغ تصرفاته اليومية الكمال وفقًا لمتطلبات الشريعة.

وبفضلهم يمكن للمسلمين في كل أنحاء العالم أن يتبعوا الشريعة بسهولة عندما لا تسمح لهم معلوماتهم- فيما يخص الدين - بأن يقوموا بتفسير القرآن والحديث بأنفسهم وبطريقة صحيحة، في البداية بذل كثير من رجال الدين جهدًا كبيرًا في هذا العمل.

وهناك الآن أربع مدارسٍ رئيسيةٍ للفقه الإسلامي يمكن تمييزها، وهي:

١- الفقه الحنفي، الذي جمعه أبو حنيفة النعمان بن ثابت وساعده أبو يوسف، ومحمد الشيباني، وزُفر وآخرون، وكلهم معروفون بعلمهم بالمشكلات الدينية.

٢- الفقه المالكي: لمالك بن أنس الأصبحي.

٣- الفقه الشافعي: أسسه محمد بن إدريس الشافعي.

٤- الفقه الحنبلي: أسسه أحمد بن حنبل.

وقد وُضع كل هذا الفقه في شكله الحالي في المائتي عام التالية لموت النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا كانت هناك اختلافات بين هذه المدارس الأربع، فذلك لأن للحقيقة تفسيرات عديدة، فعندما يجتهد أشخاص مختلفون في تفسير حدث ما فكل واحد يشرحه وفقا لمفاهيمه الخاصة.

إن الذي أكسب مدارس الفكر الشرعي المختلفة هذه الصحة هو أمانة مؤسسيها التي لا جدال عليها والمناهج التي اتخذوها، ولذلك فإن كل المسلمين مهما كانت المدرسة التي ينتمون إليها يعتبرون هذه المدارس الأربع صحيحة وصادقة على حد سواء.

وعلى الرغم من أنه قد تم التشكيك في صحة هذه المدارس الأربع في مجموعها فإنه لا يجوز أن تتبع إلا مدرسة واحدة في حياتك. ومع ذلك، هناك رأي لعلماء الحديث الذين يظنون أن مَن كان لديه علم كاف يمكنه التعرض مباشرة للقرآن والحديث لاستخراج التعاليم منهما؛ بينما مَن لا يمتلك هذا العلم والمقدرة الكافيين فعليه أن يتبع المرشد الذي يفضله لهذا الهدف الخاص.

التصوف

الفقه هو السلوك الخارجي للإنسان والتنفيذ الكامل لما فرض عليه، أما كل ما يتعلق بروح السلوك البشري فيُعرَف باسم التصوف.

على سبيل المثال عندما نصلي صلواتنا يحكم الفقه فقط على تنفيذ الشروط الخارجية مثل: الوضوء، والاتجاه نحو الكعبة، ووقت الركعات وعددها، بينما يحكم التصوف صلاتنا من ناحية التركيز والتقوى وطهارة الروح وأثر الصلاة في الأخلاق وآداب اللياقة. وهكذا فإن التصوف الإسلامي الحقيقي يقيس روح الطاعة والإخلاص، بينما يراقب الفقه القواعد التي نتبعها في أصغر تفصيلاتها.

إن العبادة التي تتبع القواعد في الظاهر ولكن دون قناعة عميقة هي مثل الإنسان ذي المظهر الجميل ولكنه مجرد من الأخلاق؛ بينما العبادة المليئة بالقناعة ولكنها تُنفذ دون الأخذ في الاعتبار للقواعد هي مثل الإنسان ذي الخلق النبيل ولكن مظهره مشوه.

إن المثل المذكور سابقًا يشرح الفرق بين الفقه والتصوف، ولكن للأسف فقد قل علم المسلمين فخضعوا بعد ذلك للفلسفات المضللة للأقوياء المسيطرين آنذاك، والذين انتحلوا العلم الديني فقط لتشويه إيمانهم وإضافة عقائد مضللة لعقيدتهم، فاستبدلوا بنقاء التصوف الإسلامي حماقات أدخلوها على أساس القرآن والحديث.

ظهرت جماعات من المسلمين بعد ذلك ظنت نفسها فوق شروط الشريعة، وهؤلاء الأناس ليس لديهم أي فهم للإسلام، لأن الإسلام لا يعترف بالتصوف الذي ينفصل وينحرف عن الشريعة. وليس لأي صوفي الحق في انتهاك حدود الشريعة أو التساهل في عدم تنفيذ الفروض الرئيسية مثل الصلاة اليومية والصوم والزكاة والحج.

إن التصوف بالمعنى العميق للمصطلح ليس سوى حب هائل لله ولمحمد – صلى الله عليه وسلم. يتطلب هذا الحب طاعة كاملة لأوامرهما الموجودة في كتاب الله وسنة رسوله، ومَن يبتعد عن هذه الأوامر الإلهية فإنه عندما يعلن أنه يحب الله ورسوله يكون كاذبا.

أسس الشريعة

لقد عرضنا أسس الإسلام، ولكن تبقى غير كاملة إذا لم ندرس قانون الإسلام ونحلل مبادئه الأساسية، كي نستطيع أن نقدر فضل العالِم الذي يؤمن بالإسلام.

لقد وُهب الإنسان عددا كبيرا من القوى والقدرات، ويظهر في هذا الشأن كرم العناية الإلهية معه. فلديه الذكاء والحكمة والإرادة والقدرة على الرؤية والكلام والتذوق واللمس والسمع، والقدرة على السير واستعمال يديه، ومشاعر الحب والغضب... كل هذه الأشياء نافعة له وليس هناك ما هو غير ضروري منها. خُصصت هذه القدرات له لأنه في حاجة كبيرة لها؛ فهي إذن ضرورية له، ويعتمد في كل حياته ونجاحه على الاستخدام المناسب لهذه القدرات لإرضاء حاجاته ورغباته. هذه القوى التي أعطاها الله له موجهة لخدمته، وإذا لم تستخدم بمقدارها الصحيح فإن الحياة لا تستحق عناء أن نعيشها.

ولقد زود الله الإنسان أيضا بكل الوسائل والموارد الضرورية لجعل قدراته الطبيعية تقوم بعملها في الحصول على احتياجاته. إن الجسم البشري خُلِق في أكمل صورة بحيث إنه الأداة الأولى والأساسية للإنسان في الكفاح لتحقيق الغاية من حياته.

بعد ذلك، لديه العالَم الذي يعيش فيه، ولديه موارد حوله من كل نوع يستخدمها للوصول إلى أهدافه. لقد هُيئت له الطبيعة بكل ما تحتويه، ويستطيع أن يستعملها حسبما يتراءى له. لديه أيضا أمثاله من البشر بحيث يستطيعون التعاون مع بعضهم بعضا لتأسيس حياة أفضل وأكثر رخاء.

فلنفكر الآن بشكل أكثر عمقا في هذه الظاهرة، لقد مُنحت لكم هذه القوى والموارد لتستخدموها لصالح الآخرين. لقد خُلقت لمصلحتكم ولم تُخلق لتضركم وتدمركم، وظيفتها محاولة زيادة الخير والفضيلة وعدم تعريضكم للخطر.

هكذا فإن الاستعمال الصحيح لهذه القوى هو الذي ينفعكم حتى لو نتج عنه ضرر ما، فيجب ألا يزيد عن الحد الأدنى الذي لا يمكن تجنبه. وذلك لا يتحقق إلا عندما تستخدم هذه القوى بطريقة صحيحة. إن أي استخدام آخر إذا انتهى بالفوضى والدمار سيكون شرًا وضارًا ومنافيًا للعقل.

على سبيل المثال إذا فعلتم أي شيء يؤذيكم أو يضركم فسيكون ببساطة استعمالاً معيبًا، أو إذا كانت أعمالكم تضر الآخرين وتجعلكم بَلِيَّة لهم، فذلك استخدام سيئ لهذه القوى التي منحها الله، لو أسرفتم في هذه الموارد وأنفقتموها عبثًا ودمرتموها فذلك يشكل خطأً فادحًا من جانبكم.

وكل هذه الأفعال تعد غير منطقية لأن العقل البشري نفسه يأمر بوجوب تفادي الدمار والشر، وأنه من الضروري النزوع دائما نحو الخير والمنفعة. إذا كان ضروريًا التعرض لشر ما فسيكون ذلك مبررًا فحسب في الحالة التي ستجلب لكم منفعة مهمة على الرغم من كل شيء. كل تصرف يبتعد عن هذا سيكون بشكل واضح سلوكًا سيئًا يسلكه الإنسان.

لو حافظنا على هذا الاعتبار الأساسي دائمًا، واختبرنا الجنس البشري سنجد نوعين من الناس:

- الذين يسيئون استخدام قواهم طوعًا، وهم أشرار وفاسدون ويستحقون قيود القانون للسيطرة عليهم وإصلاحهم.
- والذين يخطئون عن جهل ويحتاجون للمعرفة الدقيقة والإرشاد كي يبصروا الصراط المستقيم ولكي يستخدموا قواهم ومواردهم أفضل استخدام.

إن أصول السلوك – الشريعة – التي أنزلها الله على الإنسان تلبي تمامًا هذه الحاجة، حيث تعرض القانون الإلهي وتعطي التعاليم لتنظيم الحياة مع تحقيق أفضل فوائد للإنسان. هدفها هو تعليم الإنسان الطريق الأفضل، وتزويده بوسائل مُرضية لاحتياجاته بشكل أكثر نفعًا وفائدة له. لقد وُضع قانون الله لمنفعتكم، لا يوجد شيء فيه يحفزكم على تبديد طاقاتكم أو كبت احتياجاتكم وعواطفكم، أو رغباتكم الطبيعية.

الشريعة لا تقول: "اهجروا الدنيا، احرموا أنفسكم من كل متعة في الحياة، اتركوا منازلكم، هيموا على وجوهكم في الصحارى والجبال أو الغابات دون طعام ولا ملابس"، لا تدعو إلى مثل هذه المبالغات أو إلى مثل هذا العذاب.

إن وجهة النظر هذه ليس بها شيء مشترك مع قانون الإسلام الذي صاغه الله خالق هذا العالم لسعادة البشرية. نزلت الشريعة من الله نفسه الذي أعد الأشياء كلها لمنفعة الإنسان، فالله لا يريد تدمير خلقه. لم يعطِ للإنسان أي قوة ضارة أو غير ضرورية، لم يخلق شيئا في السماء ولا في الأرض لا يمكنه أن يخدم الإنسان.

إنها مشيئته الجلية أن يوجد الكون ويظل يعمل بانسجام كي يستطيع الإنسان – جوهرة المخلوقات – أن يحقق الاستخدام الأفضل والمثمر لقدراته وموارده من كل ما أُعد له في الأرض والسماء. ويجب على الإنسان أن يستخدمها بالشكل الذي يجعله هو وأمثاله يجنون ثمارًا جيدةً ولا يسببون – طوعًا أو كرهًا – أي سوء لمخلوقات الله.

أُرسلت الشريعة لتوجيه خطوات الإنسان في هذا الاتجاه، فهي تحرم كل ما يضر الإنسان وتنصح بكل ما يمكن أن يكون نافعًا ومفيدًا. والمبدأ الأساسي للقانون هو أن الإنسان له حقوق، وفي بعض الحالات، عليه واجبات أكثر صرامة، لإرضاء كل حاجاته ورغباته الأصلية في بذل كل جهد ممكن لتدعيم منافعه ولتحقيق النجاح والسعادة.

ولكن هناك نقطة مهمة وهي أن ذلك كله يبنى ليس فقط على أساس عدم الضرر بمصلحة الآخرين وعرقلة جهودهم من أجل الوفاء بحقوقهم وواجباتهم ولكن أيضًا في إطار التماسك الاجتماعي والتعاون المتبادل مع الغير لتحقيق الأهداف العامة.

كما في كل حالات الخير والشر، تمتزج الفائدة والضرر دون انفصال، يقوم القانون على اختيار ضرر أقل لتحقيق منفعة أكبر، والتضحية بالمنفعة القليلة لتجنب الضرر الأكبر(*)، وهذا هو المفهوم الأساسي للشريعة.

ونحن نعرف أن المعرفة البشرية محدودة، فكل إنسان في كل عصر لا يعرف ما هو خير له وما هو شر، ما هو ضار وما هو نافع. إن مصادر المعرفة الإنسانية محدودة جدًا كي تعطي له الحقيقة الخالصة... ولذلك، جنبه الله مخاطر الخطأ وأنزل له قانونه الصحيح والكامل لكل الجنس البشري.

إن مناهج هذا القانون وحقائقه تتضح أكثر وأكثر في الإنسان مع مرور الزمن، وفي أيامنا هذه ما زال البعض لا يقدّرون كل مزايا هذا القانون، لأن التقدم قد سلط عليه الضوء من جديد وأشار إلى تفوقه.

يتجه العالم نحو الطريق المرسوم له بواسطة القانون الإلهي؛ كثير من الناس الذين رفضوه قبلوا به الآن، وذلك بعد قرون من التردد والتجارب والأخطاء، مضطرين لاتخاذ أوامر محددة من هذا القانون. الذين أنكروا صدق التنزيل وأقروا بصدق عقلنا البشري التام بعدما اقترفوا أخطاء وعاشوا تجارب فاشلة، تبنوا بشكل أو بآخر أوامر الشريعة.

(*) لعل المؤلف يقصد القاعدة الفقهية: "إذا تعارضت مصلحتان روعي أخفهما ضررًا لتجنب أشدهما أو أكبرهما ضررًا". (المترجمة)

من جانب آخر، هناك أناس لديهم إيمان كامل بأنبياء الله، يقبلون كلامهم ويطبقون الشريعة وهم يعلمون تمامًا دوافعهم لذلك ويتجاهلون أحيانًا أمرًا أو آخر من أوامر الشريعة، ولكن بصفة عامة يقبلون قانونًا هو ثمرة معرفة حقيقية يحفظهم من الشرور وأخطاء الجهل ومن الفتن والأخطاء. هؤلاء الأناس يسيرون على الصراط المستقيم ويحالفهم النجاح. ومنذ أربعة عشر قرنًا بالتحديد، تقوم الشريعة بإرشاد الإنسان الذي لم يتمكن بعقله العاجز سوى أن يلمح هذه الحقائق، وهذا بعد قرون من الهزائم والخسائر والأخطاء، بعدما أخضع ملايين البشر إلى تفرقة غير مبررة، وبعدما فسد الناس واضطرب المجتمع. إن الشريعة هي أقصر طريق وأسهله نحو الحقيقة، ويؤدي تجاهلها إلى الفشل والفوضى الكاملين.

الشريعة

الحقوق والواجبات

إن نموذج الحياة الذي أشاد به الإسلام يتكون من مجموعة من الحقوق والواجبات التي تتطلب من كل إنسان يتبع هذا الدين أن يوجه حياته وفقًا لمبادئه.

بشكل عام، يفرض قانون الإسلام أربعة أنواع من الحقوق والواجبات للإنسان:

١- الواجبات نحو الله، وهي فرض على كل إنسان.

٢- واجبات الإنسان تجاه نفسه.

٣- واجبات الإنسان نحو الآخرين.

٤- واجبات الإنسان نحو نعم الله التي وضعها تحت تصرفه وسمح له باستخدامها لسعادته.

هذه الحقوق والفروض تشكل حجر الزاوية للإسلام، وفهم الإنسان وخضوعه لها بوعي هو أدق واجب على المسلم الحقيقي.

حقوق الله

الواجب الأول على الإنسان تجاه الله هو الإيمان بأنه واحد، والاعتراف بسلطته وعدم الشرك به، وذلك نعبر عنه في كلمة "لا إله إلا الله".

الواجب الثاني نحو الله هو قبوله بصدق واتباع تعاليمه "الهداية" أي "القانون الذي أنزله الله للإنسان"، والعمل على إرضائه بأداء كل عباداتنا الروحية والنفسية.

الواجب الثالث الذي يخص الله هو طاعته دون تردد ولا تحفظ، نختتم هذا الواجب باتباع قانون الله، كما هو في القرآن والسنة.

الواجب الرابع لله هو عبادته عن طريق إقامة الصلاة والعبادات الأخرى.

إن هذه الحقوق والفروض لها الأولوية على باقي الحقوق لدرجة أنها يجب أن تُنفذ حتى لو كان ذلك سيضر بالحقوق والواجبات الأخرى. يجب بذل مجهود وتقديم تضحيات لتنفيذ هذه الواجبات تجاه الله، عليك الاستيقاظ مبكرًا في الصباح للصلاة مضحيًا بالنوم والراحة.

خلال اليوم، كثيرًا ما تترك بعض الأعمال المهمة لعبادة الخالق، خلال شهر رمضان، شهر الصيام، يجب أن تتقوى وتتحمل الجوع وكل أنواع المضايقات لمجرد إرضاء ربك. عندما تدفع الزكاة، تفقد جزءًا من ثروتك، ولكنك تثبت أن حب الله له أولوية قبل أي شيء، وأن الرغبة في المال لم تعد عائقًا لك، لكي تقوم بفريضة الحج يجب أن تضحي بمالك وتواجه مخاطر الرحلة.

إن الله الذي لا منتهى لعدله قضى أن يكون التوازن والانسجام موجودين في كل مظاهر الحياة، وأن التضحية التي تتطلبها حقوق الآخرين محدودة للغاية. تحقق هذا بفضل المعالم التي حددها الله بلطفه اللانهائي، لقد أعطانا كل الرُخص لنقوم بفرض الصلاة، فإذا لم يكن ممكنًا تدبير ماء للوضوء، أو كان الإنسان مريضًا

يمكن أن يتيمم، وإذا كان على سفر يمكنه أن يقصر الصلاة، ولو كان مريضًا ومُنِع من الوقوف يمكنه أن يؤدي الصلاة جالسًا أو مضطجعًا.

علاوة على ذلك، هناك قابلية للتغيير في تلاوة الآيات القرآنية في الصلاة بحيث يمكن أن تكون قصيرة أو طويلة حسبما يريد المُصلي، ففي أوقات الفراغ والراحة يمكن قراءة سورة أطول من القرآن، وفي أوقات أخرى حيث تكون مشغولاً يمكنك تلاوة بعض الآيات فقط. أو لنكون أكثر دقة، فإن الأوامر هي أن القراءة في الصلاة يجب أن تكون بآيات قصيرة عند صلاة الجماعة، وعند الصلاة التي تؤدي في أوقات العمل. والله يتقبل منا جميع الصلوات التي نؤديها اختيارًا (النوافل) ولكنه يعارض أن تحرمنا من النوم والراحة، وأن نضحي بحقوق أولادنا أو بيوتنا. والإسلام يريد أن نحافظ دائما على التوازن بين أنشطة الحياة المختلفة.

ويحدث الشيء نفسه في الصوم، فليس هناك سوى شهر واحد في العام لصيام الفريضة، وخلال السفر أو المرض يباح ألا تصوموا وأن تعوضوا ذلك في وقت آخر مناسب من العام. يمكن للنساء أن يؤجلن الصوم إلى ما بعد شهر رمضان في مواقف معينة مثل الحمل أو الحيض أو رعاية طفل حديث الولادة.

ينتهي الصيام في وقت محدد وأي تأخير عنه يكون غير مقبول، ومسموح بالأكل والشرب من غروب الشمس حتى بزوغ الفجر. إن الصوم له قيمة كبيرة للغاية ويرضي الله ولكنه، لا يريد أن تصوموا بإفراط لأنكم لو ضعفتم فلن تستطيعوا القيام بأعمالكم اليومية بشكل مناسب.

وبالطريقة نفسها، في حالة الزكاة فإن الله لم يحدد سوى قدر قليل، والإنسان حر في أن يزيد على هذا القدر كما يرغب وذلك حبًا في الله. لو أعطيت الزكاة فقد أديت الفرض، ولكن لو تم تخصيص أموال أكثر في أعمال الخير سيكون ذلك دليلاً على تحري إرضاء الله أكثر. ولكن الله لا يريد أن نضحي بالمستقبل القادم في

أعمال الخير الزائدة التي تحطم ثروتنا، ولا أن نسرف، وذلك من أجلنا ومن أجل أسرتنا والرخاء الذي يجب أن نتمتع به، فالله لا يريد أن نصبح فقراء، لقد أوصانا بأن نكون معتدلين حتى في ممارسة الفضيلة والخير.

بالنسبة للحج، فهو فريضة فقط على مَن استطاع (مَن لديه أموال كافية وتزيد لدفع نفقات الرحلة، ولمن لديه القدرة الجسدية لتحمل الجهد).

ولكي يتجنب انتصار الشر على الخير، وأن يصبح العالم مملكة لفساد الأخلاق وللشرور أمرنا الله بالتالي: بأن نؤدي واجباتنا ونضحي بحياتنا وأملاكنا لإرضائه، ولكنه في الوقت نفسه حرم كل سفك باطل للدماء، أو الاعتداء على الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى والجرحى.

إن أمر الله بالقتال هو فقط ضد مَن يتوجهون لمحاربة الإسلام ظلمًا، أمرنا ألا نحدث دمارًا غير مفيد حتى ضد العدو، ونحاول أن ننتصر عليهم بالعدل والشرف. لقد أعطانا أوامر واضحة باحترام المعاهدات أو الاتفاقيات مع العدو، ووقف القتال عندما تتوقف أو ينتهي العدو عن اعتداءاته ضد الإسلام.

وهكذا فلا يسمح الإسلام سوى بالحد الأدنى للتضحية بالحياة وبالممتلكات وبحقوق الآخرين من أجل تنفيذ واجباتنا مع الله. يريد أن يقيم التوازن بين متطلبات الإنسان المتنوعة وأن يوفق بين الحقوق والواجبات، بحيث تثري الحياة بالحسنات والعلاقات الأسمى.

حقوق النفس

فيما يتعلق بحق الفرد على نفسه، فكثيرًا ما يكون الإنسان ظالمًا وقاسيًا مع نفسه أكثر مما هو مع أي شخص آخر. هذا شيء قد يدهشنا، فكيف يمكن أن يكون الإنسان ظالمًا مع نفسه مع أن المعروف جيدًا أن النفس لها الأولوية على كل شيء؟ كيف يمكن أن يكون عدو نفسه؟ في الواقع يبدو هذا شيئًا غير مفهوم.

وهنا في بعض الحالات نجد الميل الذي يظهره الإنسان أحيانًا نحو التطرف والتخبط هنا وهناك، ويمكن ذكر عدد كبير من الأمثلة المشابهة من عـدم التوافـق وعدم الاتزان في الأعمال اليومية، ولكن هذا لا يفيد هنا، يريـد الإسـلام رخـاء الإنسان، وهدفه الصريح إقامة حياة متوازنة، لهذا أعلنـت الـشريعة بوضـوح أن لأنفسكم عليكم حقًا.

وأحد هذه المبادئ الأساسية هو: "إن لنفسك عليك حقًا". فالشريعة تحرم استخدام كل الأشياء التي تضر الحياة جسديًا وفكريًا ومعنويًا. تحرم الـدم والمخـدرات ولحـم الخنزير والطيور الجارحة والحيوانات السامة والجثث (الميتة)، لأن هذه الأشياء كلهـا لها آثار غير مرغوب فيها على حياة الإنسان الجسدية والأخلاقية والفكرية والروحيـة. ومع تحريم كل الأشياء السابقة، كتب الإسلام على الإنسان استخدام كل ما هو مناسـب وصحي، وأمره بألا يَحْرِم جسمه من الغذاء الصحي.

يستنكر قانون الإسلام العُري، ويأمر الإنسان بارتداء ما هو محتشم ولائـق، ويحض على العمل لكسب العيش، ويرفض بشدة الفراغ والكسل.

إن روح الشريعة هي التي يجب على الإنسان استعمالها لراحتـه ورخائـه، وكذلك القدرات التي منحها الله له، والموارد التي وضـعها الله لـه فـي الأرض والسماء. ولا يريد الإسلام أيضًا كبت الرغبات الجنسية، بل يـأمر الإنـسان فقـط بالتحكم فيها وأن يشبعها بالزواج.

يُحَرِّم الوصول إلى اضطهاد النفس، وتجاهل الذات، ويسمح له أو بـالأحرى يوصيه بالاستمتاع بملذات الحياة الشرعية، وأن يكـون رحيمًـا وحازمًـا وسـط مشكلات الحياة. وليس ضروريًا هجر هذا العالم للبحث عن السمو الروحي والنقاء الأخلاقي والتقرب من الله والنجاة في الحياة المستقبلية، إن طريق الفوز يكمن فـي اتباع القانون الإلهي، وسط تعقيدات الحياة وليس خارجها.

ويُحَرِّم الإسلام الانتحار بشكل قطعي، ويلقن الإنسان فكرة أن حياته ملك لله، فهي الوديعة التي استأمنه الله عليها لمدة محددة كي يستعملها على أفضل وجه ممكن، ولم تُمنح له كي ينهيها أو يحطمها بشكل غير مسئول.

حقوق الآخرين

أمرت الشريعة الإنسان بالالتزام بحقوق الفرد وأن يكون عادلاً مع نفسه، وعلى جانب آخر، أمرته بأن يحقق ذلك بحيث لا ينتهك حقوق الآخرين.

ولقد حاولت الشريعة إقامة التوازن بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع بالشكل الذي لا يمكن أن يظهر معه أي صراع بينهما، وأن يتعاون الكل لجعل قانون الله يسود. فالإسلام يُحرِّم الكذب رسميًا بكل أشكاله، لأن الكاذب يضر سائر الناس، ويشكل خطرًا على المجتمع. ويُحرِّم أيضًا السرقة والفساد وتزوير العملة والغش والسلب، لأن كل مكسب يأتي من هذه الطرق يسبب في الواقع الخسائر والضرر للآخر.

كما يُحرِّم أيضًا السب والغيبة والنميمة وتشويه سمعة الآخرين واليانصيب والمضاربة وكل ألعاب الحظ، لأن الشخص الرابح في كل هذه الأعمال يصبح ثريًا بشكل ظالم، مسببًا الضرر لباقي الخاسرين. ويُحرِّم كل هذه الأشكال من المعاملات الاستغلالية لأنها غير مشروعة عند الله وتعتدي على حقوق الآخرين.

ويُحرِّم أيضًا الاحتكار وتراكم الثروة والسوق السوداء والمضاربة على الممتلكات وبعض الممارسات الأخرى المناهضة لحقوق الفرد والمجتمع، بينما يعد القتل وسفك الدماء وإثارة الفوضى جرائم لأنه لا يحق لأحد أن يأخذ حياة الآخر أو ممتلكاته لمجرد منفعته أو لرضاه الشخصي.

كما يُحرِّم الزنا والشذوذ الجنسي بشكل صارم، لأنهما يفسدان الأخلاق ويضران بصحة مَن يرتكب هذين الذنبين، كما أن هذه الممارسات تنشر الفساد

والفجور، وتؤدي إلى تدهور الصحة العامة، وتخرب أخلاق الأجيال القادمة، وتقلب علاقات المودة بين الناس رأسًا على عقب، وتمزق انسجام البنية الثقافية والاجتماعية في المجتمع. يجب أن يقتلع الإسلام هذه الذنوب الفظيعة جدًا من الجذور. كل هذه المعالم والقيود فرضها قانون الإسلام، كي يمنع الإنسان من استغلال حقوق الآخرين.

لا يريد الإسلام أن يصبح الإنسان أنانيا ولا نرجسيا إلى الدرجة التي يسبب ضررًا لحقوق الآخرين، ولا ينتهك كل المبادئ الأخلاقية لكي يحظى برضا روحه وجسده الشخصي. لا يُسمح له أيضًا بانتهاك مصالح الآخرين للمحافظة على الحقوق الشخصية، وينظم قانون الإسلام الحياة بهذا الشكل الذي يمكن أن يضمن الرخاء لكل فرد وللجميع.

ولكن لا تكفي بعض القيود السلبية للحصول على رخاء البشرية وتقدم الحضارة. ففي مجتمع رحيم ورخي بحق، لا يقتصر الأمر على النهي عن انتهاك حقوق الآخرين والإضرار بمصالحهم، بل يجب أيضًا أن يتعاون الناس بعضهم مع بعض بإيجابية وأن يقيموا علاقات متبادلة وإرشادات اجتماعية تسهم في رخاء الجميع وإقامة مجتمع إنساني مثالي.

وبالتالي، فلنتأمل أوامر الشريعة التي تخص الأسرة بالكامل، تتكون الأسرة من الزوج والزوجة وأبنائهما، وأوامر الإسلام فيما يخص الأسرة صريحة جدًا:

توكل للرجل مسئولية كسب العيش، وأن يمد زوجته وأولاده بكل ما هو ضروري، وأن يحميهم من خطوب الحياة جميعها. بالنسبة للمرأة يوكل إليها واجب إدارة المنزل وتربية الأولاد وتعليمهم بأحسن شكل، وأن تعطي لزوجها وللأبناء الراحة والسعادة الممكنتين. الأبناء عليهم احترام والديهما وطاعتهما، فإذا بلغا الكبر وجب على الأبناء أن يعتنوا بهما ويوفروا لهما احتياجاتهما.

ولكي نجعل من الأسرة مؤسسة جيدة الإدارة والتنظيم اتخذ الإسلام الخطوات التالية:

الزوج يتولى منصب رب الأسرة، فلا توجد مؤسسة يمكن أن تعمل بانسجام إذا لم يكن هناك مَن يديرها ويحكمها، إذا لم تكن المؤسسة هكذا فستحدث فوضى. ورب الأسرة لديه مسئوليات معينة: يقوم بكسب العيش، ويشتغل بالأعمال التي تتم خارج المنزل، وهذا يعفي الزوجة من كل الأعمال الخارجية التي تقع على عاتق الزوج، فهي معفاة من كل الواجبات الخارجية لتتفرغ تمامًا للواجبات الداخلية وللاعتناء بالأسرة وأولادها الذين هم حماة المجتمع وحراسه في المستقبل.

لقد حث الإسلام النساء على البقاء في منازلهن والقيام بالمسئوليات التي وُكلت إليهن، ولكن هذا لا يعني أن الزوجة غير مسموح لها بالخروج من المنزل، بل لديها حرية التصرف، ومسموح لها بالخروج عند الضرورة.

وتتسع دائرة الأسرة بفضل المواليد والزواج، ولقد صاغ قانون الإسلام قواعد محددة قائمة أساسًا على حكمة الماضي وتجربته لتشجيع الاتحاد بين أعضاء الأسرة، وللحفاظ على العلاقات المتبادلة الودودة والقوية، وجعل كل فرد من أفراد الأسرة دعامة تمنح الآخرين المساعدة والقوة والرضا، وتتلخص هذه القواعد هكذا:

١- تحريم الزواج بين الأشخاص الذين لديهم روابط قرابة شديدة عن طريق الميلاد أو المصاهرة، فيحرم على الرجل الزواج من أمه وبنته وبنت زوجته وزوجة أبيه وأخته من النسب أو الرضاعة وبنت أخيه وبنت أخته وعمته وخالته وأم زوجته وزوجة ابنه.

هذا التحريم يقوي الروابط الأسرية ويجعل العلاقة بين الوالدين طاهرة تمامًا؛ يستطيعون أن يحيوا هكذا معًا في علاقات جيدة دون ضيق وبود خالص.

٢- عندما لا يوجد أي من الموانع المذكورة سابقًا على مستوى القرابة، فالزواج يمكن أن يُعقد بين أعضاء الأسرة المتصاهرين، فمثل تلك العلاقة توحدها أكثر.

الزواج بين الأسر التي ارتبطت بحرية مع بعضها بعضًا، والتي بالتالي عرفت بيئتهم وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة يكون عادةً زواجًا سعيدًا.

٣- نجد في جماعة من الأسر المتصاهرة فقراء وأغنياء، وأناسا يختلف حظهم من السعادة، حسب المبدأ الإسلامي، أسرة الإنسان لها الأولوية في الحقوق منه.

احترام هذه الواجبات تجاه أعضاء الأسرة يسمى تقنيا "صلة الرحم". وقد حث الإسلام المسلمين على احترام هذه الروابط بكل الطرق الممكنة، فعدم الإخلاص مع أعضاء الأسرة وإهمال حقوقهم يعد ذنبًا يستنكره الله.

لو كان القريب فقيرًا أو لديه صعوبات مادية يجب على أقاربه الأكثر غنى ورخاء أن يساعدوه، فهناك اهتمام خاص بحقوق الأقارب في الزكاة وباقي أعمال الخير، ووُصي بذلك.

٤- فيما يتعلق بقوانين الميراث، صاغها الإسلام بهذا الشكل: إن الممتلكات التي تركها المتوفى يجب ألا تتركز في يد شخص واحد، يجب أن توزع بالطريقة التي يأخذ بها كل قريب جزءًا حسب درجة قرابته.

ويُعد الابن والابنة والزوجة والزوج والأخ والأخت هم الأقارب المقربون الذين لهم أولوية مطلقة في الميراث، وفي حالة عدم وجود هؤلاء الأقارب من الدرجة الأولى تُوزع الممتلكات على الأقارب الآخرين الموجودين على قيد الحياة. وبالتالي بعد موت الإنسان تُوزع ممتلكاته بين أقاربه، وهذا النظام يستبعد كل إمكانية للتركيز الرأسمالي للثروة.

علاوة على الأسرة، لدى الإنسان علاقات مع أصدقائه وجيرانه، وساكني بلدته ومدينته وقريته، أو مع الأناس الذين يتعامل معهم بشكل مستمر. يقدر الإسلام هذه العلاقات ويحث المسلم على معاملة الناس بأمانة وإخلاص وعدل وأدب: يأمر المؤمنين بأن يراعوا مشاعر الآخرين، وأن يتجنبوا استخدام لغة فاحشة وجارحة، وأن يساعد بعضهم بعضًا وأن يزوروا المرضى وأن يواسوا التعساء وأن يساعدوا المحتاجين والضعفاء وأن يشفقوا على المكروبين وأن يعتنوا بالأرامل والأيتام وأن يطعموا الجائعين وأن يكسوا العرايا وأن يساعدوا الأشخاص الآخرين ليجدوا عملاً.

يقول الإسلام إذا أعطاكم الله ثروة وممتلكات فيجب ألا تبذروها في الترف والتفاهات، فقد حرم استخدام الأواني من الذهب والفضة، والملابس من الحرير الغالي(*)، وحرم إسراف مَن ينفقون الأموال في مشروعات خطرة أو ترف شاذ.

يقوم أمر الشريعة هذا على مبدأ أنه غير مسموح لأي إنسان أن يبذر- لإرضاء نفسه – ثروة يمكن أن تكفي لإعالة حياة العديدين غيره، ومن القسوة والظلم أن الدخول الاقتصادية التي يمكن استخدامها لإطعام عدد لا يحصى من الجياع تستعمل في أعمال فخمة غير مفيدة أو شاذة، وفي التفاخر أو الترف الزائد عن الحاجة.

الإسلام لا يريد أن يَحْرِم الإنسان من ثروته وأملاكه، فما يكسبه الإنسان بمجهوده الشخصي أو إرثه هو ملك كامل له، ولكن يعترف الإسلام بحقه، ويسمح له بالاستمتاع به وأن يستخدمه أفضل استخدام ممكن.

يشير أيضا إلى أنه إذا كنتم أغنياء فيمكنكم الاستمتاع بأموالكم بأحسن الملبس والمسكن والحياة الأكثر راحة، ولكن الإسلام يريد ألا يغيب أبدا عن نظر الإنسان – في كل أنشطته – العنصر البشري.

(*) حرم الإسلام استخدام الأوانى من الذهب والفضة على الإطلاق، وحرم لبس الذهب والحرير على الرجال دون النساء. (التحرير)

ما يستنكره كليًا هو الأنانية المزعومة التي لا تهتم برغد الآخرين، وتؤصل الفردية المفرطة، يريد الإسلام أن يكون المجتمع الإنساني بأكمله في رخاء وليس بعض الأفراد فحسب، ويوحي في نفس المؤمنين بالوعي الاجتماعي، مشيرًا عليهم أن يحيوا حياة بسيطة وعفيفة.

الفصل الرابع

الأندلس، والفتح، وخلافة قرطبة، وممالك الطوائف، والغزوات الإسلامية ومملكة غرناطة

١ – الأندلس: الفتح

إن إسبانيا القوطية – وربما قبل فرنسا أو ألمانيا – جعلت الاعتراف بوطن قومي أمرًا حقيقيًا، والذي عرفه آنذاك سوينتيلا ملك إسبانيا كلها Suintila como rex totius Spaniae، وهو مفهوم أعلى من الوطن القومي أو ما هو أكبر، الإقليمي، والذي استطاعت تحقيقه فقط أحسن الشعوب بين الشعوب غير المتحضرة.

عَكَس سان إيسيدورو الإشبيلي في مقدمة تاريخ Gothorum مفهوم الوطن القومي هذا: إسبانيا، أنتِ أجمل من كل الأراضي التي تمتد من الغرب حتى الهند؛ أرض مباركة وسعيدة بأمرائك، أم لشعوب كثيرة!

"أنتِ ملكة كل الأقاليم. تشعين ضوءك في الشرق والغرب... في شعبك تزدهر بوفرة خصوبة القوطيين العظيمة".

لقد عاش العديد من ملوك القوط الأخيرين في جو من الخلاعة وسمحوا بضعف المؤسسات العسكرية، وزادت أشكال عدم التسامح الديني المتعددة من الانقسام الذي اعتمد على النظام الانتخابي للمملكة، والذي صححه (الإكليروس).

ولهذا كان لدى النظام (الدولة القوطية) أعداء في الداخل والخارج بسبب رخاء البلاد، تعاون هؤلاء الأعداء في احتياجهم لأن يجتمعوا، ولكن كانوا أكثر فظاعة عندما حدث ذلك.

أراد الملك القوطي قبل الأخير ويصا أن يتبع سياسة سمحة وأن يحافظ على خلافة العرش لابنه، فسبب عدم رضا من ناحية الإكليروس، ومن ناحية النبلاء. تمكن دوق باطقة لذريق من السيطرة على العرش.

حسبما تروي القصص، كان لدى حاكم سبتة دون جوليان ابنة اسمها فلوريدا، وقد أغواها الملك الجديد السيد لذريق، فلكي ينتقم منه جوليان استنجد بالعرب الذين كانوا يملكون منذ سنوات عديدة الجزء الأكبر من شمال إفريقيا ويحاولون النفاذ لإسبانيا.

في تأريخ عربي قصير للقرن التاسع كتبه ابن عبد الحكم، يحكي واحدة من الروايات المتطابقة مع هذه الحلقة المهمة من ضياع إسبانيا:

"كان يسيطر على المضيق الذي يفصل إفريقيا عن إسبانيا مسيحي يدعى جوليان حاكم سبتة ومدينة أخرى تقع على المضيق وتسمى الخضراء بالقرب من طنجة. كان يدين بالولاء للذريق حاكم إسبانيا الذي يقيم في طليطلة. أرسل طارق سفراء لجوليان فعاملهم بكل احترام، وعقدوا سلامًا بينهم. أرسل جوليان ابنته (وفي رواية أخرى زوجته) للذريق حاكم إسبانيا لتتعلم هناك، ولكن الملك أساء إليها، وعندما علم جوليان بالأمر قال: أحسن عقاب يمكن أن أعاقبه به هو أن أثير العرب ضده، وأرسل إلى طارق يخبره أنه سيقوده إلى إسبانيا".

كان طارق آنذاك في ترمذان، وموسى في القيروان، فأجاب طارق جوليان بأنه لا يثق به إلا إذا أرسل له رهائن، فحينها أرسل جوليان ابنتيه الوحيدتين لطارق. وبذلك اطمأن طارق وخرج باتجاه سبتة على المضيق بحثًا عن جوليان الذي سعد بوصوله للغاية وقال له إنه سيقوده إلى إسبانيا.

كان هناك في ممر المضيق جبل يسمى اليوم جبل طارق، وهو يقع بين سبتة وإسبانيا، وفي المساء جاء جوليان ببعض المراكب وقادهم إلى تلك النقطة

حيث اختبأ طوال النهار؛ ثم عاد بالجنود الذين بقوا وهكذا تم نقل الجميع. لم ينتبه الإسبان لذلك واعتقدوا أن المراكب أتت وذهبت حسب العادة للتجارة. أبحر طارق في آخر فوج واجتمع مع أصحابه. وبقي جوليان والتجار الذين معه في الجزيرة لتشجيع أصحابهم وأهل المدينة. وانتشر بين الإسبان خبر مجيء طارق والمكان الذي كان فيه، وحينذاك خرج مع أصحابه، عبر جسرًا يقود من الجبل حتى قرية تسمى قرطاجنة واتجه نحو قرطبة.

يحكي لنا عبد الرحمن نقلاً عن رواية عبد الله بن عبد الحكم وهشام ابن إسحاق أنه كان في إسبانيا منزل مغلق بأقفال كثيرة، وكل ملك كان يزيدها قفلاً إلى إن جاء الملك الذي دخل العرب في عهده.

أرادوا أن يقوم بعمل قفل أيضًا مثل مَن سبقوه ولكنه رفض وقال لن أفعل هذا الشيء حتى أرى ماذا في المنزل. أمر بفتحها ووجد صورة للعرب مع كتابة تقول: "عندما يُفتح هذا الباب سيدخل هذه البلاد الذين رُسِمُوا هنا".

نعود إلى قصة أوسمين والآخرين.

خرجت فرقة جنود الجيش القرطبي للقاء طارق عندما استعد للسير، وعندما رأوا العدد القليل لجيش المسلمين استهانوا بهم، وكلما احتدمت المعركة أكثر كانوا يقاتلون بشدة وهُزِموا في النهاية؛ ولم يتوقف المسلمون عن قتلهم حتى وصلوا إلى قرطبة.

عندما علم لذريق بهذا حضر من طليطلة ليواجههم، وتقابلوا بمكان اسمه شذونة Sidonia بجوار النهر الذي يسمى اليوم أم حكيم واشتبكوا في معركة محتدمة حتى قتل الله لذريق وأصحابه.

في جيش طارق، كان مغيث الرومي – عتيق الوليد بن عبد الملك – قائد الفرسان، وكان قد أُرسِل لقرطبة، بينما توجه طارق لطليطلة وفتحها.

يحكي البعض أن لذريق أتى بحثًا عن طارق الذي كان بالجبل، وعندما أصبح على مقربة منه خرج طارق للقائه. حضر لذريق ذلك اليوم محمولاً على العرش الملكي فوق بغلتين بتاجه وقفازاته وملابس أخرى وزينة كان قد استعملها أسلافه. بينما ذهب طارق وجنوده للقائه سيرًا لأنهم لم يكن بينهم فرسان وتقاتلوا منذ طلوع الشمس حتى غروبها بحيث اعتقدوا أن ذلك سيكون دمارًا كليًا، ولكن الله قتل لذريق وأتباعه وانتصر المسلمون.

كان فتح إسبانيا بالإسلام وانتشاره سمحًا تمامًا حيث قام على المعاهدات و/ أو التسليم بشروط، وكان هذا هو النظام الذي اعتاد المسلمون استخدامه في التوسع نحو الشرق حيث كان مقابل الجزية المفروضة للإنفاق على فرق الجنود القبلية التي وصلت لشبه الجزيرة يمنحونهم الاحترام المطلق لحياتهم وأموالهم ومعتقداتهم الدينية وحرية العبادة ولا يسلبونهم شيئًا من أملاكهم. وحدث ذلك في إشبيلية وقرطبة وماردة ولشبونة وطليطلة وبانبلونة... إلخ.

في حكايات هذا العصر، يُذكر تيودوميرو حاكم مُرسية الذي يعد أشهر مَن فيها في القرن الثامن حيث وقع معاهدة مع عبد العزيز للتسليم بشروط متفق عليها نصها هو: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو كتاب عبد العزيز بن موسى إلى تيودوميرو بن جاندريس الذي بموجبه يتم الاتفاق على حالة السلام بالعهد والقسم أمام الله وأنبيائه ورسله أن يحصل على حماية الله عز وجل وحماية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لن يفرض أحد عليه شيئًا ولن يُسلَب من أتباعه أي شيء يملكونه بطريقة سيئة، ولن يخضعوا للعبودية ولا يُفرقون عن زوجاتهم وأولادهم، ستُحترم حياتهم ولن يُقتلوا أو تُحرق كنائسهم، كما لن تمنع طقوس دينهم.

ستمنحون السلام مقابل تسليم سبع مدن، وهي للعلم: أوريويلة ومولة ولورقة وبالانتانة ولقنت وإيين وإلشه، وذلك ما دمتم لم تنقضوا أو تنتهكوا ما اتُفق عليه.

وعلى كل مَن علم بهذه الاتفاقية أن يلتزم بما فيها، لأن سريان العمل بهـا يتطلـب معرفة مسبقة دون إخفاء أي خبر تعرفه.

سيُفرض على تيودوميرو وأتباعه ضريبة التسليم بشروط وعليه دفعها: الحر يدفع دينارًا، أربعة أمداد من الشعير، أربع قصعات من الخل واثنتين مـن العسل وواحدة من الزيت. وعلى كل عبد أن يدفع نصف ذلـك كلـه..." (طبقًـا لـنص الأدري).

بانتهاء الفتح المبدئي لإسبانيا الذي دُعِم لاحقًا، تم البدء في فتح فرنسا الـذي لم يتحقق.

بفتح إسبانيا استقر خلفاء موسى في جنوب فرنسا، في نربونة والتي أصبحت نقطة الانطلاق لهجمات أخرى نحو الشمال. في عام ٧٢١م استسلم الأمير المـسلم في طولوسة(*)، لكن خليفته عبد الرحمن استأنف السير وسيطر علـى بورديـوس، ولم يعد هناك عقَبة أخرى في الطبوغرافيا لفتح شمال فرنسا عندما هُزمت القـوات العربية والبربرية في عام ٧٣٢م على يد جيش شارل مارتل الـذي تجـسدت بـه الميزات العسكرية في معركة بلاط الشهداء Poitiers.

كان العرب الذين وصلوا إلى إسبانيا قليلين، والبربر أكثـر عـددًا، ولكـن الإسبان كانوا هم الأكثر على الإطلاق، ومع ذلـك كـان يـسود بيـنهم العنـصر الفوضوي والمستتر دائمًا في إسبانيا: الوثنيون، والذين عاملهم أساقفة طليطلة بشدة، والأريوسيون القدماء الذين لم يعتادوا المسيحية ووجدوا في الإسلام دينًـا مناسـبًا لروحهم وبواطنهم والذين كانوا يأملون أن يكون بيت المال العربـي أكثـر كرمًـا وعطاء من البيت القوطي؛ والعبيد المسيحيون واليهود الذين وجدوا فرصة سـانحة في قدوم العرب للحصول على حريتهم؛ وفي النهاية أولئك الذين كان يروق لهم في كل عصر أن يقفوا بجانب المنتصر، استطاعوا أن يتنازلوا عن ميولهم عندما أُتـيح لهم ويتفاهموا كما في السابق مع البربر بسهولة.

(*) استسلم الأمير للجيش الفرنسي بقيادة الدوق Odón de Aquitania. (المترجمة)

كان المستعربون (الأندلسيون المسيحيون) أكثر تفوقًا في العدد والحضارة من البربر والعرب، وكان عليهم أن يشعروا شيئًا فشيئًا بتأثير فائق لما يسمى بإسبانيا العربية.

كان المسلمون هم ملاك الحكومة بحق، ولكن كثيرًا منهم كانوا مسلمين من أصل مسيحي، لذلك لم تستطع معتقداتهم الدينية التي فرضتها المصلحة أن تغير عقليتهم بعمق. إن الحكام أنفسهم، بدءًا من الملوك بدأوا عملية اندماج مع الشعب الإسباني القوطي، وتزوجوا نساءً إسبانيات من الشمال من جليقية وكنتبرية، شقراوات عامة بقدر المستطاع. وبعد مرور عدة أجيال، كانت نسبة الدم العربي قليلة في عروق ملوك المسلمين، والذين كانوا إسبان بتربية عربية، وهكذا فحرب استرداد إسبانيا لم تتم في ساحات القتال فحسب بل أيضًا في الفاتحين أنفسهم.

لم تُفتح شبه الجزيرة الأيبيرية قط بالكامل، حيث سيطر المسلمون بالفعل على المراكز الأساسية والعواصم، وتركز عددهم القليل في هذه النقاط الحيوية، ومع ذلك، استقر العرب في أودية الأندلس وأراجون الخصبة محتلين أكثر الأراضي ازدهارًا، تاركين للبربر الأقل إثمارًا والأسوأ موقعًا في أراضي إكستريمادورة وقشتالة؛ ذلك التوزيع الذي أدى إلى تضامن الفاتحين البربر شيئًا فشيئًا مع جماهير الشعب الأيبيري المُحتل.

في الجنوب، حدثت مصادرات شاسعة بشكل أساسي: جزء منها احتفظت به الدولة، ومنحته بدورها للعبيد الإسبانيين القوطيين لاستغلاله، وفي المقابل عليهم أن يسلموا ثلث المحصول لنائب الأمير، ووُزّعت باقي الأرض على جنود القوات المنتصرة الذين لا يعلمون شيئًا عن الزراعة، ولأن الكسل كان غاية لديهم، فقد قنعوا بذلك تاركين الاهتمام بالأرض لهؤلاء الذين يزرعونها مقابل دفع جزء من المحصول يساوي الثُلث وأحيانًا الخُمس وكان هذا الوضع مربحًا لهم أكثر.

(أ) الأندلس: الإمارة التابعة لدمشق

خلال الخمسين عامًا التي استمرت فيها هذه المرحلة من التبعية للشرق، تميز تاريخ إسبانيا الإسلامية في الداخل بالصراعات بين العناصر العرقية المختلفة التي اشتركت في الفتح، خاصة العرب والبربر، وبقدر أقل الشوام؛ وفي الخارج تميز بمحاولات نشر الإسلام في الأراضي الأوروبية.

بعد موت عبد العزيز وبتحول شبه الجزيرة إلى إمارة تابعة للخلافة في دمشق، ساد الاضطراب لأكثر من أربعين عامًا وانتقلت الخلافة من إشبيلية إلى قرطبة في عام ٧١٩م على اعتبار أن قرطبة مدينة أكثر أمانًا.

خلال فترة حكم الأمير عبد الرحمن الغافقي هُزمت جيوش المسلمين بالقرب من بلاط الشهداء Poitiers في عام ٧٣٢م على يد الجيش الفرنسي بقيادة شارل مارتل واضعين نهاية لتوسع الإسلام في الأراضي الأوروبية.

إن الصراعات الداخلية بين البربر والعرب جعلت أمير قرطبة عبد الملك يطلب مساعدة من خليفة دمشق. وفي ظل الخطر البربري سرعان ما أرسلت دمشق إلى شبه الجزيرة الأيبيرية في عام ٧٤١م جيشًا قويا تحت قيادة الجنرال بلج(*) الذي استولى على السلطة وبذلك دخل الشوام في النزاعات العرقية مع باقي الفاتحين المسلمين.

خلال العام التالي كله، أقامت هذه المجموعات السورية في شبه الجزيرة بشكل قاطع، وفي مقابل المساعدة العسكرية التي أمدتهم بها منحوهم حق الاستمتاع بثلث الجزية التي تدفعها أقاليم المقاطعات الحالية لغرناطة وملقة وجيان وإشبيلية.

تعد هزيمة جيش الفرنسيين في معركة رونسسفاليس Roncesvalles حدثًا مهمًا في تدعيم سلطة العرب القرطبية في وادي الإيبرو، حيث عاد الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعدما حاول إقامة الحماية على كاتالونيا وأراجون كي تستقل العُدوة العليا عن إمارة قرطبة مستمعين إلى مقترحات سليمان.

(*) هو بلج بن بشر القشيرى. (التحرير)

فى هذه المعركة في الخامس عشر من أغسطس عام ٧٧٨م مات جزء كبير من النبلاء الفرنسيين والذين أعطاهم شارلمان قيادة وحدات الجيش، ويجب أن نذكر رولاند الذي ستُغنى أعماله البطولية بعد ذلك في القصيدة الملحمية (ملحمة رولاند) La chanson de Roland.

(ب) الأندلس: الإمارة المستقلة عن دمشق(*)

في عام ٧٥٠م، أقام العباسيون – وهم منحدرون من نسل العباس عم النبي – في بغداد واستولوا على الحكم في الإمبراطورية الإسلامية. ستمتد هذه الأسرة الحاكمة إلى أكثر من ٥٠٠ عام. تبدأ بالسفّاح الذي أعلن الحرب على الأمويين، الذين كان يعتبرهم أعداءه، وانتهى بإبادة باقي الأسرة الحاكمة بمن في ذلك عبد الواحد عميد الأسرة.

ولحسن الحظ، فقد نجا من المذبحة عبد الرحمن حفيد الخليفة الأموي الذي بقي في مزرعة على نهر الفرات مع أخيه الأصغر. وعندما رأيا وصول رايات العباسيين السود حاولا الهرب عبر النهر. انقاد أخوه لصيحات الجنود، وعاد للشاطئ حيث ضُرِب عنقه. سار عبد الرحمن لمدة خمس سنوات هائمًا في فلسطين ومصر وشمال إفريقيا وكان دائمًا على حذر من جواسيس العباسيين.

في عام ٧٥٥م وصل إلى سبتة حيث قدم له بعض البربر (أقارب والدته) الحماية. ومن هناك أقام اتصالاً مع عرب الأندلس، الذين كان كثير منهم قادمين من سوريا مثله، وكانوا تابعين للأمويين وبقبوله مساعدتهم انطلق لنيل السلطة في إسبانيا.

(*) أخطأ الكاتب عندما ذكر أن الأندلس كانت إمارة مستقلة عن الخلافة في دمشق (ونفس الخطأ موجود فى الفهرس)، والصحيح تاريخيا أن الأندلس كانت إمارة مستقلة عن الخلافة في بغداد. (المترجمة)

هرب عبد الرحمن بن معاوية – الناجي الوحيد من الأسرة الأموية التي قتلت في دمشق – من المذبحة التي أقيمت ضد أسرته، ورسا في ميناء المنكب بالأندلس يوم ١٤ من أغسطس عام ٧٥٥م باحثًا عن مساعدة المولدين في شبه الجزيرة ليعيد قوة الأسرة الأموية في الأندلس.

دخل عبد الرحمن الأول قرطبة في بدايات العام التالي وأصبح أول أمير أموي مستقل (٧٥٦ – ٧٨٨م) معلنًا الأندلس إمارة مستقلة، وأصبحت أول إقليم منفصل سياسيًا عن الخلافة في الشرق، والتي كانت تتبعها فحسب من الناحية الدينية.

أعاد عبد الرحمن تنظيم البلاد وأخضع أنصار العباسيين المتمردين وحاول أن يدمج – في شعب واحد – العناصر المختلفة العرقية والدينية والثقافية التي تشكل مجتمع الأندلس الذي يتكون من العرب، والشوام، البربر، المولدين أو المسيحيين الذين أسلموا والمستعربين أو المسيحيين الذين حافظوا على معتقداتهم، واليهود.

كان ضعف خليفته هشام الأول (٧٨٨ – ٧٩٦م) السبب في السيطرة المفرطة لعلماء الدين المسلمين في حكم الإمارة، ومضت فترة حكم الحكم الأول (٧٩٦ – ٨٢٢م) – خليفة هشام – تميزها الثورات الداخلية المستمرة، فعلاوة على الصراع الدائر في الأسرة الحاكمة الذي واجهه الحكم الأول ضد أعمامه المنعزلين عن الخلافة، حدثت صراعات المناطق الحدودية مثل العُدوة العليا التي تتبع سرقسطة، والعُدوة الوسطى التابعة لطليطلة، والدنيا في ماردة. وكانت أقاليم ذات تنوع عرقي سيطرت عليها قرطبة بصعوبات كثيرة.

في الداخل، كان عليه أن يقاتل بشدة الجماعات المنشقة، خاصةً ثورات المولدين الذين قادوا تمردًا في طليطلة عام ٧٩٧م، وأنهته الأعمال القمعية في حملة يوم الخندق التي تم القضاء فيها على العناصر الأكثر نفوذًا في المدينة.

أشعل الوضع الداخلي الخطير الذي كانت تعيشه قرطبة تمردًا عنيفًا ضد الأمير في ضاحية الربض القرطبية التي تقع بين قرية شقوندا ونهر الوادي الكبير يوم ٢٤ مارس عام ٨١٨م. ومن أسباب التمرد، كان الحقد المتراكم ضد الحكم الأول الذي أثاره الفقهاء بسبب تأثيرهم الضئيل في سياسة الأمير، فأثاروا سخط الشعب بسبب نظام الضرائب غير المعقولة (المغارم) التي يجب أن يجبيها مسيحي هو القمص Rabi، قائد الكتيبة المسيحية في القصر والذي فجر هذا الوضع.

لقد قُمع التمرد بشدة، وصُلب ٣٠٠ من الوجهاء من الناجين، وكان على باقي سكان الضاحية مغادرة قرطبة، حيث دُمرت منازلهم والأرض التي كانوا يشتغلون باستصلاحها وزراعتها.

في ٢٥ مايو عام ٨٢٢م مات الأمير الحكم الأول في قرطبة بعد فترة حكم امتدت ٢٦ عامًا، وخلفه على العرش عبد الرحمن الثاني. حاول الأمير الجديد عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ – ٨٥٢م) إعادة تنظيم الأندلس حسب النماذج الشرقية للإدارة المركزية، بحيث أصبح عهده يتميز باقتصاد مزدهر انعكس في الإنشاءات العامة والازدهار الثقافي.

ومع ذلك، عاد عدم الاستقرار السياسي للظهور، على الرغم من كل شيء، فثارت مدينة ماردة عدة مرات في سنوات قليلة بمساندة الإمبراطور الفرنسي Ludovico Pió ضد سلطة أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني. لقد تمردت تلك المدينة متعللة بقسوة ضباط الوالي في جمع ضرائب الزكاة أو العُشر، وتجمع مستاءو المدينة تحت قيادة محمد بن عبد الخبير.

حضر عبد الرحمن الثاني إلى ماردة مع القوات التي كان من المقرر أن تقاتل في أقطانية ضد الفرنسيين، وبعدما نزل بماردة، أدى كل من الفقر بسبب القتال وحالة الفوضى الداخلية للمحاصرين إلى أن تفتح المدينة أبوابها وتستسلم عام ٨٣٥م.

منح عبد الرحمن عفوًا عامًّا، وأسرع لإنهاء أعمال القلعة التي بدأت في عام ٨٢٨م. شيد هذا البناء – بمساحة أكثر من ٨٠٠٠م٢ – بآلة قوية لرفع الحجر مستغلين في ذلك بناءً قديمًا للقوط.

بعد سنوات قليلة، في عام ٨٣١م تم تأسيس مدينة مُرسية لتحل محل مدينة Eio القديمة. كانت نية عبد الرحمن عند إقامة أساس مدينة مُرسية هي تشييد حصن قادر على أن يسمح له بأن يسيطر على المعارك التي تحدث في المنطقة بين أعضاء الجماعتين اليمنية والمضرية. أحلت مُرسية محل أوريهويلة كعاصمة لكورة تدمير التي بُنيت في عهد القوط.

فيما يتعلق بالخارج، استقبل عبد الرحمن الثاني سفارة بيزنطية الذين أرسلهم الإمبراطور Teófilo، وعلى رأسهم السفير اليوناني قرطيوس الذي وصل قرطبة عام ٨٣٩م بهدف إقامة معاهدة تعاون.

من جانب آخر، كان عليه صد الغارة الفيكنجية التي جاءت من جليقية لسلب السواحل الأطلنطية لشبه الجزيرة الأيبيرية؛ حيث ركبوا نهر الوادي الكبير وبعدما خربوا قورية دل ريو هبط الفيكنج على أشبيلية في الثالث من أكتوبر عام ٨٤٤م، وكان قد هجرها معظم سكانها حيث هربوا نحو قرمونة وجبال إشبيلية.

نهب الفيكنج المدينة خلال أسبوع دون أن يجدوا أي مقاومة؛ وبعد أعمال السلب والنهب التي خضعت لها إشبيلية أمر الأمير عبد الرحمن الثاني في العام التالي بحماية المدينة بأسوار قوية. وقد حلت هذه الأسوار العربية محل الرومانية التي اختفت سابقًا؛ بُنيت بالحجارة وتوافق تصميمها مع الشكل المتعرج الذي يرسمه نهر الوادي الكبير؛ أكثر من خمسة أبواب تربط السور المحيط بالخارج: باب ماكارينة، وباب قرطبة، وباب قرمونة، والباب الملكي، وباب شريش، إضافة إلى أبواب أخرى أقل أهمية.

عادت حالة عدم الاستقرار السياسي للظهور مرورًا بفترة فوضى وقلق بـدأ خلالها السكان المسيحيون المندمجون قليلاً مع الفاتحين رد فعل أثر بشكل خطيـر على بقاء الإمارة.

خلال الفتح تحول عدد من المسيحيين إلى الإسلام بهـدف الحفـاظ علـى وضعهم المتميز والفرار من الضرائب ولتحسين وضعهم الاقتصادي، هـؤلاء هـم المولدون الذين أصبحوا سريعًا أغلبية في الأندلس، بالقدر الذي زاد مـن اسـتيائهم لوضعهم الدوني مقارنةً بالأسر ذات الأصل الشرقي.

كان على الأمير محمد الأول (٨٥٢ – ٨٨٦م) أن يواجه ثورات المولـدين المتعددة. تزعم المولد عبد الرحمن بن مروان إحداها في ماردة عام ٨٦٨م، ولكـن الأكثر أهمية كانت الثورة التي اشتعلت في عـام ٨٧٩م فـي المنـاطق الجبليـة بالأندلس، وقادها عمر بن حفصون الذي وُلِد في كنف عائلة ميسورة في رندة.

إن قصة ثورة عمر تبدأ بمقتل جار خلال مشاجرة مما جعلـه يختبـئ فـي الجبال التي تسيطر على نهر الوادي الكبير ومنطقة رندة الجبلية. كـون عـصابة لنهب قرى سهل كامبيو وقرطبة، مستغلاً حالة الفوضى العامة التي تعيشها قرطبة.

في فترة حكم الأمير الأموي السابع عبـد الله (٨٨٦(*) – ٩١٢م) تـم فـتح جزيرة مايورقة وباقي الجزر الشرقية (البليار) في عام ٩٠٣م.

لقد بدأ فتح مايورقة بمصادفة بسيطة حيث توجهت قوات الفاتحين إلى الأمـاكن المقدسة بمكة والمدينة، ولكن أجبرتهم عاصفة على البحث عن ملجأ في مـا يورقـة، حيث تنبهوا إلى سهولة فتحها عند عودتهم من الشرق، أقنع قائد القوات المسلمة الفاتحة – الخولاني – الأمير بإمكانية تطبيق الخطة وتم تعيين عصام الخولاني حاكمًـا علـى الجزيرة حيث تولى هذا المنصب لمدة عشر سنوات حتى موته.

(*) الأمير السادس المنذر (٨٨٦ – ٨٨٨م)، وخلفه عبد الله (٨٨٨ – ٩١٢م). (المترجمة)

في ذلك الوقت قام الملك ألفونسو الثالث – مستغلاً ضعف المسلمين في مملكة أشتورية– ليون الصغيرة – بتحقيق أول توسع والذي حمله حتى ضفاف الدويرة، لكن أوقفه الأمير الجديد.

وضع عبد الرحمن الثالث (٩١٢ – ٩٦١م) نهاية للاضطرابات التي حدثت في الحكومات السابقة حيث رد المولدين المنشقين عن طاعته (أسقط عمر ابن حفصون عام ٩١٦م) وأسكن فتن دويلاته وأكد سلطته بإعلان الخلافة عام ٩٢٩م.

خلال عام ٩٢٧م، تفرغ الأمير عبد الرحمن الثالث – الذي كان قد قمع تمرد بيشستر بشكل نهائي– ليلعب دورًا في شمال إفريقيا وأمر باحتلال مليلة وبدأ في تدعيم النظام الدفاعي لتلك المدينة البحرية. استغل الأمير الفرصة المثلى التي أتاحتها له الصراعات الداخلية التي دمرت شمال إفريقيا ليقوم بهذا التدخل الأول الذي كان يضمره فيما يتعلق بالمغرب.

في النواحي الداخلية، ظهر كحاكم عظيم: فعبد الرحمن الثالث هو أول أمير إسباني نظم سك العملة الرسمي، حيث أنشأ "دار السكة" بالقرب من الجامع الأكبر عام ٩٢٨م، والتي كانت تسك العملة فيها من الفضة (دينار) ولاحقًا عملات ذهبية (دراهم) من المعدن الرقيق دون أي نوع من الخلط.

قاد عبد الرحمن الثالث حملة مسلمة متجهة من مدينة سالم ووصلت إلى قلعة سان استيبان أو قلعة قاشترومورروش. حاصرت قوات قرطبة قلعة سان استيبان، أحد الحصون الرئيسية على الحدود القشتالية، وعندما أوشكت المدينة على الاستسلام، وصل الملك الأشتور ليوني أردونيو الثاني بتعزيزات فنشبت الحرب الشرسة التي انتهت بانتصار مسيحي في ٤ سبتمبر عام ٩١٧م مخلفة الجثث منتشرة في الحقول الواقعة بين نهر الدويرة وأراضي أتيِنثا. ومات في الحرب الجنرال أحمد(*) الذي عُلقت جثته برأس خنزير بري على سور سان استيبان.

(*) أحمد بن أبى عبدة. (المترجمة)

أمام نداء الاستغاثة من مسلمي تطيلة الذين طاردتهم قوات سانشو الأول ملك نافارة، توجه عبد الرحمن سريعًا ليمد لهم يد العون. انتظر ملك نافارة القوات المسلمة في حصن أرنيط ولكنهم توجهوا نحو بانبلونة(*). آنذاك شنت قوات نافارة المجتمعة مع قوات أردونيو الثاني - ملك أشتورية ليون - حربًا على قوات الأمير في وادي خونكيرة بين مويث وساليناس دي أورو على بعد ٢٥ كم من بنبلونة، ومُنوا بهزيمة شديدة سميت وادي خونكيرة في يوم ٢٦ يوليو عام ٩٢٠م. حمل الأمير معه العديد من الأسرى إلى قرطبة، ومن بينهم أسقفي دولثيو وأرمخيو(**).

كرد على الهزيمة التي عانت منها الجيوش المسيحية في معركة وادي خونكيرة على يد عبد الرحمن الثالث، استولى الملك الليوني أردونيو الثاني على ناجرة ومناطق أخرى في الريوخا، واحتل ملك نافارة سانشو الأول حصن بقيرة، وقد رد عبد الرحمن الثالث على هذا الفعل في نفس عام ٩٢٤م بالاحتلال والتدمير الجزئي لبنبلونة.

٢- الأندلس: خلافة قرطبة

أعلن عبد الرحمن الثالث خلافة قرطبة في السادس عشر من يناير عام ٩٢٩م واتخذ لقب خليفة أو "أمير المؤمنين" وبذلك قطع كل الصلات التي كانت ما زالت تربطه ببغداد. كانت هذه اللحظة تتويجًا لمنهج حكمه، فقد جمع في شخصه السلطة العليا السياسية والدينية حيث تجاوزت شهرته آفاق الأندلس وتمكن من أن تعترف شمال إفريقيا بسيادته، وكذلك اعترفت ممالك المسيحيين بحمايته، كما فرض ضرائب على ليون ونافارة وقشتالة وبرشلونة.

تحولت قرطبة إلى مركز هذه الإمبراطورية وعقلها، وحازت إعجاب كل الممالك الغربية وتنافست في ثرائها الثقافي والفني مع ثراء الشرق في بغداد.

(*) عاصمة نافارة. (المترجمة)
(**) دولثيو أسقف سلمنكة، أرمخيو أسقف توى. (المترجمة)

رسا أسطول أموي بأمر عبد الرحمن الثالث في سبتة في الخامس والعشرين من مارس عام ٩٣١م، واحتل المدينة دون أن يعارض أهلها الدخول الأجنبي، وحسن وضعها المهيمن على التحكم في المضيق. وكذلك دخل عبد الرحمن الثالث طليطلة في الثاني من أغسطس عام ٩٣٢م بعد حصار عنيف.

كانت مدينة التاجة في أيدي ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث الذي كان يرغب في الاستقلال عن قرطبة. أمر عبد الرحمن بتحويل المعسكر إلى مجموعة من المباني والتي دشنها باسم "مدينة النصر"، وذلك كي يفهم الطليطليون أنه على استعداد لأن يمد الحصار إذا احتاج. بعدما دخل طليطلة نظم عملية الاحتلال الدائم للنقاط الإستراتيجية للإقليم من خلال تحويلها إلى حاميات قوية.

بين الأعمال الفنية والثقافية في فترة حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث يجب أن نذكر بناء مدينة وقصر الزهراء والذي بدأ في ١٩ نوفمبر عام ٩٣٦م فوق سفح يسمى "جبل العروس" شمال غرب قرطبة.

كان بلاط الخليفة مُحتشدًا حتى ذلك الوقت في قصر قرطبة، الموجود في المنطقة الحضرية الأكثر ازدحامًا، والتي على الرغم من المباني الكثيرة التي توسعت بها، كانت ضيقة جدًا لملك يحب أماكن الإقامة التي توجد منفصلة عن المدينة.

لقد استغرق بناء مدينة الزهراء(*) أربعين عامًا، بحيث كانت في هذا العهد مدينة قرطبة واحدة من أكبر المراكز الحضرية في العالم.

حوالي عام ٩٥٠م بدأت في العمل مدرسة المترجمين من اليونانية والعبرية إلى العربية.

(*) استخدمها قاعدة للخلافة لمدة أربعين عاما، واستغرق بناؤها اثنتي عشرة سنة. (المترجمة)

كان الراهب البيزنطي نيكولاس والطبيب اليهودي هاسداي بن شبروت هما اللذان افتتحا واحدة من مصادر النهضة الثقافية للغرب، لأنه بفضل أعمالهما تم معرفة أعمال أرسطو وبطليموس من بين الكثير من الأعمال الأخرى.

في السادس عشر من أكتوبر عام ٩٦١م، في اليوم التالي لموت عبد الرحمن الثالث، تولى عرش خلافة قرطبة ابنه الحكم الثاني الذي سيحكم من ٩٦١م حتى ٩٧٦م، وعلى الفور أمر بإرسال رسائل إلى المقاطعات ليعلمهم برفعة شأنه ويطلب من الشعب أن يبايعه. أخذ البيعة من أخويه في ردهات مدينة الزهراء، وكانت فترة حكم الحكم الثاني فترة ملك مسالم ومحب للسلطة، وتميزت بتطور ثقافي كبير شجَّعه الخليفة بنفسه.

كانت له المبادرة في محاولة تقديم قرطبة عاصمةً جديدةً للإسلام، مزيحًا في هذه الناحية بغداد؛ فوسع الحكم الثاني جامع قرطبة عام ٩٦١م، ومد الأحد عشر جناحًا الموجودين، وهدم الجدار الداخلي وبنى جدارًا آخر جديدًا مغيرًا بهذا الشكل موضع المحراب. في الوقت ذاته، غير مكان المقصورة، فأصبحت بذلك الجزء الأكثر فخامة من الجامع، وهي مزينة بالمرمر النفيس والفسيفساء البيزنطي المطعم بالذهب. ظلت الأفنية محاطة بغابة من الأقواس ذات الفصوص التي تتقاطع مع بعضها وتتراكب فوق بعضها بعضًا تم حل مشكلة تغطية مثل هذه المساحة الواسعة عن طريق أسقف ذات منحدرين لكل واحد من الأجنحة تحتمل قنوات مياه الأمطار في أقواس تقسيمية.

حمله شغفه بالآداب والعلوم والفنون على أن يستثمر جزءًا كبيرًا من خزانة الدولة لتحسين المستوى الثقافي للأندلسيين، وهو الذي حول قرطبة إلى مهد المعرفة الغربية. كانت مكتبة المسجد الثرية مشهورة، وهي تحوي أكثر من ٤٠٠ ألف مجلد(*).

(*) وقيل أيضا ٦٠٠ ألف مجلد. (المترجمة)

في أول أكتوبر(*) عام ٩٧٦م توفي الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله ابن الخليفة عبد الرحمن الثالث في قرطبة عن عمر يناهز ٦١ عامًا. كانت فترة حكمه واحدة من أكثر الفترات سلمًا وإنتاجًا في التاريخ الأموي.

خلفه ابنه هشام الثاني (٩٧٦ – ١٠٠٨م) ذو الأحد عشر عامًا، ولهذا ساعده مجلس وصاية وبرز فيه أبو محمد بن أبي عامر، الذي عُرِف بعد ذلك بالمنصور، كقائد وعبقري عسكري.

وُلِد في الجزيرة الخضراء بالأندلس. تمتع أبو عامر بمكانة عالية بين القرطبيين عندما أقام النظام بالمدينة التي كان يزعجها الأشرار والموظفون الفاسدون وفعل الشيء نفسه في البلاط الملكي، وهكذا استطاع الخليفة بمساندة أبي عامر طرد رئيس الوزراء المصحفي وحل الأخير محله في هذا المنصب حتى أصبح لاحقًا الحاكم الحقيقي في قرطبة بفضل النجاحات التي حققها جيشه في شمال إفريقيا وضد الممالك المسيحية في شبه الجزيرة.

شغل منصب القائد العام، واجتذب مساندة الجنود الصقالبة بوعود عديدة بإشراكهم في غنائم الحرب، وبعد ذلك الجنود المرتزقة بحيث شكَّل بذلك جهازًا حقيقيًا للحراسة الشخصية، وبذلك تحول الجيش في عام ٩٨٠م إلى العماد الحقيقي الذي تستند عليه قوة المنصور.

حصل على لقب "المنصور بالله" في منتصف عام ٩٨١م بعد انتصاره على التمرد الذي قاده حموه، الجنرال غالب وحلفاؤه المسيحيون. علاوة على اللقب، اتخذ المنصور قواعد تشريفات ملكية في استقبالاته، فارضًا في البروتوكول تقبيل يده كما لو كان الخليفة نفسه.

(*) تذكر كتب التاريخ وفاة الحكم الثانى فى يوم ٣٠ سبتمبر عام ٩٧٦م. (المترجمة)

أسس مدينة الزاهرة التي أمر ببنائها على شاكلة الزهراء، وكانت كل شئون الحكم تُقضى هناك آخذًا محل الخليفة نفسه. وفيما يتعلق "بالحرب المقدسة" – السبب الأول لدوي انتصاراته – ضد الدويلات المسيحية المختلفة في شبه الجزيرة فقد حملته على القيام بغارات بصفة دورية ضد قشتالة (٩٨١م) وبرشلونة (٩٨٥م) وليون (٩٨٨م) وسانتياجو دي كومبوستيلا التي نُهبت عام ٩٩٧م.

إن حملة المنصور عبر أراضي راميرو الثالث القشتالية – ضد زمورة – كانت تعد فشلاً مبدئيًا، إذ لم يستطع أن ينتصر على مقاومة أسوار المدينة القوية ولكن في المقابل فتح Taracueña الواقعة على سواحل Caracena التي تعد الحماية الطبيعية للطرق بين أتيِنثا وحصون وادي الدويرة، وبعد سنوات استولى المنصور على برشلونة قاطعًا العلاقات الطيبة القائمة على الضرائب بين الكونت باريل الثاني والخليفة القرطبي. بعد شهر من الغارات في كل الولاية، استولى الجيش المسلم على مدينة برشلونة في ٧ يوليو(*) عام ٩٨٥م وحمل معه عند عودته إلى قرطبة غنائم كثيرةً والعديد من الأسرى.

في عام ٩٨٢م وجد المنصور دوافع للهجوم على ليون من جديد حيث طرد بيرمودا الثاني حاكم ليون من مملكته القوات المسلمة التي أرسلها المنصور لتثبيته على العرش؛ وانتقامًا منه قام المنصور بتشكيل جيشٍ عَبَر أراضي دويرة ونَهَب الأراضي والمباني الليونية بما في ذلك دير سان بيدرو دي أرلانزا، لينتهي الأمر بأن يدمر مدينة ليون نفسها في عام ٩٨٨م بغيظ شديد بعد ما قتل حاكم المدينة الكونت الجليقي جونثالثو كونثالث.

إن العار الأكبر الذي أنزله المنصور بالممالك المسيحية هو النهب الذي قام به عام ٩٧٧م ضد سانتياجو دي كومبوستيلا، مثيرًا الرعب والاضطراب في العالم المسيحي، الذي رأى في هذه الأعمال علامات حلول المسيح في الألفية القادمة.

(*) تذكر كتب التاريخ الاستيلاء على برشلونة يوم ٦ يوليو عام ٩٨٥م. (المترجمة)

كان السبب الذي أدى لهذه الحملة هو نقض بيرمودو الثاني - حاكم ليون - للاتفاقيات المبرمة مع قرطبة. وفي ١٠ أغسطس من العام نفسه دخل المنصور سانتياجو حيث قامت قواته – صعبة المراس – بأعمال الدمار في المدينة، ولكنها احترمت قبر سانتياجو وحارسه ربما لسمته كشخص رحيم.

تحكي قصص ذلك العصر أنه عندما وصلت قوات المنصور إلى سانتياجو دي كومبوستيلا كان لديه فضول ليتعرف على المعبد المسيحي الشهير، ووجد في المعبد راهبًا واحدًا مُسِنًا ومريضًا، ثبت بلا خوف أمام قبر القديس، وسأله المنصور: ماذا تفعل هناك؟، فأجابه الراهب: أصلي لسانتياجو. حينذاك أمر المنصور أن يعالجوه ويتركوه يصلي هناك كيفما شاء، ووضع حراسة دائمة لحماية المُسِن والقبر، ولهذا وجده المسيحيون سليمًا عندما عادوا. عند وصوله منتصرًا إلى قرطبة حمل معه أجراس الكاتدرائية ومصاريع أبواب المدينة كرمز لانتصاره على المسيحيين.

بقي بالنسبة للحاجب القرطبي المنصور إخضاع الولايات القشتالية، ومن أجل ذلك في حملة عام ١٠٠٠م، خلال شهر يوليو أو سبتمبر، واجه حامية من القوات القشتالية، وقوات ليون ونافارة والتي كان يقودها الكونت القشتالي سانشو جارثيا.

إن المعلومات المتاحة عما إذا كانت هذه المعركة حدثت ومكانها ونتيجتها تطابق الأساطير أكثر من مطابقتها الحقيقة الموثقة حتى يمكن أن يكون قد حدثت مواجهتان: إحداهما في هذا التاريخ في صخرة جربيرة على بعد ١٥ كم من شمال قلونية، والثانية في قلعة النسور.

في منتصف حملة تدمير الأراضي القشتالية في شهر يونيو عام ١٠٠٢م، نهب المنصور دير سان ميان دي لاكوجويا – المركز الروحي لقشتالة ونافارة.

لاحقًا، شعر بالمرض ووصل إلى مدينة سالم حيث ساءت حالته، ووافته المنية فجر يوم ١١ من أغسطس عام ١٠٠٢م، ودُفن – حسبما أشار – في صحن قصر هذه المدينة ونُقش على قبره بيتان من الشعر بسيطان دُوِّنا ليُذكرا بمجده بوصفه مدافعًا عن العقيدة الإسلامية.

واصل عبد الملك ابن المنصور ووريثه – كحاجب للخليفة – حملات العقاب ضد إسبانيا المسيحية. خلال عام ١٠٠٣م شن حربًا على كونت برشلونة رامون بوريل لهجماته ضد مدينة لاردة، مدمرًا بلدات إيغوالادة ومانريسة. وفي عام ١٠٠٧م، قاتل كونت قشتالة واستولى على قلونية وقلعة سان مارتين بعد تدميرهما وقتل الحامية المستسلمة. في نهاية الحملة على قشتالة، انسحب القائد الأندلسي عبد الملك مريضًا إلى قرطبة ومات في ٢٠ أكتوبر ١٠٠٨م(*)؛ خلفه أخوه غير الكفء عبد الرحمن سانشويلو حفيد سانشو الثاني ملك نافارة.

على الرغم من جهود أبنائه العامريين للحفاظ على السلطة والوحدة، دخلت الخلافة في عملية تفكك كانت بداية تدهورها.

ففي عام ١٠٠٩م بعد تعيين محمد الثاني خليفة والإيحاء بموت هشام الثاني اندلعت في كل أراضي الأندلس حرب أهلية والتي تواجهت فيها ثلاثة أحزاب كانت تسيطر على المشهد السياسي: البربر الذين يؤيدون بقايا الأسرة العامرية، والعرب على رأسهم الخليفة محمد الثاني، والصقالبة الذين انتشروا في لقنت وجنوب المرتفعات السهلية .

ولكي يدعم المغتصب محمد الثاني وضعه كخليفة أظهر للشعب جثة غير حقيقية لقريبه الخليفة هشام الثاني الذي بقي محبوسًا في أحد الأبراج سرًا. نادت الأسرة الأموية تدعمها القوات البربرية، بمرشح آخر لكنه أُغتيل وأعلن البربر خروجهم على القانون.

(*) مات عبد الملك فى ٢١ أكتوبر عام ١٠٠٨م. (المترجمة)

تسببت هذه الأحداث في أن الشعب القرطبي – تحت قيادة الصقالبة والعرب – أثاره الانتصار على الأسرة العامرية، وأحرق ونهب قصر مدينة الزاهرة مقر المنصور وخلفائه بقرطبة. في هذا الشغب، اغتيل مغتصب الخلافة بعدها بقليل، وعاد الخليفة الشرعي هشام الثاني للعرش. وخلال اشتباكات الحرب الأهلية دخلت قوات كاتالانية متحدة مع مسلمي طليطلة إلى مدينة قرطبة حيث نهبوا العاصمة ومدينة الزهراء.

بعد سنوات قليلة في عام ١٠١٣م، دمر البربر مدينة قرطبة من جديد، حيث نالوا منها عندما اقتحموها ونهبوها واختفى هشام الثانى في هذا الشغب، قُتِل بالتأكيد.

قام الخليفة الجديد سليمان بتوزيع أراضي الحكم الذاتي على الجماعات المختلفة وبذلك بدأت عملية تقسيم الأندلس إلى دويلات صغيرة أو طوائف: عُيِّن العامري المعتوق ذو الأصل الصقلبي خيران ملكًا في مدينة ألمرية، وبدأ حكمًا مستقلاً عن الخلافة؛ وفي غرناطة شق البربري زاوي بن زيري – حاكم مقاطعة البيرة – عصا الطاعة على الخليفة وكون حكومة مستقلة.

بهذه الثورات بدأت فترة طويلة من عدم الأمان والفوضى وصلت إلى ذروتها بزوال الخلافة عام ١٠٣١م عندما أُقيمت في قرطبة حكومة تديرها الشخصيات البارزة في المدينة، والذين اقتصر عملهم على المنطقة الحضرية والإقليم المجاور.

بدءًا من عام ١٠١٠م اهتم كل قائد عسكري بتثبيت سلطته في الإقليم المجاور فحسب، حتى بدأوا في تشكيل ممالك الطوائف الأولى وفيها كان كل قائد يتصرف منفكًا عن باقي المسلمين.

برزت داخل هذا التقسيم ثلاث جماعات حسب الأصل العرقي لقادتها: طوائف العرب أو الأندلسيون (إشبيلية، قرطبة، طليطلة، بطليوس، سرقسطة)، والصقالبة الواقعة في منطقة البحر المتوسط (طرطوشة، بلنسية، شاطبة، مُرسية)، والبربر (غرناطة، ملقة).

بالتأكيد كانت هناك منافسة بين العرب والبربر وقطبيها هما مملكة إشبيلية الأندلسية ومملكة غرناطة البربرية، ولكن أيضًا كانت المعارك معتادة بين المسلمين من نفس العرق؛ وقد استغل المسيحيون انقساماتهم وطلبهم المستمر للمساعدة منهم، فكانوا في البداية يقتصرون على جعلهم يدفعون مقابل التعاون ثم انتهوا إلى إلزامهم بدفع جباية ليس لمساعدة المسلمين ضد أعدائهم لكن لكي لا يهاجموا حلفاءهم المسلمين أنفسهم.

كانت الآلية بسيطة وفعالة: يشترط الملك أو الكونت المسيحي الذي تُطلب مساعدته مبلغًا مقابل تعاونه، وعند حدوث الانتصار يجبر المهزومين على دفع جباية، وكذلك المنتصرين الذين لا يجهلون إمكانية أن يساند الحليف المسيحي المهزومين إذا لم يرضوا متطلباته الاقتصادية.

كان يمكن مواجهة التهديد المسيحي بطلب مساعدة المرابطين ولكن ذلك لم يهم ممالك الطوائف الذين رأوا في المساعدين الجُدد (المرابطين) منافسين خطرين يفوقونهم في القوة العسكرية، كما أنهم كمدافعين غيورين على الاستقامة كانوا يعتمدون على دعم الفقهاء والمؤمنين الذين يعتبرون تصرفات ملوك الأندلس وحياتهم ونظامهم لا تناسب المسلم.

فقط عندما احتل ألفونسو السادس – ملك قشتالة وليون – مدينة طليطلة في عام ١٠٨٥م، وعرض بقاء ممالك الطوائف للخطر، قرر زعماؤهم أن يطلبوا تدخل المرابطين الذي سيفيد في ردع المسيحيين وفي الوقت نفسه يعطي الفرصة

لإعادة توحيد الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة ولتحويلها إلى مقاطعة في إمبراطورية شمال إفريقيا.

٣- الأندلس: ممالك الطوائف

بحدوث هذا الفراغ في السلطة بقرطبة ولحالة الفوضى هذه، حذا حكام آخرون حذو ألمرية وغرناطة معجلين بتفكك الخلافة القرطبية فيما يسمى "بممالك الطوائف الأولى" المقسمة بين العرقيات المختلفة: الصقالبة والعرب والبربر.

في عام ١٠١٦م، أعلن اثنان من الصقالبة – ذوا ولاء للعامريين – وهما مبارك ومظفر الاستقلال عن سلطة خلافة الحموديين في مدينة بلنسية وكل أقاليمها. كانت أول مملكة تشكلت من الصقالبة وانضمت إليها على الفور دانية والجزر الشرقية (البليار) تحت قيادة الحاكم الصقلبي للمدينة مجاهد والذي عُين ملكًا مستقلاً.

في الطرف الآخر من شبه الجزيرة، وفي نفس العام تكونت مملكة بطليوس بفعل المعتوق الصقلبي صبور– عبد قديم للحكم الثاني – وعندما استقل عن قرطبة سيطر بحُرية على جزء كبير من لوسيتانيا القديمة، التي تضم مدينة ماردة المهمة.

إن ممالك الطوائف الرئيسية التي تشكل جزءًا من الأندلس والتي يُشار بها إلى الإقليم المسلم في شبه الجزيرة الأيبيرية، والتي قسم العرب فيها الأندلس – أو بالمعنى الصحيح هي التي ستكون أندلوثيا الحالية – هي أكثر المناطق المجاورة لبطليوس ومُرسية والمدينة الملكية والثغور والمناطق الحدودية لسرقسطة وطليطلة وماردة التي تضم باقي الأقاليم.

إن ممالك الطوائف الرئيسية حسب الترتيب الهجائي (اللاتيني) هي:

شنتمرية بن رزين (ترويل) Albarracin (Teruel)

مملكة صغيرة من البربر المستعربين من أصول بني رزين. من ١٠١٣م حتى ١١٠٤م والذين غزاهم المرابطون.

الجزيرة الخضراء (قادش) Algeciras (Cádiz)

مدينة بني حمود، وهي أسرة عربية يرجع نسبها للنبي صلى الله عليه وسلم، مرتبطة بشدة بالمغرب، وحكموا أيضًا في ملقة ورندة وسبتة وطنجة حتى ١٠٤٨م تقريبًا.

استقل بالمدينة فرع من الأسرة ممثلاً في شخص الأمير محمد حتى غزتها إشبيلية عام ١٠٥٥م.

ألمرية Almería

سيطر الصقلبي خيران – العبد الصقلبي السابق والبارز في القصر – نحو عام ١٠١٤م على ميناء ألمرية الهام وساحته. وبعد موته في ١٠٢٨م خلفه صقلبي آخر هو زهير.

في عام ١٠٣٨م خضعت لملك بلنسية عبد العزيز – حفيد المنصور – الذي أرسل الوالي مَعن حاكمًا، فاستقل بدوره وأصبح على رأس أسرة ستمتد بابنه وحفيده حتى عام ١٠٩١م عندما قضى المرابطون المندفعون الأفارقة – الذين غزوا شبه الجزيرة – على الاستقلال المبدئي لهذه المملكة.

ألباونتي (ترويل) Al Puente (Teruel)

مملكة ألباونتي الصغيرة أو السهلة هي مثل شنتمرية ابن رزين، تعد مقرًا قديمًا للبربر. أصبح بنو القاسم ملوكًا منذ ١٠٠٩م حتى ١١٠٤م.

أركوش (قادش) Arcos (Cádiz)

وصل بربر زناتة المنتمون لعشيرة جزرون لهذه الأرض تقريبًا قبل ٢٠ سنة، واستولوا على هذه المدينة نحو عام ١٠١١م، وتعاقب فيها ثلاثة ملوك على مقاطعات أركوش وشريش وقادش وجندة حتى ضمتها إليها جارتها القوية إشبيلية نحو عام ١٠٦٩م.

بطليوس Badajoz

كانت واحدة من أوائل الممالك التي لم تعترف بخليفة قرطبة لأنه منذ بدايات القرن حكم الصقلبي صبور بشكل مستقل مملكة متسعة تضم لشبونة ومساردة التي خضعت لبني الأفطس في المنطقة بعد موته.

جلس هؤلاء البربر المستعربون على العرش وكان عليهم دفع جباية للملك فرناندو الأول ملك قشتالة عام ١٠٥٧م والذي كان يهدد مملكتهم.

في النهاية تم القضاء عليهم على يد المرابطين عام ١٠٩٤م وهرب آخر بني الأفطس إلى قشتالة.

الجزر الشرقية (البليار) Baleares

احتل صقلبي آخر وهو مجاهد ملك دانية الجزر الشرقية (البليار) في عام ١٠١٤م. وبسقوط هذه المدينة في يد سرقسطة أُعلِن استقلالها.

في عام ١١١٤م، عندما هاجمها المسيحيون استنجدوا بالمرابطين الذين ضموها لإمبراطوريتهم عام ١١١٦م.

قرمونة (إشبيلية) Carmona (Sevilla)

إلى جانب مورون وأركوش ونيبلة ورندة تشكل قوس من الممالك الصغيرة التي تسير بمحاذاة إشبيلية القوية. حكمها البربر البيزاليون Bizalies من زناتة وعُرف بينهم أربعة أمراءٍ ذوو سيادة حتى غزتها إشبيلية عام ١٠٦٧م.

قرطبة Córdoba

كمقر للخلافة كانت آخر مملكة في إعلان استقلالها جمهوريةً عام ١٠٣١م. يحكمها بنو جهور – وهم أسرة عربية استقرت هناك منذ ثلاثة قرونٍ – حيث تعاقب الأب والابن والحفيد في الحكم حتى غزاها الإشبيليون عام ١٠٧٠م.

بين عامي ١٠٧٥م و ١٠٧٨م وقعت في يد مملكة طليطلة، وبعدما استعادتها إشبيلية وأخذها المرابطون عام ١٠٩١م.

دانية (لقنت) Denia (Alicante)

في عام ١٠١٥م حكم صقلبي هذه الأراضي الشرقية وخلفه ابنه الذي تم خلعه على يد ملك سرقسطة في عام ١٠٧٦م.

غرناطة Granada

عرفت باسم البيرة حتى القرن الذي أخذ فيه البربر الزيريون – من قبيلة صنهاجة – نحو عام ١٠١٣م هذه المقاطعة مكافأةً لاشتراكهم في آخر حلقات الخلافة، وكان أول أمير لهم هو زاوي بن زيري.

وخلفه حبوس (١٠٠٠م – ١٠٢٠م)، وبديس الذي غزا مملكة ملقة في عام ١٠٥٠م موسعًا دولته.

في عام ١٠٩٠م، تم خلع الملك عبد الله على يد المرابطين، وستشتهر بازدهارها عندما يؤسس محمد الأحمر مملكة بني نصر عام ١٢٤٠م.

أونبة Huelva

نحو عام ١٠١٢م أعلنت عاصمة أويلبة الحالية العربي عِز الدولة ملكًا، حيث حكم منطقة صراعات شديدة التنافس بين الممالك الصغيرة مثل نيبلة وميرتلة وشلب.

في عام ١٠٥١م، غزت إشبيلية تلك الأرض واضعةً نهاية لاستقلالها.

عاصمة بني حمود، وهم أسرة عربية نبيلة عُرفت بانتمائها الشديد للبربر.

عبر علي بن حمود، الذي شارك في حروب الخلافة الأهلية، من مكانه في المغرب إلى الأندلس، واستولى على الجزيرة الخضراء وملقة والمنكب والعاصمة قرطبة حيث أعلن نفسه خليفة عام ١٠١٦م.

خلفه أخوه القاسم خليفةً لقرطبة حتى عام ١٠٢١م، ولكنه أضاع هذه المدينة بينما أعلن ابن أخيه يحيى بن علي نفسه خليفة في ملقة. واستعاد بعد ذلك قرطبة العاصمة التي هجرها بعد سنوات قليلة لأن الاحتفاظ بها لم يثر اهتمامه لا من الناحية الاقتصادية ولا السياسية، وتفرغ فقط لمملكته ملقة حيث كان يفخر بنو حمود بلقب الخلفاء، وكانوا الوحيدين الذين فعلوا ذلك في الأندلس لأنهم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم.

وخلف يحيى الأول أخوه إدريس الأول (١٠٢٧م - ١٠٣٩م)(*) وكانت فترة حكمه فترة رخاء ودافع عن حاكم قرمونة في حربه مع إشبيلية.

بدأ تدهور الحموديين على يد ابن أخيه إدريس الثاني (١٠٣٩م- ١٠٤٦م، ١٠٥٣م - ١٠٥٥م)، حيث سلب العرش من ولي العهد محمد الأول واشتدت الحروب الداخلية.

استطاع محمد الأول أن يعلن نفسه ملكًا (١٠٤٦م- ١٠٥٣م)(**)، ولكن إدريس الثاني احتفظ بطنجة وسبتة ورندة والجزيرة الخضراء، واستقل.

حكم محمد الثاني أخو محمد الأول من ١٠٥٥م حتى ١٠٥٧م، وأصبح بذلك الابن الرابع لإدريس الأول، الذي لم يستطع مواجهة زحف الزيريين الغرناطيين الذين استغلوا الضعف لضم هذه المملكة.

(*) يحيي الأول (١٠٢٦ - ١٠٣٥م)، إدريس الأول (١٠٣٥ - ١٠٣٩م). (المترجمة)

(**) محمد الأول (١٠٤٧م-١٠٥٣م). (المترجمة)

ميرتلة (ألينتخو السفلى، البرتغال) Mertola (Bajo Alentejo, Portugal)

حكمتها أسرة ذات أصول عربية أندلسية مثل أويلبة وتبعت نفس المصير حيث غزتها إشبيلية (١٠٤٤م – ١٠٤٥م).

(وادي الحجارة) Molina de Aragón (Guadalajara)

كانت في البداية مستقلة عن طليطلة، ولموقعها الإستراتيجي بين نهري التاجُه والإيبرو أصبحت ساحة للقتال بين طليطلة وسرقسطة، على الرغم من حصولها على الاستقلال التام والذي انعكس في "ملحمة السيِّد" Cantar del Mío Cid التي تحكي كيف حكم بنو جلبون المدينة في أواخر القرن الحادي عشر.

مورون (إشبيلية) Morón (Sevilla)

كانت في سلطة الدمريين Dammaries، وهم عشيرة من قبيلة زناتة، من أصول تونسية. يُعرف بينهم ثلاثة أمراء بين عامي ١٠١٣م و ١٠٦٦م الذي غزتها فيه إشبيلية.

مُرسية Murcia

توحدت في البداية مع صقالبة ألمرية ثم بلنسية حتى عام ١٠٦٣م.

استقل بنو طاهر – ذوو الأصول العربية – حتى غزتهم إشبيلية عام ١٠٧٨م، واستمروا في ثورات مستمرة حتى غزاهم المرابطون عام ١٠٩١م(*).

نيبلة (أونبة) Niebla (Huelva)

حكم العرب اليحسوبيون هذه المدينة ذات الأسوار القوية والتي ما زالت محتفظة بها إلى الآن، تعاقب عليها ثلاثة ملوك حتى سيطرت عليها إشبيلية (١٠٥٣م – ١٠٥٤م).

(*) غزاهم المرابطون عام ١٠٩٠م. (المترجمة).

رندة (ملقة) Ronda (Málaga)

حكم البربر الجعفرانيون المدينة من ١٠١٤م حتى ١٠١٦م، ووقع أميرها الأول أبو مر أسيرًا في إشبيلية ولذلك أصبحت مطمعًا، فسيطرت عليها ملقة فترة من الزمن ولكن لاحقًا مات ملكها الثالث محاربًا الإشبيليين الذين أخذوا المدينة عام ١٠٦٥م.

سانتا ماريا الغربية (فارو، البرتغال) Santa María del Algarbe (Faro, Portugal) :

استقلت فارو على يد المولد ابن هارون من عام ١٠١٣م حتى ١٠٤١م.

خلفه ابنه الذي لم يستسلم أمام الزحف التوسعي لمملكة إشبيلية في ١٠٥١م – ١٠٥٢م.

إشبيلية Sevilla

أكبر ممالك الطوائف الغازية، حيث ضمت الممالك التي حولها باستثناء بطليوس وغرناطة وطليطلة التي كانت في حرب دائمة معها.

أسس المملكة القضاة العباديون ذوو الأصول العربية في عام ١٠٢٣م، وتعاقب عليها إسماعيل، ومحمد الذي آوى في بلاطه شخصًا كان يُقال إنه الخليفة الأموي هشام الثاني بهدف التعاون في ضم الممالك ذات الأصول العربية ضد الممالك البربرية.

حَكَم المعتضد من ١٠٤٢م حتى ١٠٦٩م، وضم ميرتلة ونيبلة وأونبة وشلب وفارو والجزيرة الخضراء ورندة ومورون وقرمونة وأركوش.

ابنه الشاعر الكبير المعتمد هو الذي غزا قرطبة ومُرسية حتى نفاه المرابطون عام ١٠٩١م للمغرب، ومات في مدينة أغمات ودُفِن في قبره هناك.

شلب (الغرب، البرتغال) Silves (Algarbe, Portugal)

برز العربي المتميز عيسى كمستقل في هذه الدويلة الصغيرة بالقرب من فارو.

لاحقًا بعدما حكم اثنان أو ثلاثة من نسله، تم خلعهم على يد الإشبيليين نحو عام ١٠٦٣م.

طليطلة Toledo

عندما كانت سلطة الخلافة تحتضر نحو عام ١٠١٠م، تخلى الطليطليون عن طاعة قرطبة في ١٠١٨م، وصل ذو النون – البربر المستعربون – إلى السلطة وكان ملكهم هو الظافر.

خلفه المأمون المشهور الذي استولى على قرطبة ولكن كان عليه دفع جباية للملك فرناندو الأول ملك قشتالة منذ عام ١٠٥٨م.

أضاع القادر قرطبة وأراضي أخرى سلبتها منه إشبيلية، وبما أنه كان عليه أن يدفع كل عام جبايات أكبر لملك قشتالة ليساعده، تمرد عليه شعبه وخلعه عام ١٠٨٠م. ثم ساعده ألفونسو السادس على استعادة العرش في ١٠٨١م، ولكن لضعف طليطلة غزاها عام ١٠٨٥م، وأقام ملك طليطلة المخلوع في بلنسية.

ويعد سقوط طليطلة ونفوذ ملك قشتالة على بلنسية السببين المحددين للقرار الذي اتخذه ملوك الطوائف بطلب المساعدة من المرابطين الأقوياء الذين غزوا المغرب كله.

نزل المرابطون في الأندلس وانتصروا على القشتاليين في الزلاقة عام ١٠٨٦م. ولكنهم سيطروا على كل ممالك الطوائف بعد ذلك.

طرطوشة (طرقونة) Tortosa (Tarragona)

مثل باقي ليبانتي، كانت مملكة صقلبية، عرفت أربعة ملوكٍ حتى غزتها مملكة سرقسطة ثم المرابطون في السنوات الأولى للقرن الثاني.

بلنسية Valencia

استقلت عن قرطبة منذ عام ١٠٠٩م، وحكمها صقلبيان هما مبارك ومظفر حتى موتهما.

لاحقا أعلن أحد أحفاد المنصور نفسه ملكًا عليها، وأعاد الأسرة العامرية من ١٠٦٥م حتى ١٠٧٥م حيث غزتهم طليطلة.

في الفترة بين ١٠٧٥م و١٠٨٦م استعاد ملك طليطلة – القادر – المدينة بمساعدة ملك قشتالة وحكمها حتى مقتله في ١٠٩٢م.

بعد حصارات شديدة دخل السيِّد بلنسية في ١٠٩٤م، ثم في عام ١١٠٢م انتزعها منه المرابطون.

سرقسطة Zaragoza

حكمتها الأسرة العربية الأندلسية التوجبيون Tuchibies، الذين حكموا المنطقة منذ سنين حتى عام ١٠٣٩م عندما أقام سليمان أسرته الحاكمة.

تعاقب عليها خمسة ملوكٍ، وفي ذلك الوقت، انفصلت عنها طوائف مقاطعات تطيلة ووشقة وقلعة أيوب ولاردة فاستغلت كل من نافارة وأراجون وقشتالة تلك الأسباب لغزو هذه الأقاليم.

٤ – الأندلس: المرابطون

إن أساس وجود المرابطين كان الدعوة إلى الإسلام بين قبائل الصحراء.

تعصبًا للفقهاء، هبوا لغزو المغرب حيث أنشأوا مدينـــة مـــراكش عاصـــمة الإمبراطورية وسيطروا على ممر مضيق جبل طارق ومدينة سبتة.

بعدما أخذ ملك قشتالة ألفونسو السادس طليطلة عام ١٠٨٥م، دعت ممالـــك الطوائف وعلى رأسها إشبيلية المرابطين لنجدتهم. حضر المرابطون بقيادة يوســـف ابن تاشفين بناء على طلب المساعدة الذي وجهه المعتمد ملك إشبيلية؛ نزلـــوا فـــي الجزيرة الخضراء في ٣٠ يونيو ١٠٨٦م، وهزموا الجيوش المسيحية في معركـــة الزلاقة.

عندما أحس ألفونسو السادس بوجود المرابطين، ركز جيشه المكـــون مـــن فرسان فرنسيين وأرجوانيين في قورية. واستدعى أيضًا حامية بلنسية بقيادة ألبـــار فانييز. حدث الاشتباك مع الجيش المسلم في ضواحي الزلاقة، على ضـــفاف نهـــر سبتون في ٢٣ أكتوبر عام ١٠٨٦م. استمرت المعركة طوال اليوم وكانت معركـــة حامية. وعلى الرغم من البطولة التي أظهرها المعتمد، فقد انهزم الأندلسيون علـــى يد طلائع ألبار فانييز المسيحية. قرر يوسف أن تكون نتيجة المعركة لصالحه، فقام بحركة مُطوقة سمحت له بمهاجمة العدو من الخلف مسببًا له الرعب بدق الطبول، فانسحب ألفونسو السادس جريحًا إلى قورية مع من نجا معه.

من هناك، خلال سنوات قليلة سيطر يوسف على مملكة غرناطـــة وملقـــة، وأعلن الحرب على إشبيلية وباقي الممالك الأندلسية بسبب عدم تقـــواهم وعـــاداتهم المناهضة للقرآن.

كان التكتيك العسكري الذي استخدمه بعد عبور المضيق وغزو طريفة هـــو أن يصعد إلى الوادي الكبير مقتربًا من مدينة إشبيلية التي أخذها المرابطون عنـــوة في ٧ ديسمبر عام ١٠٩١م، بعدما هزموا قوات ألبار فانييز التـــي أجابـــت طلـــب النجدة. قاتل المعتمد بشجاعة، وسقط أسيرًا، ثم أُرسل إلى إفريقيا حيث مات هناك.

في أثناء ذلك، استسلمت قرطبة – كجزء من الخطة – في العام نفسه أمام قوة المرابطين، ودافع عنها باستماتة المأمون ابن المعتمد ولكنه قُتل أثناء محاولته تلك.

احتل المرابطون من الجنوب كل ممالك بطليوس حيث استسلم المتوكل دون أن تصله المساعدة التي وعد بها ألفونسو السادس ملك قشتالة. وعندما توحدت كل الممالك الجنوبية وتم السيطرة عليها، قاد يوسف جيوشه نحو الممالك الشرقية، وهزم للمرة الثانية جيوش قشتالة في ٣٠ مايو ١١٠٨م بجوار بلدة أقليش في إقليم قونقة، في المعركة التي مات فيها الطفل سانشو، الابن الوحيد لألفونسو السادس ملك قشتالة مما أدى إلى إثارة صراع كبير على العرش.

احتل المرابطون في اليوم التالي بلدات أخرى مهمة في المنطقة: ويتي أوكانية وقونقة نفسها.

بالنسبة للقطاع الشمالي، هاجم الملك ألفونسو الأول ملك أراجون مناطق نفوذ المرابطين؛ وفي شتاء ١١١٨م استولى على المدوَّر وثويرا وحورية وسارينيينا وعند وصول جيش صليبي بقيادة جاستون دي فيران بدأ حصار سرقسطة. تم تعزيز جيش ألفونسو الأول ملك أراجون بقوات مسيحية أخرى، منضم إليهم الأرجوانيين والنافاريين وصليبيين فرنسيين وقشتاليين تابعين لحاكم فيثكايا – دون دييجوو لوبيث دي آرو – والكاتالونيين التابعين للكونت Pallars. استسلمت المدينة بشروط أمام الحصار المسيحي الشديد بعدما مات ابن مزدلي المدافع عنها، وقام ألفونسو بدخول مهيب للمدينة في ١٩ ديسمبر ١١١٨م.

في عام ١١٣٩م، ونتيجة للضغط الناتج عن غزو الموحدين لشمال إفريقيا، قرر الأمير المرابط يوسف بن تاشفين سحب قوات المرابطين من شبه جزيرة أيبيريا ليستطيع السيطرة على غزو تلك القبيلة الجديدة في أراضي شمال إفريقيا.

إن القضاء على قوة الممالك الأندلسية لم يستطع أن يمنع عموم السخط داخل مملكة المرابطين وأن تتأصل ببساطة الدعوة إلى مذهب أصولي صوفي يسمى "المريدون".

في ١١٤٤م، كان على ذلك المذهب الأصولي أن يُحدث ثورات فاستولى المتمردون على بعض المدن البرتغالية مثل ميرتلة حيث أعلنوا استقلالهم تحت قيادة الإمام ابن قاصي. وحدث ذلك أيضًا في مدن برتغالية أخرى مثل شلب وباجة وإيبورة التي ثارت على الرغم من أن الحركة لم تلقَ التدعيم الشعبي الكافي كي تنتشر.

أنهى الإمام ابن قاصي الأمر بالتوجه لإفريقيا كي يرجو الموحدين أن يتدخلوا في الأندلس وذلك بهدف تقوية سلطته. ودامت نجاحات المرابطين قليلاً؛ فقد ساند الملوك المسيحيون – وخاصة السيِّد – ملوك الطوائف وأرجأوا الوحدة إلى مدى بعيد.

وعند موت السيِّد كانت بلنسية هي المدينة الوحيدة المحتلة، ثم سرقسطة ولشبونة في ١١١٠م، وأفادت صلابة المرابطين في إحياء الروح الصليبية بين المسيحيين، متمثلة بشكل مباشر في ألفونسو المقاتل ملك أراجون الذي احتل سرقسطة في ١١١٨م واستطاع سلب أراضي الأندلس بعد عدة سنوات.

اختفى داخل الأندلس حسن الترحيب الذي حدث في اللحظات الأولى؛ فقد أجبر التشدد المسيحيين واليهود على الهرب من الأندلس؛ وشعر المسلمون أنفسهم بأنهم مهددون بدين متشدد للغاية، وظهرت من جديد الأثرة والاختلافات – التي ساعدت في نشأة ممالك الطوائف – عندما هاجم الموحدون حكم المرابطين في شمال إفريقيا.

بدءًا من عام ١١٤٥م، انقسمت الوحدة الإسلامية، وُجدت ممالك مستقلة في نيبلة وشنتريم وشريش وقادش وبطليوس وقرطبة وملقة وبلنسية... اعتمدت على المساندة المباشرة من ألفونسو السابع الذي اهتم بإضعاف المرابطين لإعادة إقامة نظام الجباية في ممالك الطوائف الثانية، ولاحتلال مدن ذات قيمة إستراتيجية تُؤمّن الدفاع عن طليطلة والزحف نحو الجنوب ودخول ألمرية.

بين كل تلك الممالك برزت مملكة مُرسية، التي يحكمها ابن مردنيش والمعروف أكثر بالملك الذئب، الذي حافظ على استقلال مناطق نفوذه ضد المرابطين والموحدين حتى عام ١١٧٢م.

٥- الأندلس: الموحدون

ظهرت حركة دينية جديدة في شمال إفريقيا ستنقذ المسلمين الإسبان مقابل أن يصبحوا رعايا في إمبراطورية الموحدين، التي أسسها ابن تومرت الذي يعتبر نفسه من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعارض التفسير الحرفي للنصوص الإسلامية الخاص بالمرابطين. إن إثارة المرابطين للمشكلة الدينية بالإضافة إلى المنافسات القبلية أضعف وضعهم بشكل خطير حيث تحطمت إمبراطوريتهم على يد عبد المؤمن الذي خلف ابن تومرت.

في عام ١١٤٧م سقطت مراكش – عاصمة إمبراطورية المرابطين – في يد عبد المؤمن الذي سرعان ما ستطلبه الأندلس ليس فقط للفشل الذي يعنيه – بالنسبة للإسلام – ضياع الأراضي التي سيطروا عليها، بل أيضًا للوجود الأجنبي في شبه الجزيرة.

استهدفت جماعات إيطالية من جنوة وبيزا بشكل مباشر شمال إفريقيا وكان غزوها بقصد التجارة هدفًا للإيطاليين الذين كانوا يعتمدون على ميناءى بلنسية ودانية اللذيْن تنازل عنهما الملك الذئب، وذلك لتنظيم عمليات القرصنة والهجمات ضد مناطق النفوذ في شمال إفريقيا.

عُرف الموحدون بالمحررين في إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وارتفعت مكانتهم عندما طردوا المسيحيين من ألمرية، ولكنهم لم يحققوا توحيد الأندلس حتى عام ١١٧٢م.

باختفاء الخطر الداخلي حارب السلطان الموحد يوسف المسيحيين مستغلاً - في صالحه - الخلافات بين الليونيين والقشتاليين والبرتغاليين الذين كانوا يتنازعون على السيطرة على إكستريمادورة،.ولم يترددوا في التحالف مع الموحدين لتحقيق أهدافهم.

استطاع الموحدون بهذا الشكل - متحالفين مع ليون - استعادة مدن إيبورة وترجلة وبطليوس التي كانت مهددة من قِبَل القائد البرتغالي خيرالدو سيمبابور، وتحالفوا مع البرتغاليين فطردوا ألفونسو التاسع ملك ليون من المنطقة. وهكذا حل الموحدون محل المرابطين وأسسوا إمبراطورية إسبانية إسلامية جديدة.

دعا محمد بن تومرت بربر الأطلس إلى الإسلام واستطاع أن يجعلهم يثورون بالسلاح ضد المرابطين. ونظرًا لهزيمتهم في شمال إفريقيا أولاً لم يتأخروا في الخضوع للأمير عبد المؤمن في إسبانيا.

أرسل الموحدون في عام ١١٤٦م فرقة عسكرية إلى شبه الجزيرة بقيادة بارّاث الذي نزل في طريفة، واستولوا على المدينة نفسها وعلى الجزيرة الخضراء وشريش وقبلوا باستسلام المريدين. لقد كان لهم هدف متعقل وهو: الحصول على رأس جسر في أراضي شبه الجزيرة سيضمن لهم العمليات المستقبلية.

في العام التالي، سقطت إشبيلية عاصمة الأندلس في يد الموحدين، وبعد عامين في ١١٤٩م استولى الموحدون على قرطبة وأعلنوا أنفسهم أصحاب الأندلس الجدد، مجبِرين المرابطين على التمركز في الجزر الشرقية (البليار).

استمرت أسرة المرابطين – بنو غانية – في حربها ضد الموحدين في مايورقة لكونها المدينة الرئيسية في السيطرة على تجارة البحر المتوسط. حاول ملوك مايورقة الذين كانوا تجارًا وقراصنة في الوقت نفسه أن يقيموا رءوس جسور في أوقات مختلفة في شمال إفريقيا وذلك لكي يسيطروا على تجارة الذهب والرقيق. لاحقًا، في عام ١١٨٥م وبمساندة قبائل البربر المعادية للموحدين، احتلوا بوشيه وكان عليهم بعد ذلك تخفيض قواتهم العسكرية.

إن تعصب الموحدين توجه ضد المعتقدات المناهضة للمغالاة الإسلامية؛ وكذلك ضد يهود ليسانة الذين عرضوهم للاضطهاد الديني فأُجبروا على التشتت في أراضي قشتالة وأراجون.

وبسبب قوتهم الحربية وبعد تجهيزات تكتيكية لعدة أشهر، انطلق الموحدون تجاه ألمرية التي سقطت قلعتها مع المدينة بأكملها عام ١١٥٧م. بعد عدة سنوات خضعت مملكة مرسية للموحدين، ومع ذلك اشتد ضغط الممالك المسيحية واستولت الجيوش الكتالانية الأراجونية بقيادة رامون برينجر الرابع وبمساندة القشتاليين والنافاريين على مدن طرطوشة ولاردة وميكننزا وفراجة وقضوا على رأس الجسر الإسلامي على الجانب الآخر من الإيبرو.

بالنسبة للمنطقة الوسطى، تركزت حرب الاسترداد القشتالية فى قونقة – المدينة التى أخذوها بعد حصار دام تسعة أشهر – حيث استسلمت في نهايتها للجيوش المسيحية التابعة لألفونسو الثامن في ٢١ سبتمبر ١١٧٧م.

في الحدود الغربية، بدأ الملك الليوني فرناندو الثاني حصارًا على قصرش، ولكن الخليفة الموحد يوسف نزل في شبه الجزيرة وتقدم حتى بطليوس وأجبر الليونيين على إعادة الانتشار بعد خط التاج؛ وبعد سنوات قليلة مات في ضيعة شنتريم أمام جيوش فرناندو الثاني ملك ليون.

خلف يوسف ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور الذي أعلن نفسه خليفة في هذا اليوم ١٠ أغسطس عام ١١٨٤م، وهزم القشتاليين في ألاركوش عام ١١٩٥م.

أقام ألفونسو الثامن ملك قشتالة معسكره في ألاركوش يوم ١٩ يوليو عام ١١٩٥م وعند وصول جيش الموحدين بدأت الأعمال الهجومية القشتالية وبدأت المعركة التي استمرت طوال اليوم؛ كان تفوق الموحدين ساحقًا وحقق المسلمون نصرًا بعد خسائر بشرية كبيرة، ولكنهم انهزموا بعد ذلك على يد التحالف الذي دخل فيه القشتاليون والأراجونيون والنافاريون في معركة العُقاب (Las Navas de Tolosa) والتي وضعت نهاية لحكم الموحدين في شبه جزيرة أيبيريا.

وقعت المعركة في Navas de Tolosa، وهي بلدة تنتمي لبلدية كارولينا (جيّان) الإسبانية، في يونيو ١٢١٢م، خرج المسيحيون من طليطلة منقسمين إلى ثلاث وحدات عسكرية: في الأمام الصليبيون الأوروبيون تحت قيادة دييجو لوبيث دي آرو وفي الوسط الكتالونيون والأراجونيون بقيادة بدرو الثاني؛ وفي المؤخرة ألفونسو الثامن مع القوات القشتالية.

بدأ الموحدون تقريبًا في آن واحد مسيرتهم من إشبيلية. أخذت طلائع الصليبيين مالاجون عنوة وقتلوا المدافعين عنها، بعد ذلك بدأ حصار قلعة رباح التي استسلمت في ثلاثة أيام. وحسب العادة الإسبانية سمح ألفونسو الثامن للمدافعين أن ينسحبوا سالمين، ولهذا قرر الصليبيون وهم محبطون تركه. توحد الجيش المسيحي الذي انضم إليه سانشو السابع ملك نافارة مع قوات الملك القشتالي وغزوا ألاركوش وبيدرا بوينا وكاركويل.

في ١٦ يوليو ١٢١٢م، بعد ما أدهشوا الموحدين بأجنحة الجيش العديدة، بدأت المعركة وتشكل المسيحيون في الصباح في ساحة القتال: ألفونسو الثامن ملك قشتالة قائدا للحملة وفي القلب بدرو الثاني ملك أراجون وعلى يساره سانشو السابع

ملك نافارة مع الميليشيات النافارية على اليمين وفي المؤخرة جونثالو نونيث ملك لارة مع ميليشيات الرهبانية العسكرية.

في صفوف الموحدين، شغل الخليفة أمير المؤمنين مؤخرة الجيش محاطًا بحرسه الزنوج؛ والجزء الرئيسي كان يشكل صفًا وفي الخلف اعتمدوا على طلائع سريعة مكونة من المؤمنين المتطوعين.

في الهجمة الأولى، وثب المسيحيون على طلائع الموحدين وفتحوا ثغرة في الجزء الرئيسي من جيش المسلمين. رد الخليفة بجنودة الاحتياطيين، ولكن ألفونسو الثامن قاد بنفسه جنوده ودمر الموحدين الذين بدأوا هروبهم بعدما عانوا خسائر هائلة.

تسببت الهزيمة في سرعة الانقسام بين المسلمين الإسبان والإفريقيين، وشجعت ظهور ممالك الطوائف، والتي برز من بينها تلك التي أسسها ابن هود في مُرسية عام ١٢١٨م(*)، والتي بسطت نفوذها سريعًا في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وألمرية وسبتة والجزيرة الخضراء؛ وعلى الرغم من ذلك لم يستطع تجنب سقوط قرطبة في يد القشتاليين الليونيين الذين توحدوا منذ ١٢٣٠م تحت قيادة فرناندو الثالث.

لاحقًا بعد اثنى عشر عامًا من موت ابن هود، اختفت ممالك الطوائف باستثناء مملكة غرناطة التي أعلن ملكها الخضوع لقشتالة. انتهت أيضًا دولة الموحدين بالفوضى. في شمال إفريقيا استسلمت أمام زحف بني مرين، وتفككت الأندلس إلى ممالك مسلمة مستقلة عديدة (مرسية، بلنسية، إشبيلية...) لم تستغرق وقتًا طويلاً حتى وقعت في أيدي الملوك المسيحيين.

(*) الصواب أنه أسسها عام ١٢٢٨م. (المترجم)

بعدما غزا بنو مرين دولة شمال إفريقيا القوية الموحدة، حاولوا مثل مَن سبقوهم من المرابطين والموحدين غزو شبه جزيرة أيبيريا، ومع ذلك اقتصر ما فعلوه على الحرب من أجل امتلاك المدن القوية التي تسيطر على المضيق، ولم يستطيعوا دخول إسبانيا، على الرغم من مساعدة غرناطة لهم بسبب التصرف الحازم للملك ألفونسو الحادي عشر الذي هزمهم في معركة نهر سالادو أمام طريفة في ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م. وقد أدى ذلك إلى طرد بني مرين نهائيًا، ولكن لم يؤدِّ إلى السيطرة على مضيق جبل طارق.

اعتمدت القوات القشتالية على المساندة المقدمة من البابا بنيديكتو الثاني عشر الذي أعلن الحملات الصليبية وبدأ الحملة ألفونسو الرابع ملك البرتغال.

٦- مملكة غرناطة

مع غزوات فرناندو الثالث ملك قشتالة وخايمي الأول ملك أراجون بقي الوجود العربي مقتصرًا على مملكة غرناطة، التي تأسست في عام ١٢٣٨م.

عندما استولى محمد بن يوسف بن نصر الأحمر (ابن الأحمر) على جيَّان وأخضع ملقة، نقل بلاطه إلى ألمرية وذلك بعدما رفض طاعة ملك مُرسية. منذ ذلك التاريخ وحتى ١٤٨٤م ظلت الحدود المسلمة في الخط الذي يبدأ من مصب نهر برباتي مرورًا بسيرا دي جرازاليمه Sierra de Grazalema في الشمال تجاه الشرق ومتطابقة مع الحدود الجنوبية لمقاطعات ملقة وغرناطة وألمرية الحاليين.

في نهاية عام ١٢٧٤م طلب ثاني أمراء بني نصر في غرناطة – محمد الثاني – النجدة من سلطان بني مرين في المغرب – أبو يوسف – في حربه ضد قشتالة وضد أعدائه داخل المملكة. وتنازل الأمير للمغاربة عن طريفة والجزيرة الخضراء كي ينزلوا قواتهم التي رست بقيادة يوسف في طريفة في ١٣ مايو ١٢٧٥م، ونهبوا بيخير، ثم تقدموا حتى شريش بادئين ما يسمى معركة المضيق.

في ١٦ أغسطس من العام نفسه حدث إنزال جديد في طريفة. وفي ١٢ أبريل ١٢٨٥م نزل الأمير المريني وابنه يوسف في طريفة ونهبوا بيخير وحاصروا شريش بينما وجهوا حملات عسكرية ضد إشبيلية وقرمونة ونبيلة ومارشينة. وكرد فعل، قام سانشو الرابع ملك قشتالة بإرسال أسطول إلى قادش وجيش لمساعدة شريش.

في ٢١ أكتوبر ١٢٨٥م، تم توقيع سلام بمقتضاه يدفع بنو مرين تعويضًا مليونيْن ونصف المليون، ويعيدون إلى الغرناطيين كل الأماكن المحتلة عدا طريفة ورندة واستيبون والجزيرة الخضراء.

حكم محمد الثالث حتى ١٣٠٩م، وبعد ذلك أخوه نصر الذي كان عليه أن يتنازل عن العرش بعد ثورة داخلية. كان عليه أن يواجه القشتاليين والأراجونيين بمهارة ، وتمكن من إلغاء الحدود إلا مع دويلة مسيحية واحدة هي قشتالة. وفي عام ١٣١٤م دخل الحكم أبو الوليد الأول الذي بدأ به فرع جديد من بني نصر.

ولكن لعبت مملكة غرناطة آنذاك دورًا في مواجهة المسيحيين من أراجون وقشتالة وساندتهم مكانة بني مرين الأفارقة وقوتهم، وكان النصر متبادلاً بين كلا الفريقين.

بدا محمد الخامس الملقب بالعجوز حليفًا وصديقًا لبدرو الأول ملك قشتالة الملقب بالقاسي. ثم قويت المملكة بالملوك المتعاقبين الذين حافظوا على العلاقات الوثيقة مع المسيحيين، من قوة إلى قوة، حتى عام ١٤٦٦م عندما استولى مولاي أبو الحسن على العرش، وكان لديه خصم هو أخوه أبو عبد الله محمد ابن سعد الذي لُقِّب بالزغل.

لم يتميز مولاي بالنجاح في الحكم وسبَّب بذلك انقسامًا خفيًا في المملكة فأراد التخلص منه عن طريق تحقيق نجاح خارجي مثلما فعل حكام آخرون لمرات

عديدة على مدار التاريخ. ولتحقيق ذلك، غزا المسيحيين مدينة الزهراء في ١٤٧٧م وبدأت حرب غرناطة وتقرر إنهاء أسرة بني نصر.

بعد سنوات من الاشتباكات مع القشتاليين الأراجونيين الذين كانوا يراقبون حدودهم استسلم الملك أبو عبد الله بشروط متفق عليها عام ١٤٩٢م أمام الملوك الكاثوليك وسلّمهم غرناطة.

الفصل الخامس

إسبانيا الإسلامية: التراث الأندلسي

التراث الأندلسي

إن بداية التدهور الحربي العسكري العربي في إسبانيا لم يقف دون تألق الحضارة الإسلامية وإنه لشيء مثير. ومن اللافت للنظر أن الحضارة تقدمت بشكل فريد في عصور التدهور السياسي.

وفي أعقاب فترة لم يكن لها أهمية سياسية تذكر حكم فيها ملوك محبون للأدب جاء الملك ابن أبي عامر المعروف بالمنصور ليدعم قوة الإسلام بفضل شخصيته العظيمة. وقد شن المنصور خمسين حملة عسكريةً ضد المسيحيين استولى فيها على مدن ليون وبنبلونة وبرشلونة وسانتياجو دي كومبوستيلا وخربها ثم هُزم أخيرًا في قلعة النسور ولقي مصرعه متأثرًا بجراحه في الحرب في مدينة سالم (صوريا) عام ١٠٠٢م.

وبعد ذلك وعقب فترة سادت فيها الفوضى سقطت الخلافة في قرطبة في عام ١٠٣١م وانقسمت من الناحية السياسية إلى مجموعات إقليمية أطلق عليها الطوائف. ورغم ذلك لا يمكن إنكار أن الانقسامات حلت أيضًا بصف المسيحيين وقد تضاعفت هذه الانقسامات بسبب الغزو العربي.

ومن المؤكد أن العقيدة المسيحية كان لها جانب توسعي استعماري ظهر في استمرارية مملكة القوطيين الغربيين، وكان لها جانب قومي يسعى إلى الحفاظ على مفهوم الأمة الوحيدة كما فعل من قبل الملك القوطي الغربي سوينتيلا Suintila

وهو ملك إسبانيا كلها totius Spaniae وقد كان هذان الجانبان يشكلان أفكارًا خفية في المجتمع الإسباني الذي بذل ما في وسعه لدعمها.

وفي الجانب الإسلامي كان لدينا سلاطين أو ملوك في طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وقرطبة (التي تحولت إلى جمهورية إسلامية) وملقة ومورون وأركوش وأنبة ونيبلة وسيليس والجارامة وقرمونة وغرناطة وبطليوس وبلنسية ودانية ومُرسية وألميرية والجزر الشرقية (البليار) وألباونتي وشنتمرية ابن رزين.

لم يكن لدى العرب - بعد غزو شبه الجزيرة الأيبرية كلها- نموذج محدد للاسم الذي يمكن إطلاقه على هذه الأمة فاكتفوا باستخدام اسم شديد الإيحاء وهو الأندلس. والجدير بالذكر أنه في البداية كان العرب أقلية في الأندلس بينما كان الإسبان والبربر هم الغالبية وبالتالي لم تكن العربية هي لغة الحوار. غير أنه طوال القرن التاسع حدثت عملية تعريب قوية ارتبطت بلا شك بأهمية اللغة التي جاء بها الكتاب المقدس في الديانة الجديدة وهو "القرآن".

فقد كانت اللغة العربية في الأندلس مرادفًا للعلم والبلاغة. رغم أن كل السكان تقريبًا كانوا يتحدثون اللغة الرومانثية، فدراسة اللغة العربية لم تقتصر فقط على المسلمين فمسيحيو الأندلس أنفسهم والمسيحيون الذين ظلوا تحت حكم المسلمين انتهى بهم الأمر إلى التحدث والتعبير بهذه اللغة؛ وكان اليهود كذلك أيضًا، وهم جميعهم جماعات لها دور فعال في الحياة العامة للأندلس.

وفي هذا الصدد توجد فقرة بليغة يشتكي فيها ألبارو دي كوردوبا من ازدهار اللغة العربية في القرن التاسع قائلاً: "إن العديد من إخواني في الدين يقرأون الشعر والقصص العربي ويدرسون أعمال الفلاسفة وعلماء الدين المسلمين ليس من أجل تفنيدها بل من أجل أن يتعلموا كيف يتحدثون بهذه اللغة بطريقة أكثر صحة ولباقة".

ومن أبرز علماء اللغة في الأندلس نذكر القالي وابن القوطية والزبيدي، وجميعهم عاشوا في القرن العاشر. ومن بين هؤلاء أُبرز باختصار حياة ابن القوطية وأعماله.

هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ابن القوطية (الذي مات نحو عام ٩٧٧م) وهو من أهم مؤرخي وعلماء اللغة الأندلسيين. ويعني لقبه "ابن المرأة القوطية"، وقد وُلِد ومات في قرطبة وهو من سلالة سارة القوطية قريبة الملك ويصا الذي مات عام ٧١٠م، وقد تزوجت هي من أحد المسلمين. ويُعد عمله "تاريخ الفتح الأندلسي" عملاً جوهريًا من أجل فهم عملية دخول المسلمين في شبه الجزيرة.

وقد كان الأمراء والخلفاء أنفسهم، أمثال عبد الرحمن الثاني وعبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، علماءَ عظامًا لهم حاشية من الحكماء، وقد جعلوا العلم في متناول العالم بأسره. وأمروا بترجمة أهم الأعمال في المعرفة اليونانية، وأنشأوا مكتبات عامة وخاصة حقق بعضها شهرة واسعة مثل مكتبة الحكم الثاني، وشيدوا مساجد ومدارس دُرِّست فيها العلوم الدينية والفقه.

وبعض هؤلاء الملوك كانوا شعراءً بارعين مثل ملك إشبيلية المعتمد وصديقه ووزيره ابن عمار. وقد خصصوا أعمالاً عديدة لدراسة العلم والمعرفة ولتصنيف العلوم، مثل العمل الذى كتبه ابن عبد ربه فى القرن العاشر "العقد الفريد". وبهذه الكلمات يتحدث الكاتب عن العلوم المختلفة قائلاً: "إنها الأعمدة التي يستند عليها محور الدين والعالَم. تُميز الإنسان من الحيوان والعاقل من غير العاقل".

وهناك أيضًا العالِم المشهور ابن حزم (٩٩٤- ١٠٦٤م) الذي خصص صفحات كثيرة من كتبه لتصنيف العلوم مثل "مراتب العلوم" و"كتاب الأخلاق". وهو يُعد واحدًا من أكثر المؤلفين المسلمين غزارة في الإنتاج. اشتهر كشاعر

وعالم ديني وفقيه ومؤرخ وفيلسوف أيضًا، وقد كتب ما لا يقل عن أربعمائة كتاب في لهجة حادة ولاذعة ضد الحُكم وضد الفقر الروحي لدرجة أنه قيل إن لسانه كان حادًا مثل سيف الحجاج.

وقد قال كلماته التالية عن العلم: "مَن يسعى إلى طلب العلم ليتباهى به أو ليمدحه الناس أو ليحصل على ثروة أو شهرة يبتعد عن طريق النجاح لأن هدفه هو الحصول على شيء لا يعد علمًا".

إن الحضارة العربية في الأندلس حققت تطورًا في فروع عديدة من العلم، يُذكر من أهمها ما يلي:

(أ) النثر والشعر والموسيقى

إن النثر والشعر هما فرعان من فروع الأدب حازا تقديرًا كبيرًا من أهل الأندلس المحبين للجمال والذوق والطبيعة.

فرضت فترة حكم الطوائف فوضى سياسية حقيقية ولكنها أدت إلى لا مركزية في العلم الذي كان حتى ذلك الحين يتركز في قرطبة فحسب. وتنافس الملوك فيما بينهم ليحققوا أعلى درجة من العلم وليكون بلاط كل منهم هو الأكثر علمًا واهتموا على الأخص بالشعر.

بالإضافة إلى المعتمد فإن ابن زيدون (١٠٠٣- ١٠٧١م) ومحبوبته الأميرة الجميلة ولاَّدة يعتبران من أشهر الشعراء. ومن المشهورين نذكر أيضًا الرمادي (الذي توفى عام ١٠١٥م)(*)، ثم بعد ذلك بقرون جاء ابن زمرك شاعر القرن الرابع عشر الذي كان يقرض الشعر على جدران قصر الحمراء.

(*) توفى عام ١٠١٢م. (المترجمة)

وكانت القصيدة ذات "البحر الشعري المعقد" هي أكثـر الأشـكال الـشعرية المنظمة التي مارسها غالبية الشعراء رغم ظهور أشكال شـعبية جديـدة عرفـت بـ "الموشحة" و"الزجل" ومن أشهر مقرضيها ابن قزمان (القرن السابع عشر) الذي اجتازت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى بغداد.

لكن الموسيقى لم تكن أبدًا النوع الذي حظي بالاهتمام في الإسلام، غير أنـه كان هناك العديد من كبار الموسيقيين فى الأندلس يستحق الـذكر مـنهم زريـاب المشهور الذي جاء من بغداد في القرن التاسع، والذي كان عازفًا رائعًـا للعـود، وأضاف إليه الوتر الخامس، هذا بجانب إحداثه ثورات في الموضة وفي الملابـس، وفي أدوات التجميل، وفي المطبخ.

أما النثر وبالأخص الفلسفي فقد كان له أيضًا مؤلفون معروفون بعضهم في نفس مرتبة المفكر الكبير ابن طفيل الذي اشتهر بكتابه الممتع "حـي بـن يقظـان" المعروف بكتاب الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه، وهو بلا شك رائد لـديفوه فـي عمله "روبنسون كروزو". واشتهر أيضًا الشاعر ابن شهيد (المتوفى عـام ١٠٣٤م) بعمليْه "التوابع والزوابع" و"أرواح وشياطين".

ومن بين هؤلاء جميعًا نورد معلومات عن السيرة الذاتيـة وعـن أعمـال الموسيقي النابغ العظيم زرياب. أبو الحسن بن علي بن نافع (٧٨٩- ٨٥٧م) هـو موسيقي وشاعر فارسي أتى من بغداد ووصل إلى بلاط قرطبة فـي عـام ٨٢٢م فصعد سلم الشهرة. وقد عرفه البعض باسم زرياب أي الطـائر الأسـود المغـرد تشبيهًا له بالشحرور الأسود وللون بشرته الداكن.

وفيما قبل، كان الأمير القرطبي عبد الرحمن الثاني (٨٢٢- ٨٥٢م) هو أول من أنشأ معهدًا عاليًا للموسيقى في الأندلس حيث نافس موسيقيوه أمثالهم في المدينة التي ضمت أفضل الموسيقيين. فالتاريخ الإسلامي يـرى أن الـسورايا – طبيـب

المدينة – هو أول من استخدم العصا الموسيقية في تاريخ الموسيقى في القرن الثامن. وكان زرياب هو من أدخل النظام العربي الفارسي في مدارس الموسيقى الأندلسية وهذا النظام تم استخدامه في بلاط قرطبة بجانب النظام اليوناني والفيثاغورثي.

وقبل ذلك، كان زرياب في بغداد هو التلميذ المتفوق لاثنين من أهم الموسيقيين فى بلاط هارون الرشيد وهما إبراهيم بن ماهان الكوفي (المتوفى عام ٨٠٣م)، الذي لُقب بالموصلي لإقامته في الموصل، وابنه إسحاق الموصلي (المتوفى عام ٨٤٩م)، وعندما أحس إسحاق بالمميزات التي ينعم بها زرياب أجبره – بدافع الغيرة – على ترك العاصمة العباسية حتى لا تطغى شهرة زرياب على شهرته.

لقد كان زرياب متعدد المواهب بالفعل، فقد كان شاعرًا، وأديبًا، وعالم فلك وجغرافيًا ذا ذوق رفيع، وذوّاقة مشهورًا حيث اخترع وجبة قرطبية قديمة من الفول المملح والمشوي والتي يطلق عليها الآن "زريابي" تكريمًا لزرياب، ولكنه قبل كل شيء كان موسيقيًا عظيمًا، ويقال إنه كان يحفظ عن ظهر قلب كلمات وألحان عشرة آلاف أغنية. وكان مؤسسًا لأكاديمية موسيقية كبيرة وجعل العود – تلك الآلة الشرقية من الدرجة الأولى – معروفًا في الأندلس وأنشأ من أجله الوتر الخامس.

طبقًا لزرياب: "فإن الأوتار الأربعة التقليدية لها ما يوازيها في الكون، فهي تمثل رموزًا للعناصر الأربعة: الهواء، والتراب، والماء، والنار. وقد لونتُ الأوتار لأشير لما يقابلها في الطبيعة الإنسانية: فالوتر الأول ذو اللون الأحمر يمثل الدم، والثاني ذو اللون الأبيض يمثل النخامة، والثالث ذو اللون الأصفر يعبر عن داء الصفراء، والرابع الأسود يعبر عن السوداء (وهي سبب الحزن في المعتقدات القديمة)، أما الوتر الخامس فهو الذي يشغل المكان الأساسي أي وتر الروح".

وقد صنع زرياب آلاته الخاصة وحسنها بإدخال تجديدات عليها، فقد استبدل باللوح الخشبي المستخدم كريشة للعزف في العود ريش الصقر مما أدى إلى إحداث صوت أجمل في العود.

ويقول ابن خلدون: "إن معرفة الموسيقى بفضل زرياب كانت كميراث أورثه لإسبانيا وانتقلت من جيل إلى جيل حتى عهد ملوك الطوائف".

فالإيقاعات والألحان التي ظهرت في المدرسة الأندلسية بفضل زرياب مثل حفلات الغجر انتقلت إلى أمريكا مع انتقال الموريسكيين إليها وتكونت منها رقصات مثل السامبا والجاتو والإسكونديدو والبريكون ولاميلونجا ولاتشاكاريرا، والتانجو في الأرجنتين وأورجواي ولاكويكا ولاتونادا في شيلي ولاس بايتراس في كولومبيا وفينزويلا والخارابى في المكسيك، ولاجواخيرا والدانثون في كوبا. وأكد معظم محبي الفلامكنو وأيضًا ممثليه مثل باكا دي لوثيا - مغني الأغاني الأندلسية الخاصة بكامارون دي لايسلا - وخوسيه مونخي كروث أن ما تخصصوا فيه له أصل أندلسي موريسكى.

(ب) التاريخ والجغرافيا

كان للتاريخ أهمية خاصة بين مسلمي العصور الوسطى فكتبوا أعمالاً عديدة زاخرة بالكثير من المعلومات التاريخية وكذلك الجغرافية والاجتماعية ومعلومات عن سير ذاتية.

وهناك تأكيد على أن الأندلس كانت زاخرة بعلماء التاريخ والجغرافيا وجامعي المختارات الأدبية، رغم فقدان الكثير من أعمالهم. ومنهم ظهرت أسطورة الرازي، وبرز عيسى (القرن العاشر) الذي ألف كتاب "تاريخ الأندلس العام" الذي عُرف فيما بعد بـ "التاريخ المفصل للمسلم راسيس". كما يعد أيضًا كتاب "تاريخ فتح الأندلس" لمعاصرهما ابن القوطية كتابًا قيمًا.

وفي القرن الحادي عشر ظهرت مجموعة من علماء التاريخ البارزين مثل ابن حيان، المولود في قرطبة عام ٩٨٧م، وهو كاتب علامة لأعمال وفيرة يعكس فيها صورة المجتمع وأحداث عصره. وفيما بعد نبغ ابن سعيد المغربي الذي وُلِد في غرناطة حوالي عام ١٢٠١م(*) ونبغ أيضًا معاصره ابن عذاري.

ومن بين علماء التاريخ في إسبانيا العربية يجب ذكر: الخوكساني في كتابه "تاريخ قضاة قرطبة" الذي يذكر فيه العديد من العادات ومميزاتها، وأيضًا القرطبي ابن حيان السابق ذكره الذي كتب "المقتبس" عن تاريخ إسبانيا، وابن بسام الشنتريني الذي ألف كتاب "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة"، والقرطبي الفارادي ومؤلَّفه "تاريخ علماء إسبانيا".

كما أن العرب هم أول من تحدثوا عن تاريخ الأديان: فابن حزم القرطبي (٩٩٤- ١٠٦٤م) صاحب كتاب "رسالة الحب" عن الأخلاق والسلوك اشتهر أساسًا بكتابه "تاريخ نقدي للأديان" وكتابه "الإلحاد والمذاهب".

ومما يميز القرن السادس عشر وجود اثنين من كبار المفكرين ورجال الدولة وهما: ابن الخطيب المنتسب إلى لوخا في غرناطة، والتونسي ابن خلدون مؤلِّف أحد الأعمال المهمة في وقته "المقدمة".

وأخيرًا فقد حظى بأهمية كبرى من بين جامعي المختارات الأدبية كل من: الحميري الإشبيلي، وأدباء القرن الثاني عشر ابن بسام وابن خاقان.

ومن علماء الجغرافيا سطع نجم الأُدري في القرن الحادي عشر ومعاصريه البكري والإدريسي الذي أُطلق عليه حبر العرب (القرن الرابع عشر)، والطنجي ابن بطوطة أكبر رحالة في عصره والذي ترك لنا وثائق مهمة عن الأندلس وعن العديد من الأماكن الأخرى البعيدة في عالم مجهول في ذلك الحين.

(*) ولد عام ١٢١٣م. (المترجمة)

(ج) الفلسفة والتصوف

في عصور الإسلام الأولى في الشرق سرعان ما درسوا علم الفلسفة والمنطق في مناخ من التسامح الديني والفكري الكبير. وفي الأندلس أدخلوا الترجمات العربية الأولى للفلاسفة اليونانيين وخاصة أرسطو. وظهر اهتمام ملحوظ بهذا العلم والذي رغم ذلك لم يلق قبولاً بين المرجعيات الدينية المتشددة.

وفي أغلب الأحيان مُنِعت دراسة هذا العلم وتم إحراق كتب كل من ابن خلدون والغزالي المنتسب للشرق وابن رشد، رغم أن الفلاسفة كانوا يؤيدون فكرة أن المنطق والعقل لا يتعارضان مطلقًا مع التنزيل بل يشكلان الأداة الأنسب للوصول إلى الحقيقة.

وكان ابن رشد يؤكد ذلك قائلاً: "إن الفلسفة هي صديقة الدين وأخته في الرضاعة فهي لا تعارضه بل تدعمه".

وكان ابن مسرة، وهو كاتب من القرن العاشر، هو من أيد دراسة الفلسفة حيث اعتنق عقيدة وجودية. وسنذكر بعض معلومات عن سيرة وأعمال هذا النابغة البارز. وُلِد محمد بن مسرة (٨٨٣- ٩٣١م) في قرطبة وهو أول فيلسوف وغنوصي أندلسي، وتنحدر أسرته من المولدين (الذين غيروا عقيدتهم إلى الإسلام). والده هو عبد الله ذو العيون الزرقاء والشعر الأشقر والتي جعلت الناس يعتقدون غالبًا أنه من الصقالبة أو النورمانديين. كان كثير السفر للتجارة وتردد على دوائر المعتزلة والمتصوفة في العراق فاعتنق فكرهم ونقل ما عرفه إلى ابنه الشاب محمد الذي استوعبها بسرعة وكان له في وقت قصير مجموعة من التلاميذ. وبعد رحيل والده إلى الشرق من أجل التجارة ووفاته في مكة عام ٨٩٩ فإن ابن مسرة الذي درس أعمال الإغريقي- الصقلي إيمبدوكلس دي أجرختنو (٤٩٠- ٤٣٠ ق.م.) أسس في قرطبة مدرسة فلسفية سُميت باسمه وضمت لأول مرة أسمى الأفكار

الروحية في آسيا وإفريقيا. يعد ابن مسرة تحديدًا مدافعًا لدودًا عن عقيدة التوحيد الإبراهيمية وصفة الإله الأوحد. وقد تم استعادة كتابين فقط من كتبه العديدة وهما: كتاب "التبصرة" وكتاب "الحروف". بعد أن طاف بشمال إفريقيا من أجل تلاميذه استقر في قرطبة، واستطاع أن يطور في أعماله بسبب الرعاية والتشجيع اللذين لقيهما من الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢- ٩٦١م).

وفيما بعد ظهر ابن حزم ومعاصره الملقي العبري ابن جابيرول الذي اهتم بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة في كتابه "ينبوع الحياة".

أما القرن الثاني عشر فقد شهد نبوغ ابن باجه وتلميذه ابن طفيل الذي يعد عمله المذكور سلفًا "حي بن يقظان" ذا تأثير عميق في المسيحيين. لكن أكبر تأثير في العالم الإسلامي وفي كل أوروبا كان بلا شك لابن رشد (١١٢٦- ١١٩٨م) الذي تم الحفاظ على العديد من أعماله القيمة. والفيلسوف اليهودي العظيم موسى ابن ميمون (١١٣٥- ١٢٠٤م) معاصر ابن رشد.

ومن ناحية أخرى يستحق الذكر ابن عربي المُرسي (١١٦٥- ١٢٤٠م) الذي كتب مؤلَفًا ليس له بنية بعنوان "الفتوحات المكية" ناقش فيه أشياءً عديدةً من بينها الزهد، ومراتب التصوف؛ ووصلت بعض أفكاره في ذيوعها إلى دانتي وريموند لوليو.

وهكذا ورغمًا عن هذا التيار العقلاني عاش في الأندلس متصوفون عدة مثل ابن العارف (١٠٨٨- ١١٤١م)، وابن العربي المُرسي السابق ذكره (١١٦٥- ١٢٤٠م) اللذين أيدا "اعرف نفسك لتعرف ربك" ولكن ليس من وجهة نظر عقلية ومنطقية بل صوفية وبديهية بحتة.

(د) العلوم الطبيعية

يجب أيضًا ذكر العلماء العظام في مجال العلوم الطبيعية الذين أحدثوا ثورة في جوانب حياتية كثيرة بفضل علمهم، فقد درسوا الرياضيات والفلك والطب وعلم النبات والزراعة؛ ودرسوا أيضًا علومًا كانت مرفوضة من جانب المتشددين الأرثوذكس مثل التنجيم والكيمياء والسحر. ودرسوا بدقة حركات النجوم والكواكب مستخدمين أجهزة الأسطرلاب المركبة.

كما حدث تقدم في دراسة اللغة الاصطلاحية وعلم الحساب الذي يعد الخوارزمي رائدًا له ومن اسمه جاءت كلمة لوغاريتم؛ وأتقنوا الطب ونظريات أبقراط وجالينوس.

وقد تميز في الأندلس ابن تيمية (المتوفى عام ٩٢٨م) في مجال علم الفلك وفي الطب، كما تميز أيضًا أبو بكر الأنصاري الذي كان معلمًا للحساب والهندسة في بلاط الحكم الثاني. وهناك مَسلمة المجريطي المشهور (توفى عام ١٠٠٨م) والذي لُقب بإقليدس إسبانيا وكان خبيرًا في علوم شتى. أما أفضل رائد في الطب فهو ابن رشد والأخوان خاراني اللذين قاما بإنجازاتهما تحت رعاية الحكم الثاني. ولا يجب أن نغفل في هذا العرض السريع عن عالِم النبات الملقي ابن البيطار (١١٩٧- ١٢٤٨م)[*] ولا عن عالِم الزراعة ابن العوام الذي ندين له بأنه صاحب مؤلَّف قيم ومستفيض عن الزراعة وهو كتاب الزراعة.

أثر كل هؤلاء بشدة في أوروبا في ذلك الحين وفيما بعد، وكانت أعمالهم محط دراسة - حتى دخول القرن السابع عشر- من جانب رجال مثل: ميجل سيرفيت، كوبرنيكوس، نيكولاس ماسا أوجاليليو.

(*) ولد فى ١١٩٠م. (المترجمة)

(هـ) فنون أخرى

إن الحضارة الإسبانية الإسلامية أو الأندلسية كانت على وعي عميق بالتطور الزمني الذي حدث لها نفسها، وحدث في التاريخ، وفي مستقبلها؛ ولذا طورت أدبًا تاريخيًا عظيم الفائدة بلغ أوجه في صورة ابن خلدون أول فيلسوف وعالم اجتماع في التاريخ.

وقد احتكر علماء الأندلس متعددو المواهب والتخصصات كل فروع العلم سواء العلمية أو الفكرية، فمنذ البداية كان أهل الأندلس على دراية بما يحدث في الشرق الإسلامي واجتهدوا ليحصلوا على أعمال العلماء والمتخصصين المختلفين، ومع ذلك – للأسف – فإن هذه المبادرة والاهتمام لم يكن لهما ما يقابلهما من جانب زملائهم في الشرق. إن الحضارة الأندلسية كانت لا تعدو أن تكون المزدهرة المجهولة، فلم تكن معروفة في مصر في عهد الفاطميين ولا الأيوبيين ولا المماليك، وإذا اتجهنا نحو الغرب [أو الشرق] لم تكن معروفة أيضًا عند البوهيين ولا السامانيين ولا الجنابيين(*) ولا السلاجقة ولا الغوريين؛ فكلمة الأندلس كانت تمثل شيئًا بعيدًا جدًا وغير مفهوم، وبفضل أجيال عديدة من المستشرقين والمستعربين والدارسين للإسلام الأوروبيين وخصوصًا الإسبانيين، أصبح ميراث الأندلس الثري معروفًا وله قيمة بكل جوانبه.

وفي يومنا هذا لا يعد من المصادفة أن الكثير من المسلمين في الشرق لا يعرفون شيئًا عن مسجد قرطبة أو قصر الحمراء في غرناطة، ولم يقرأوا أبدًا أعمال ابن حزم أو ابن رشد أو ابن عربي المُرسي. ونفس الشيء يحدث للمسلمين المغاربة بصفة عامة فهم يعرفون بالكاد العجائب الإسلامية فى إستانبول وأصبهان وأكرا، ويعرفون القليل أو ربما لا يعرفون شيئًا عن علماء المسلمين في الشرق في الفترة اللاحقة على القرن الثالث عشر. وهذا يعني في المقام الأول أن الأندلس لم تكن سوى جزيرة بعيدة بالنسبة لبقية المسلمين في دار الإسلام، ويرجع هذا لظروفها الجغرافية والسياسية.

(*) الجانبيون قبائل عربية قحطانية، يقال إنهم ينتسبون إلى حنظلة بن أبى عامر الأنصارى. (التحرير)

ويمكن أن نذكر أيضًا أن الإسلام في الشرق قد عانى وكابد كثيرًا من الغزو (غزو الأتراك والمغول في الأساس)، كما عانى من صراعات داخلية كان لها أثر في عدم تطور وانتشار الفنون أثناء فترة الاضطراب السياسي.

رغم ذلك فهناك شخصيتان عظيمتان يجب ذكرهما وهما المؤرخ الأندلسي ابن حيان، وعالم الهندسة ابن فرناس.

أبو مروان حيان بن خلف بن حيان هو ابن أحد كبار موظفي الدولة لدى محمد بن أبي عامر المعفري (٩٤٠- ١٠٠٢م) - أحد كبار مستشاري الخليفة هشام الثاني والذي عُرف بالمنصور وبالحروف اللاتينية Almanzor الذي غزا برشلونة وسانتياجو دي كومبوستيلا.

وابن حيان من أبرز المؤرخين الأندلسيين الذي يمكننا من خلاله أن نحصل على صورة شرقية تقريبية لتاريخ الأندلس. وُلِد في عاصمة الخلافة قرطبة (٩٨٧ / ٩٨٨م) ومات عام (١٠٧٦م) في مملكة قرطبة الطائفية بعد أن احتلتها إشبيلية. كان مؤرخًا محبًا للأمويين مثلما سيكون معاصره ابن حزم، وانتقد بشدة سقوط هذه الأسرة وتمزُّق المركزية الأندلسية والحرب الأهلية في بلد متخلف، ولكنه عرف كيف يتكيف مع التغييرات وحصل على مكانة عالية حتى بين معاصريه بتأليفه عمله الوحيد "التاريخ" (المنقسم إلى جزأين: خطاب المقتبس في تعريف رجال الأندلس، وخطاب المقتبس فى أخبار الأندلس) وهو كتاب عن تاريخ الأندلس حتى قبل وفاته بسنوات قليلة. إن الشهرة التي حققها لم تمكنه من البقاء في قرطبة طوال حياته فحسب، بل أيضًا جعلته يعبر عن آرائه وقتما يشاء مانحًا بعدًا فعالاً للكتابة التاريخية.

أما عباس بن فرناس فهو رجل وُهِب روحًا تذكرنا بعباقرة عصر النهضة الإيطالية. كان قد أنشأ في منزله ما يمكن اعتباره أول نموذج في تاريخ العالم للنظام الشمسي وحركاته، فهو عبارة عن جزء ملحق بالمنزل صور فيه النجوم ومجموعاتها والظواهر المناخية. حوالي عام ٨٥٠م كان يسود في مدينة قرطبة الإسلامية في الأندلس جو علمي وثقافي واسع لدرجة أن يخرج لنا نوابغ في أهمية عباس بن فرناس. وتشير الروايات المقتضبة التي بقيت عن هذا النموذج إلى أن عباس بن فرناس كان قد زوده بأجهزة تبهر الزائر لأنها توحي بوجود سُحُب وبرق ورعد بين جدران المكان الأربعة وهي مؤثرات خاصة لو رآها المتخصصون في الفن السينمائي اليوم لأثارت حسدهم. كما أنشأ ابن فرناس ساعة مائية مزودة بأجهزة ذاتية الحركية تفيد في معرفة الوقت في الأيام والليالي المغيمة، وأدخل في الأندلس المقياس الزجاجي.

ولكن أكثر ما يثير الدهشة في اكتشافات ابن فرناس هو محاولته الطيران متذكرًا بكل تأكيد أسطورة ديدالو اليونانية حيث صمم رداءً من الحرير يعد بالفعل الأول من نوعه في إسبانيا ملصقًا به ريش طائر، وباستخدام هذا النظام معتمدًا على آلية لم يبق عنها – للأسف – أي تفاصيل، قفز من أعلى برج الرصافة – وهو القصر الأخضر الذي أنشأه عبد الرحمن الأول– من ارتفاع مائة متر وتمكن من الطيران فترة حتى وجد نفسه مجبرًا على هبوط عنيف للغاية لكن دون نتائج خطيرة.

وابن فرناس الذي توفى حوالي عام ٨٨٧م يعد بلا شك واحدًا من أقدم رواد الطيران الذي وضع تصميمات للملاحة الجوية تسبق بحوالي ستمائة وخمسين عامًا ما فعله المخترع والرسام الفلورنسي ليوناردو دافنشي (١٤٥٢– ١٥١٩م) عندما جسم محاولته الأولى للدراسة الديناميكية الهوائية.

(و) بوتقة الثقافات

ونتيجة لغزو المسلمين بقيت شبه الجزيرة خاضعة وقتيًا للخلافة الموجودة في دمشق. وبعد ذلك وفي عام ٧٥٠م استعادت إسبانيا استقلالها كإمارة تحولت إلى خلافة (٩٢٩- ١٠٣١م). وخلال ثلاثة قرون تقريبًا تمكن البعض من الحفاظ على وحدة الأراضي الإسلامية في إسبانيا.

ولكن في عام ١٠٣١م انهارت هذه الوحدة، وأعلنت كل إمارة استقلالها ونشأت ممالك الطوائف، وبعد ذلك ولفترة مؤقتة أُعيد تشكيل وحدة سياسية لإسبانيا الإسلامية في عام ١٠٩١م فى عهد المرابطين. وفي عام ١١٧٢م في عهد الموحدين رغم أنه في كلتا الحالتين اعتمدت هذه الوحدة على إفريقيا.

وسواء كانت خاضعة أم مستقلة فإن إسبانيا الإسلامية أو الأندلس انفصلت تمامًا عن تقاليدها وانضمت للعالم الإسلامي وتلقت ثقافته. وقد كان عدد العرب والسوريين المقيمين في إسبانيا قليلاً نسبيًا، بينما كثُر البربر. أما معظم السكان فقد كانوا إسبانيين، وتمكن جزء منهم - وهم الأندلسيون المسيحيون - من الحفاظ على دينهم وحقوقهم وعاداتهم في مقابل خضوعهم للغزاة. ولكن مع مرور الوقت ارتد الكثير منهم عن الديانة المسيحية واعتنقوا ديانة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وخلال القرون الثامن والتاسع والعاشر احتفظ هؤلاء المرتدون أو المولدون بلغتهم وثقافتهم ما ميزهم عن باقي المسلمين قليلي الثقافة. ولكن فيما بعد انتظمت العلاقة بينهم تمامًا.

ويبدو شيئًا عجيبًا أنه في القرن الحادي عشر ومع انقسام المسلمين في إسبانيا إلى ممالك صغيرة قد اجتهدوا في النقل الحرفي لحضارة الخلافة البغدادية. إن العالم الإسلامي بأكمله من الهند إلى الأندلس - سواء كان تحت حكم سلطة واحدة أم لا - كانت له حضارة موحدة رغم أنها كانت تتسم بقلة الابتكار، وتكمن

ميزته الكبرى في صهره للحضارات المختلفة للدول الواقعة تحت سيطرته لتصبح تركيبًا عظيمًا من الهند، فارس، والشرق الأدنى، مصر بحضارتها اليونانية والرومانية، شمال إفريقيا، وإسبانيا، ونشر هذا الخليط الثقافي لكل بلد من البلاد ما أدى إلى اندماج سريع لحضارة كل بلد مع حضارة العالم القديم وحضارات باقي البلاد مجتمعة أو منفردة. وبالتالي فإن إسبانيا التي أعاد المسلمون تشكيل حضارتها تعرفت على حضارة اليونان والشرق وعلى التقنيات الصناعية أو الزراعية في بلاد الشام والهند وعلى محاصيل ومنتجات جديدة. ولهذا ورغم أن المسلمين لم يبتكروا شيئًا فقد نعمت الأندلس بثراء غير عادي وأقامت علاقات تجارية مع بلاد بعيدة واستطاعت أن تتفوق في العلوم في تناقض واضح مع حالة الفقر العام التي كانت تسود أقاليم الشمال.

وللأسف فإن تأثير العرب في الأدب الإسباني الحالي كان ضئيلاً لأن الشعراء المفكرين في الأندلس شكلوا جزءًا من العالم الثقافي الإسلامي، وبالتالي وبعد الاسترداد المسيحي للأندلس لم يترك هؤلاء الشعراء نماذج من الشعر الغنائي الكلاسيكي القائم على تيارات فنية شرقية.

وربما كان التعصب الديني من جانب الممالك المسيحية تجاه الإسلام حيث لم يعترفوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم رغم أن الإسلام كان له موقف مغاير، ففي الكتاب المقدس "القرآن" يصف السيدة مريم عليها السلام بأنها امرأة عفيفة وأم للمسيح عليه السلام الذي يعترف به رسولاً من الله، ربما كان هذا التعصب هو السبب الرئيسي لتجاهلهم الأدب الإسلامي ومصادره، ولتجاهلهم المجتمع الإسباني تمامًا مثل مَنْ سبقوه كالرومان والقوطيين، وهو الذي استقر على مدار ثمانية قرون في إسبانيا وتمكنت أجياله في هذه الحقبة التاريخية من الوصول بالعلوم والآداب لأعلى درجات المعرفة.

وقد يكون أكبر خطأ ارتكبته الممالك المسيحية بعد الاسترداد هو عدم الحفاظ على التعددية الثقافية الموجودة في الأراضي التي تم غزوها، حيث لم يبقوا على العقائد الدينية والثقافة واللغة العربية. وقد كان من الممكن أن تنتشر الآن اللغة العربية لغة عالمية في كل أنحاء الكون (أمريكا من باتاغونيا إلى الولايات المتحدة، وإفريقيا، وآسيا البرتغالية والفيلبين، إلخ) وذلك من خلال المصير التاريخي الذي آلت إليه إسبانيا والبرتغال.

ومع ذلك، وعلى الرغم مما ذكر مسبقًا، توجد بعض الآثار في الأندلس لشعر غنائي آخر غير كلاسيكي في صورة تعبير شعري شديد الاختلاف مثلما هو الحال في الموشحة التي يرجع ابتكارها فى بدايات القرن العاشر إلى عدة مؤلِّفين من كابرا (قرطبة) وهم: مقدم بن معافي، ومحمد بن محمد؛ وكما في الزجل المكتوب بعربية عامية والذي يعد ابن قزمان (القرن الثاني عشر) هو أول من نَظَمه. إن الموشحة الأندلسية التي تعبر عن موسيقية ورهافة حس عامة الشعب هي مجموعة من القصائد الصغيرة كُتِبَت بالعربية عدا آخر بيتين كتبا بلغة رومانثية في قطعة واحدة أُطلِق عليها الخرجة.

وهذه الموشحات هي الوسيلة التي وصل لنا من خلالها أقدم نماذج الشعر الغنائي الإسباني، لأن الشرقيين الذين قاموا بجمعها كتبوا أبيات الشعر العربية هذه ونقلوا الخرجة الرومانثية التي تأتي في نهاية القطعة الموسيقية الشعرية.

الفصل السـادس

الأدب العربي: مقدمة، الأدب الجاهلي

الأدب الإسلامي: القرآن، والأدب العربي، والانحدار والنهضة

١- مقدمة

يعد الأدب أبرز الأنواع التي تفتقت عنها القريحة العربيـة، وذلـك يرجـع لأصالته وتنوع إنتاجه بسبب بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أدى هـذا الحدث إلى ذيوع واسع للثقافة وعالميتها وأصبح الأدب العربي واحـدًا مـن أهـم وألمع الآداب في الشرق.

فالحقيقة المجردة - التي تعني أن الدين الذي ينشره النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هو دين فريد وصحيح أوحى به الله - كانت سبب الشهرة العالميـة، وبذلك انتشرت اللغة العربية في الشرق والغرب وحققت نجاحًا لكونها لغة يتحـدث بها النبي ثرية في الألحان الشعرية والأدبية وقابلة للانتشار في المستقبل.

وفي البداية كانت هناك فترة امتدت من عام ٥٠٠ ق.م حتى عهـد الهجـرة (٦٢٢م) أُطلق عليها باللغة العربية (الجاهلية) أو مرحلة الجهل، وظهرت خلالهـا أعمال تم حفظها بطريقة يشوبها عدم الدقة، ونُقلت شفهيا بإجادة شكلية فيما يتعلـق بنقاء اللغة ومنهجيتها، وقواعدها العروضية والبلاغية. رغم ذلك، فالأدب العربـي يمكن تقسيمه إلى فترتين مختلفتين تمامًا:

الأولى ترجع إلى بداية بزوغ الفن الأدبي، حيث لـم تكـن العربيـة لغـة موجودة، ثم ظهرت بطريقة مدهشة لغة أصلية لأهل البلاد في فترة التوسـع. لـم

تعرف هذه اللغة ما أطلق عليه علم النحو، ولم تتوفر فيها تلك القواعد الصارمة، وسادتها حرية واسعة، ولكنها كانت ثرية في الصور ورائدة في المقارنات العظيمة التي تحث على تأمل الطبيعة، وتلائم الملاحم، وكان الكاتب بها قد حقق درجة من الإجادة فيما يتعلق بتقديم الفكرة.

أما الفترة **الثانية** فتعود إلى ما بعد الهجرة في القرنين السادس والسابع من عصرنا، والذي لم يوجد فيه أي أثر أدبي باستثناء الأدب الإغريقي واللاتيني حيث كانت هذه الشعوب غارقة في جهل تام.

وبينما كان على أوروبا أن تنتظر خمسمائة عام أخرى حتى ظهور رواة أشعارها وشعرائها الغنائيين، وكان لا يزال أمامنا ثلاثة قرون قبل ظهور الملاحم، كان للعرب بالفعل قصائد ذات شاعرية متوقدة وأدباء ذوو أعمال موقرة وجديرة بالاحترام والإعجاب، عُدت آثارًا مقدسة بفضل الإعجاب المفرط بها من جانب الشعب.

٢- الأدب الجاهلي

تندر المعلومات التي وردت عن النثر في العصر الجاهلي. لقد كان يشمل الأساطير القديمة والأمثال والحكم التي ترجع أصالتها إلى وعاظ القبائل العربية ودورهم المهم كقادة في إرشاد جماعات البدو.

وهناك بعض المختارات في هذه الفترة تتيح لنا التعرف على الشعر العربي في مرحلة ما قبل الإسلام، وقد تم نقلها شفهيا بواسطة التُلاة الذين أطلق عليهم الرواة (جمع راوية)، وهم يشبهون رواة القصائد الملحمية اليونانية المحترفين الذين تميزوا بذاكرتهم الممتازة ويشبهون أيضًا الشعراء الغنائيين في العصور الوسطى.

ورغم القصور الذي شاب هذه الطريقة في النقل غير المكتوب فقد تم الحفاظ على شعر ما قبل الإسلام سليمًا معبرًا عن عزة النفس وزهو القبائل التي

تغنّى شعراؤها بالانتصارات في المعارك وبالتنافس القبلي ومفاهيم خاصة بالأخلاق والحب.

ويلاحظ في هذه الأبيات الشعرية مدى الوجاهة الاجتماعية التي تمتع بها الشعراء الذين قاموا بدور حاسم في الحياة الاجتماعية والسياسية القبلية.

ويذكر على سبيل الاستشهاد القطعة المؤلَّفة التي كتبها الشنفرى Chanfara (المتوفى في عام ٥١٠م) والتي يظهر فيها بوضوح المزج الظريف بين المحارب ذي البطولة الرفيعة واللص الشرس.

ويستحق الذكر أيضًا الأمير امرؤ القيس ابن ملك كندة، وقد كان شخصًا يحيا حياة غير منظمة، فحُرِم من الميراث [الملك] ولجأ إلى بلاط ملك بيزنطة جوستينيانو، ويعد مبتكِرًا للعديد من المؤلَّفات الشعرية العربية، وقد حازت أعماله فيما بعد إعجاب النبي محمد - صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه الفترة برز أيضًا في قصور صغار ملوك العرب في الشمال شعراء البلاط الملكي ذوو الحس الرفيع الدائم أمثال طرفة (الذي مات في عام ٥٦٩م(*))، والنابغة. وكلاهما كان يتغنى للملوك المنعمين وبفضائل الحياة في قصورهم.

إن ملاحم هذا العصر كانت هي المعلقات التي تروي المآثر الخاصة، وتذكر بطولات الحياة البدوية والمغامرة للعربي وللبدوي. وقد انتقلت لنا هذه الأعمال على يد المؤلِّف النابغة حماد الراوية، وهو عالِم عبقري عاش في منتصف القرن الثامن، ولا تكمن أهم ميزاته في مؤلَّفاته الأصلية، بل في حماسه الشديد في نشر أشعار قدامى الشعراء العرب.

(*) مات ٥٦٤م. (المترجمة)

وترجع المعلقات إلى العمل العبقري الذي قام بـــه مجموعـــة مـــن الأدبـــاء المختلفين – ما بين سبعة أدباء وتسعة– هم:

طرفة – زهير – لبيد – امرؤ القيس – الحارث بن ظليم بن حلزة – عمرو ابن كلثوم – عنترة – النابغة – الأعشى.

وأشهرهم هم: امرؤ القيس – عمرو بن كلثوم – طرفة – لبيد – عنتـــرة – النابغة – الأعشى.

امرؤ القيس

كان من سلالة الملوك، فهو ابن ملك كندة وهو شاعر عظيم بالدرجة الأولى. نفاه والده فلجأ إلى بيزنطة، ومات والده مقتولاً، ولكن قبل وفاته جعله خليفـــة لـــه وكلفه بالانتقام لموته. وقد نفذ امرؤ القيس رغبة والده وعاقب قبيلة بني أسد التـــي حرضت على قتل أبيه. وبعد ذلك عندما تخلى عنه أنصاره رحبت به شيوخ القبائل المجاورة، وازدادت شهرته وشعبيته بفضل أعماله الأدبية.

والنوع الأدبي الذي مارسه هو الشعر الذي يذكر فيه التقاليد البطولية للبدو، ولحياة الرحالة، والمغامرات العاطفية، وحكايات أخرى.

عمرو بن كلثوم

هو ابن أحد المحاربين المشهورين الملقب بكلثوم القبيلة، أصبح يتيمًا وهـــو صغير فعينوه شيخًا للقبيلة. كان يتمتع بالقوة والشجاعة وتميز شاعرًا محاربًا وكاتبًا للمعلقة، ومات عند بلوغه مائة عام في عهد الهجرة.

طـــرفة

كان نابغة في الشعر. شهد نضوجًا مبكرًا، وكان ناقدًا للطبقات الاجتماعيـــة مما سبب له الأذى حيث ذم القاضي عمرًا حاكم الحيرة الذي تظاهر بالاهتمام بـــه، وأرسله في مهمة ليلقى حتفه. وكان شاعرًا متمكنا مـــن الـــشعر الغنـــائي، تغنـــى لأنصار الآداب والفنون ولفضل الحياة في القصور الملكية.

لبيـــد

يحتل المرتبة الثالثة من حيث الأهمية، بين الشعراء العرب، ولا يُعرف عنه سوى القليل، غير أنه تعرّف على محمد صلى الله عليه وسلم حيث أرسـلته قبيلـة كلب فاعتنق مذهب النبي وصحبه متابعًا له في هجرته إلى المدينة. وقد بقي علـى قيد الحياة بعد رحيل النبي. وفي عهد خلافة عمر انتقل إلى الكوفة ومات هناك عند بلوغه المائة. لقد اشتهر بكتابته للمعلقة والقصائد التي تحوي القصائد التي ألفها في سن متقدمة وتصف تغنيه بالحب وبالفضائل وبقبيلته وبإحـساسه الخـاص تجـاه الطبيعة.

عنتـــرة

هو من أصل متواضع، ابن لإحدى الإماء، وبسبب إنكـار والـده لـه فقـد اقتصرت حياته في فترة المراهقة على العبودية، ولكنه فيما بعد استعاد حريته عن طريق المصادفة[*]. كانت حياته مليئة بالمغامرات وبأحداث تصلح للروايات، وقـد اكتسب الشهرة بفضل مآثره في مبارزة قبائل أخرى، تغنى للحب وللوفـاء وتـردد اسمه بكثرة في الأدب العربي.

النابغــة

هو شاعر وصل لدرجة عالية من النبوغ في زمنه واعتبره الناس أسـتاذًا، وهذا الاسم ليس اسمه الحقيقي ولكنه اللقب الذي اشتهر به والذي يعني "من يرتجل الشيء ويبتدئه" بسبب موهبته في تأليف أشعاره[**]. لقد عاش في حقبة النعمان ابن المنذر ملك الحيرة في القرن السابع من عصرنا وقبل النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بقليل. كان شاعرًا جديرًا بالاحترام وكاتبًا عبقريًا للمعلقات، يتغنى لأنصار الآداب والفنون ولمتع الحياة.

(*) المشهور أنه تحرر لبطولته فى الدفاع عن قبيلته. (التحرير)

(**) المشهور فى تسمية "النابغة" أنه قال الشعر وأجاده بعد أن تقدمت سنه ولم يكن معروفًا به. (التحرير)

الأعشـــى

كان شاعرًا على أعلى درجة، اسمه الحقيقي ميمون بن قيس، وهو من أكبر شعراء المعلقات. تتسم أعماله بتنوع العروض وأسلوبه الرائـــع. ترجـــع شـــهرته العريضة إلى عمله في مديح الخمر، والذي يعد نموذجًا يُحتـــذى بـــه فـــي الآداب الشرقية، وأيضًا إلى قصيدته الغنائية التي يحتفل فيها ببعثة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم، وكان له تأثير كبير في المؤلفات الشعرية في أدب الشرق.

٣- الأدب الإسلامي: القرآن

إن القرآن بالنسبة للإسلام هو الكتاب المقدس وكلام الله نقله حرفيا محمـــد- صلى الله عليه وسلم (٥٧٠- ٦٣٢م) بنفسه.

يتألف من فصول تسمى سور، ويعني "قراءة أو تعليم"، وفي بعض اللغـــات السامية الأخرى يُعرف بالفرقان الذي يعني الوحي. من وجهة نظر المسلمين، يعـــد القرآن معجزةً باقيةً ودليلاً قاطعًا على أن الإسلام دين إلهي يتصف ببلاغة سماوية عالية لا يمكن أن يصل إليها أي إنسان.

وينقسم القرآن إلى مائة وأربع عشرة سورة يتكون كل منها من عدد مختلف من الآيات بينها سجع ولكن دون قاعدة محددة. ويعد كتابًا نثريًا متجانسًا مثل كتـــب الحكمة في العهد القديم.

لقد نزل أثناء السنوات التي قضاها محمد - صلى الله عليه وسلم - في نشاط ديني وسياسي، ودوِّن في عهد الخليفة عثمان عام ٦٥٠م(*).

(*) دُوِّن القرآن فى عهد النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - كاملا لأول مـــرة علـــى الأدوات الأولية التى كانت ميسورة وجمع مرة أخرى فى عهد أبى بكر على جلد الرق (جلد الكرش) من الحيوان، وأعيد جمعه للمرة الثالثة والأخيرة فى عهد عثمان، وهى التى تعتمـــد عليهـــا طباعة المصحف إلى يومنا الحاضر. (التحرير)

تنقسم السور إلى مجموعتين: الأولى تشمل السور الخاصة بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم في مكة وهي سور قصيرة ذات أسلوب شعري وحماسة دينية. أما الثانية فتضم السور التي نزلت في المدينة وهي أطول من الأخرى وتحوي مبادئ وتعاليم لها طابع عقائدي. وتكمن أصالة القرآن في أنه يجمع عناصر يهودية ومسيحية وعناصر من الوثنية العربية القديمة، وبذلك اكتسب شكلاً متميزًا واعتُبر بداية الأدب الديني في النثر العربي. وقد كون محمد صلى الله عليه وسلم وسيلة اتصال قديرة مع شعب لديه حساسية مفرطة أمام سحر اللغة الجميلة.

لقد نشأت آلاف الأساطير حول هذا الكتاب المقدس، فيقال إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الوحي عن طريق السماء فكان يأتي له مَلَك وهو في إغفاءة ويوحي له بالحقيقة الإلهية التي يأخذها محمد بأمانة، وبعد انتهاء الوحي أملى محمد على الكتبة الكلمات النبوية. ويعد التنظيم الحالي لسور القرآن من صنع البشر(*)، فبعد وفاة النبي بفترة طويلة تقرر جمع أجزاء الوحي المنفصلة في عمل واحد. وقد حدث ذلك في عهد الخليفة أبى بكر بمعاونة تلميذ مباشر للنبي هو زيد ابن ثابت. وتم ترتيب سور القرآن دون مراعاة الترتيب التاريخي ومع التركيز على طول السور، ففي الأول ترد السور الطويلة ثم القصيرة وقد نزلت هذه السور الطويلة في الفترة التي كان محمد صلى الله عليه وسلم يقود المؤمنين كأنه نور أرسله الله برسالة نبوية في العالم الإسلامي.

إن الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم كانت تحث أبناء أمته على فعل الخير وإتمام مقتضيات الإيمان والتذكير بيوم الحساب وفكرة الجنة والنار التي كانت تُستدعى بطريقة غاية في الجمال: "إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ، وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ، (...)، إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ". (الانفطار).

(*) الرأي الراجح عند علماء القرآن أن ترتيب السور والآيات (أو التنظيم) بتوقيف من الرسول- صلى الله عليه وسلم، أمره به ملاك الوحي جبريل – عليه السلام. (التحرير)

وبصفة عامة فإن السور التي نزلت قبل الهجرة إلى المدينة هي التي يزداد معها الشعور بأنه مؤسس للدين ونبي بحق أو مُوحَى إليه. أما بعد ذلك فإن آيات القرآن كانت أكثر طولاً وتفصيلاً فشعرنا معها أنه مُشَرِع ورجل دولة. وبالتالي يعد القرآن من أنقى آثار الأدب الديني والشعبي ويستحق نفس مكانة التوراة وزند فست (زرادشت)، فقد أصبح القرآن فيما بعد النموذج الذي يحتذى من جهة النحو والأسلوب في الأدب العربي.

لقد أدى تفسير القرآن إلى انشقاقات عديدة في الحال، فمع ظهور المدارس الفكرية أحيا المفسرون الجدل بين الأصوليين والمفسرين اللغويين لهذا الكتاب المقدس.

وهنا يجب ذكر الصوفية الذين يظهر في فكرهم بوضوح التأثير المسيحي والأفلاطوني الحديث والهندى، ومن بينهم الحسن البصري (المتوفى في ٧٢٨م) والمحاسبي (المتوفى في ٨٥٧م) والحلاج (المتوفى في ٩٢٢م).

وفي الفكر الفلسفي، برز أيضًا الكندي (المتوفى في ٨٧٣م) وابن سينا (المتوفي في ١٠٣٧م) والغزالي (المتوفى في ١١١١م) صاحب كتاب "إحياء علوم الدين" الذي يعد أفضل وأكمل كتاب عن الدين الإسلامي.

وفي منتصف القرن العاشر تكونت في البصرة جماعة "إخوان الصفا" الذين نشروا موسوعة ذات محتوى غنوصي وأفلاطوني محدث، وكان في تفسيراتهم أساطير ونظريات مجردة. لقد أدى الاعتقاد في أن الله أوحى بالحقائق باللغة العربية إلى وجود شعور بالإعجاب والاحترام لهذه اللغة وأيقظ الاهتمام بممارستها نحو سلسلة من المساهمات اللغوية والتقنيات.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري، يذكر الكاتب مازودي أنه من بين الكتب التي تُرجمت من الفارسية إلى العربية هناك قصة بعنوان "ألف قصة" ولم يتغير عنوانها عند نقلها إلى العربية ولكن الشعب أطلق عليها "ألف ليلة وليلة" وهي مجموعة من القصص المعاصرة وليس لها تاريخ معين.

وقد ظهرت في أوروبا في القرن السابع عشر على يد المستشرق الفرنسي Galland وتضم أكثر القصص الشعبية مثل: علي بابا والأربعين حرامي، ومغامرات سندباد البحري، وعلاء الدين والمصباح السحري.

أما مدارس النحو المعروفة في البصرة والكوفة فقد طغت عليها مثيلاتها في بغداد حيث تم تكوين مبادئ لغوية أفادت في تنقية اللغة، ووضع نظريات اللغة العربية يونانيون وأتراك وفرس اعتنقوا الإسلام.

من شعراء الأدب الإسلامي الذين يجب ذكرهم:

لقمان

لا توجد معلومات عن سيرته سوى أنه ينتمي إلى قبيلة عاد، وكان له صيت واسع في عهده، ولقب بالحكيم. عاش في فترة الهجرة، ويُنسَب إليه النوع الأدبي "حكايات الأساطير" غير الأصلية(*)، فبعض المدافعين عنه يعترفون بتأليفه لهذا النوع، أما الآخرون فيرون أنه بدون الأسلوب الشرقي لها فهي مجرد تقليد لحكايات الأساطير الأوروبية ولمؤلفين آخرين.

وقد تُرجِمت أعماله إلى اللغة الأوروبية في القرن السابع عشر كما أن مخطوطاته النادرة ليس لها طابع شرقي.

الترانتيني

يعد من أبرز الشعراء، سيرته الذاتية معروفة مثل إنه كان مُدرسًا في بغداد في الجامعة النظامية في عهد نظام المُلك وإنه توفي في عام ١١٠٧م.

لقد كان شاعرًا محبوبًا يفتخرون به في الشرق، ذا مهارة غير عادية وقدرة على التنوع في الأساليب وتمكن مطلق من اللغة. ألف قصيدة تكريمًا لنظام الملك يظهر فيها تمكنه من الأسلوب الأدبي وكتب بأسلوب شعري موضوعًا فقهيًا عن أستاذه الغزالي بعنوان بسيط Vasit.

(*) يقال إن لقمان بن عاد غير لقمان الحكيم، أولهما له صفات أسطورية ينسب إلى العرب الجنوبيين، وأما ثانيهما فهو الذى أثنى عليه القرآن الكريم، وينسب إلى النوبة أو السودان. (التحرير)

أبو تمام حبيب

وُلِد في جاسم وهي بلدة تقع بين دمشق وطبرية في عام ١٧٠ من الهجرة (٧٩٢م) ومات في الموصل. تعلم في مصر وسرعان ما اشتهر بسبب أسلوبه ومخيلته ولُقب بأمير الشعراء.

عاش في عصور خلفاء محبين للآداب والفنون فتغنى لهم وتمتع بالثراء والرخاء. وتتألف أعماله من ثلاث مجموعات شعرية تنتمي إلى دواوين تعد أفضل ما كتب من الشعر العربي قبل محمد صلى الله عليه وسلم وبعده، والمجموعات هي: الحماسة وفحول الشعراء ومختار أشعار القبائل.

المتنبي

وُلِد عام ٣٠٣ هجرية (٩٢٥م) لأسرة رقيقة الحال من قبيلة جعف وكان رجلاً موهوبًا ذا شخصية قوية. ادعى النبوة ومن هنا نشأ لقبه "المتنبي" بمعنى "النبي المزيف" أما اسمه الأصلي فهو أبو الطيب أحمد بن الحسين.

كان يتمتع بقريحة شعرية شديدة وقوة وحماسة فنصب نفسه قائدًا واجتذب العديد من التابعين والتلاميذ من القبائل الصحراوية، ولكن تطلعاته باءت بالفشل حيث هُزِم وسُجِن ثم استعاد حريته فيما بعد.

وبعد ذلك كرس حياته للشعر ولمدح مآثر محب الآداب والمدافع عنه أمير حلب سيف الدولة. ولكنه كان شخصًا قلوقًا فانتقل إلى بلاط مَلِك مصر، وتفرغ لنَظْم هجاء شعري في هذا المَلِك فأجبره على الرحيل من مصر متوجهًا إلى شيراز، وهناك عاش في سعادة لعدة سنوات متنعما بإحسان وبذخ الملك. وعند عودته إلى شبه الجزيرة العربية مات مقتولاً في عام ٣٥٤ هجرية (٩٧٦م) حيث هاجمه عدة لصوص وقتلوه.

وقد عُرف بتأليف ديوان أو مجموعة أشعار حظيت على التقدير في الـشرق وشرحها أدباء عديدون فاشتهر كشاعر خصب ذي قيمة عالية.

أبو العلاء المعري

وُلِد في معرة النعمان عام ٣٦٣ هجرية (٩٨٥م) ومات في عـام ١٠٥٧م. وقد فقد بصره وهو صغير للغاية ولكنه درس باجتهاد شديد سواء في موطن رأسه أو بعد ذلك في بغداد.

وعند عودته إلى بلدته انزوى في بيته وتفرغ تمامًا للإلهام الشعري فاكتسب شهرة حقيقية وذاع صيته في كل الأمة العربية. وقد كان شاعرًا فياضًا ذا موهبـة كبيرة ودراية باللغة العربية التي استخدمها في إبداعات شعرية متنوعة. غيـر أن التشدد الإسلامي أدان معتقداته واتهمه بالسلوك غير الأخلاقي وباعتنـاق طريقـة البراهمة.

ومن بين مؤلفاته الشعرية توجد مجموعات متنوعة يبرز فيها زيف حطـام الدنيا وزخارفها ويسخر من عادات البشر ومن افتقار أغلب الأديان إلى جوهر.

ابن الفارض

وُلِد في القاهرة عام ٥٧٧ هجرية (١١٩٩م)(*) ومات في عام ٦٣٢ هجرية (١٢٥٤م) وهو من أصل سوري ولا يعرف شيء عن حياته.

كان شاعرًا صوفيًا عظيمًا تفرغ للتقوى والإيمان الصوفي. لكنه كـان فـي الأساس شاعرًا كبيرًا نقل لنا عبر أشعاره مظاهر من حياته الباطنيـة الروحانيـة والتأملية، ويقال إنه عندما كان يَنظُم الشعر كانت تنتابه إغفاءة ويعاني من رجفات لتلقيه الإلهام.

(*) وُلِد عام ١١٨١م، وتوفى عام ١٢٣٥م. (المترجمة)

حاز إعجاب شيوخ القبائل والوزراء والشخصيات المهمة الذين كانوا يكنون له احترامًا وتقديرًا كبيرين حتى أن قبره لا يزال موجودًا في القاهرة يوقره الناس لحياته النموذجية وصلاحه. وقد ألف الخمريات أو مدح الخمر وهي عمل رائد في الشعر الغنائي الصوفي الشرقي.

الهمذاني

وُلِد في عام ٣٥٨ هجرية (٩٨٠م) في همذان فلُقب بالهمذاني نسبة إلى مسقط رأسه.

وكان ينشد الشعر في الوزير أبي القاسم بن عباد المعروف بسابد والذي أغدق عليه الثروات والعيش الرغد. ولكن لأنه كان شخصًا قلوقًا فقد هجر الوزير وانتقل إلى جرجان ثم إلى نيسابور، وتنافس فيها مع الشاعر أبو بشر الخوارزمي الذي اكتسب شهرة وشعبية بفضل مناظراته.

وسافر إلى مدن أخرى مثل خراسان وسجستان وإقليم غزنة، واستقر بالتحديد في هرات ومات هناك في سن مبكرة في خضم السعادة والمجد، وسبب موته حزنًا شعبيًا عامًا حيث رثاه كل الشعراء.

ومن أشهر أعماله الأربعمائة مقامة أو جلسة والتي تلعب دور البطولة فيها شخصية غير حقيقية، وهو أبو الفتح السكندري وتجري أحداثها في أحوال عديدة من بينها الكدية والتي اشتق منها اسم مقامات الكدية.

الحريري

وُلِد في البصرة عام ٤٤٦ من الهجرة (١٠٦٨م)(*). هو أبو محمد قاسم، أما لقبه الحريري فيرجع إلى مهنة والده كتاجر للحرير.

(*) وُلِد عام ١٠٥٤م. (المترجمة)

اتخذ الهمذاني معلمًا له وأنشد الشعر في الخليفة العباسي المسترشد بالله، وألّف له خمسين مقامة.

أما عمله الأعظم الذي منحه شهرة عريضة فهو المقامات التي - على غرار الهمذاني - تشمل أشياء حديثةً يرويها شخص خيالي، وتمزج بين النثر والشعر والحوار مع شخوص أخرى، وتتناول مواضيع أخلاقية وفلسفية ونقاط ضعف البشر. كما ألف أيضًا كتابًا عن قواعد اللغة العربية هو "ملهاة العرب" وكتب نقدًا نثريًا حول هذا المؤلَّف.

مات الحريري عام ٥١٥ هجرية (١١٣٧م) واستمرت شهرته بعد وفاته بسبب سحر مؤلفاته الذي لا يقاوم وحاز ولع عدد كبير من المعجبين.

فخر الدين

عاش في أواخر القرن السابع الهجري وبدايات القرن الثامن ومات بعد بلوغه المائة. يعد مجازًا عالِم تاريخ فهو هوميروس الشرق.

أهم مؤلفاته كتاب عن تاريخ الأسر الحاكمة الإسلامية، وينقسم هذا العمل إلى جزأين: في أولهما يصف الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الأمير والنقائص التي يجب عليه تجنبها- مثلما فعل ميكافيللي في الغرب -؛ أما في الجزء الثاني فيذكر الأسر المختلفة التي حكمت الإمبراطورية، التي أسسها محمد صلى الله عليه وسلم، منذ الخلفاء الأوائل. وينتهي العمل بانهيار الخلافة في بغداد على يد هولاكو المغولي في عام ٦٥٨ هجرية (١٢٨٠ م).

الواقدي

ويستحق الذكر كأحد أعظم المؤرخين، وهو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي الذي وُلِد في عام ٧٤٨ م ومات في عام ٨٢٣ م.

وقد مارس هذا النوع واصفًا تاريخ فتوحات الخلفاء الأوائل بعد موت النبي بفتح سوريا ومصر وبلاد الشام وأرمينيا والفرس؛ وحققت أعماله شهرة واسعة كما تُرجمت إلى عدة لغات.

المقريزي

وُلِد في القاهرة عام ٧٦٠ هجرية (١٣٨٢م) ومات بعد عمر مديد عام ٨٤٥ هجرية (١٤٦٧م)(*). هو من أسرة صاهرت عليّ سليل النبي، وهو كاتب ذو أسلوب بسيط وفي بعض الأحيان كان يتفرغ للبحث والتجميع وينقل نصوص الأدباء الذين كان يستشيرهم.

ترك أعمالاً عديدةً فقد كان متخصصًا في البحث في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام. ومن أعماله الجديرة بالذكر: "الوصف التاريخي والطوبوغرافي لمصر وخاصة للقاهرة"، ومؤلَّف عن "العملات الإسلامية"، و"الموازيين والمكاييل"، و"تاريخ الأقباط"، و"تاريخ سلاطين الأيوبيين والمماليك"... إلخ.

ابن عيشون

وُلِد في عام ١٣٠٨ م وتوفي في عام ١٣٨٠ م. كان زعيمًا دينيًّا، عاش تحت رعاية عالم اللغة أبو هجيان وكان مدرسًا للتفسير في القاهرة.

وهو يعد علامة بارزة بين علماء اللغة العرب وقد خلف وراءه أعمالاً مختلفة مثل: "قواعد اللغة"، و"مؤلَّف في النحو"، وأعمال لغوية متنوعة مثل: "إعراب أو قواعد التصريف"، و"ألغاز أو دراسات حول الصعوبات النحوية العربية"، و"استحكامات من ذهب" وأعمالاً أخرى غير مذكورة عن نفس الموضوع.

(*) وُلِد عام ١٣٦٤م وتوفى عام ١٤٤٢م. (المترجمة)

ابن خلدون

وُلِد في تونس في عام ١٣٣٢م وتوفي في مكة في عام ١٤٠٦م، وهو ينحدر من عائلة كان لها دور عظيم في فتح المسلمين لإسبانيا. أنجز في شبابه بعض الدراسات، ثم تلقى الدعم من راعيه السلطان أبي إسحاق إبراهيم، ونشأت بينهما صداقة وثيقة، وأصبح كاتب سره الخاص لدى إقامته في فاس.

وقد أثارت موهبته الحسد فتمكن أعداؤه من إدانته، وسُجِن لمدة خمس سنوات، وبعد تجاوز هذه المحنة أحسن إليه السلطان وعاد إلى منصبه، وذهب سفيرًا في إحدى المهمات إلى بلاط ملك قشتالة دون بدرو، ثم كوفئ لنجاحه بتعيينه أكبر حُجَّاب الأمير والوصي على عرش الخليفة البوهي.

وأثناء ما تبقى له من عمر شغل مناصب دبلوماسيةً خاصةً بالشئون العامة، وعاش في أغلب الأحيان في صراعات نفعته في نيل ثقة شخصيات مهمة.

مَرِض في أثناء قضائه فريضة الحج في مكة، ووافته المنية بين كبار المفكرين، وحاز تكريم واحترام الجميع.

٤- الأدب العربي: الانحدار والنهضة

بسقوط بغداد على يد الإمبراطورية المغولية في عام ١٢٥٨م بدأت فترة من التدهور في الأدب العربي باستثناء أدب إسبانيا الإسلامية الذي سينتهي بعد قرنين من الزمن. وهكذا دخلت الآداب العربية في القرن الخامس عشر في مرحلة من السبات لم تستيقظ منها حتى العصور الحديثة.

وهذه الفترة، من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر، لم تكن مميزة ليس لعدم ممارسة الآداب العربية، بل على العكس كان هناك العديد من الأدباء ونُشرت أعمال كثيرة. ولكن ما حدث هو اختفاء الأصالة واقتصار العبقرية

العربية الأدبية على جمع وتقليد الأعمال القديمة في التــاريخ والجغرافيــا والـــدين والنحو ومواضيع أخرى.

ومن بين كبار الأدباء يليق بالذكر المغربي ابن بطوطة عالم الجغرافيا الذي كان يصف أسفاره جامعًا تقاليد القرن الرابع عشر وأساطيره، والمــصلِح الــديني الدمشقي ابن تيمية، والسيوطي جامع الأخبار المصري في القرنين الخامس عــشر والسادس عشر، وعالِم التاريخ المقري التلمساني الذي وصف إسبانيا الإسلامية في القرن السابع عشر.

وقد كان للمسيحيين في لبنان الفضل في الحفاظ على نقاء اللغــة العربيــة، فنتيجة لجهودهم ظهرت في بداية القرن التاسع عشر روح القومية العربية. وبفضل عملهم المشترك مع مصر في الإصلاح الثقافي بدأوا في إرسال الشباب للدراسة في الجامعات الأوروبية، وكونوا بذلك حركة ثقافية أُطلِق عليها النهضة. ومع التــرابط القوي أدى ذلك إلى بزوغ نقاء اللغة الكلاسيكية من جديد فــي القــرن العــشرين لتُستخدم في ممارسة أنواع أدبية غربية مثل الصحافة والمسرح والرواية.

الفصل السابع

القانون في الإسلام: مصادر القانون الإسلامي والعلوم الشرعية في القانون الإسلامي
التراث الإسلامي في العلوم التشريعية الإسبانية

١ – القانون الإسلامي

إن علم القانون مقيد بالضرورة بالحدود الإقليمية لدولة ما والتي لديها أجهزة تشريعية تضع القواعد وأخرى تنفيذية تنفذ هذه القواعد ليجري العمل بالقانون على أكمل وجه.

وبعد انقسام إمبراطورية محمد – صلى الله عليه وسلم – سياسيًا في عهد تابعيه، ظل القانون يحتفظ بكل قوته في الدول التي خرجت من رَحِمِه.

ولم يكن هناك في هذه الدول أي جهة أخرى ذات وظيفة تشريعية بإمكانها سَن القوانين، وفي حالة وجود مثل هذا الجهاز التشريعي كما حدث ذات مرة في الإمبراطورية التركية، أو إذا سمح ملك ما لنفسه بإصدار تنظيمات قانونية وتطلّع إلى إجبار رعاياه على تنفيذها بصفة دائمة كان الوعي الإسلامي الثابت دائمًا على مبادئه يتمرد على مثل هذا التصرف.

وبهذه الطريقة، فالقانون الإسلامي لا يشبه قط القوانين الجرمانية التي تعترف بالسلطة التشريعية للشعب عن طريق مجالسه، كما أن في الشعوب المختلفة يغلب طابع التفرد في سَنّ القانون ثم تعزيزه مباشرة من خلال الإعلام التاريخي؛ ولكن يشترك القانون الإسلامي مع مثيله الروماني في نقطة أخرى هى استحسان الشعوب الأوروبية المختلفة له خلال العصور الوسطى الأولى حتى بداية العصر

الحديث، ولكن سرعان ما يظهر اختلاف كبير بينهما فالقانون الإسلامي يسعى لتنظيم قضايا لا يضعها القانون الروماني ضمن اختصاصاته ولا تخضع لمجال تطبيقاته مثل نصوص المراسم والعبادات.

وفي هذا الصدد يقترب إلى حد ما من القانون الكنسي الذي بدوره لا يهتم بقضايا عديدة لم تضعها الكنيسة ضمن أهدافها ويفصل بين ما هو أخلاقي وما هو تشريعي، بينما القانون الإسلامي بمعنى أوسع لا يستثني شيئًا يخص السلوك التشريعي والسياسي والأخلاقي والشعائري للأشخاص وللدولة. فعلى النقيض يقترب تمامًا من القانون اليهودي الحاخامي، ففي التلمود وفي الأدب اليهودي يوجد شرح وتفسير لنفس المواضيع مع اختلاف وحيد هو أن القانون اليهودي ليس من اختصاصه السلطة القمعية للعديد من الهيئات الحكومية.

وهذه الاختلافات تمهد الطريق لتكون فكرة مسبقة عن ماهية القانون الإسلامي: تنظيم من المشيئة الإلهية لكل تصرفات المسلم حتى في مجالات مختلفة عما يعنيه التشريع في يومنا هذا؛ ومخالفة هذا التنظيم تعد في الأساس ذنبا، وبالتالي تجب المعاقبة عليه، والله نفسه هو الذي يُدين مثل هذه التصرفات بفرض عقوبات سماوية دون أن يمنع ذلك من وجود مؤسسة ذات طابع حكومي تتصرف كممثلة لله أو على الأقل لنبيه. وفي هذا الصدد تعمل بإرادتها أو رغمًا عنها على الحفاظ على النظام في صورته النقية التي يريدها المشرع الأعلى وتطبق لذلك وسائل زجرية مناسبةً. والوحي الذي نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - كان رحمة من الله على عباده خفف بها من وطأة ما قد مضى وسهل للغاية تنفيذ الأوامر.

وفي رأي الفقهاء المسلمين، فإن القانون يضع حدًّا للحرية ضروريًا من أجل التعايش بين البشر الذين من المفترض أن لكل منهم نطاقًا محددًا من الحرية، وإذا لم يوجد مثل هذا التنظيم فسيعوق بعضهم بعضًا عند ممارسة حريتهم.

وبالإضافة إلى أن القانون يلبي هذا الاحتياج، فهو يراعي المصالح الخاصة والعامة، ويضع في الاعتبار سوء استغلال الحرية الذي يضر بالمصالح نفسها لو ارتُكِب، وقد قال محمد – صلى الله عليه وسلم – نفسه طبقًا لإحدى الروايات: "القانون للتيسير وليس للتعسير"(*).

إن تحديد ما هي الأشياء التي يمنعها القانون تمامًا، والتحقق عن طريق المصادر مما يحتوي عليه التنزيل، وما هي المشيئة الإلهية لكل حالة بعينها كل ذلك أدى إلى نشأة أدب ثري تم فيه تعيين علم الشريعة ويمكن فقط مقارنة تطبيق هذا الأدب من حيث الأهمية بمبادئ القانون الروماني المعروفة باسم La Responsa Prudentium في روما.

وحديث محمد صلى الله عليه وسلم التالي يُظهِر ذلك بوضوح:

فقد سأل رسولاً له "كيف تقضي إذا عَرَض لك قضاء؟، قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسُنَّة رسول الله، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟، قال أجتهد رأيي ولا آلو."(**) وهذه هي بالفعل الأصول الرئيسية للتشريع الإسلامي: القرآن والسُنَّة والإجماع.

والقرآن هو كتاب المسلمين المقدس وهو كلام الله نقله كما هو النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – عندما بعثه الله رسولاً. وهو كتاب الحضارة الإسلامية، ويحتوي على عناصر يهودية ومسيحية: فقد ذكر أسفار موسى الخمسة، ووصف المسيح عليه السلام فيه واعترف باليهود والمسيحيين أمة دينية واحدة مسيحية يهودية.

(*) نص الحديث الشريف: "إنما بُعثتم مُيسرين ولم تُبعثوا معسِّرين". رواه أبو داود في السنن. (المترجمة)

(**) لما أراد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يبعث مُعاذ بن جبل إلى اليمن. رواه البخاري. (المترجمة)

وتشتمل التنزيلات الدينية التي جاءت في القرآن على أوامر مثل : الصلاة والصيام والزكاة والحج إلى مكة، وتنهى عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وتنص على مبادئ أخلاقية واجتماعية مثل مساعدة الأسرى والمساكين والحجاج واليتامى. وتوجد بها ممارسات جنائية مثل العفو عن قاتل أخيه المسلم وحقه في التعويض، كما أن عقوبة الاغتصاب هى القتل، وعقوبة السرقة هي قطع الأطراف؛ وتنص على تعدد الزوجات وحق الرجل في اختيار زوجات شرعيات له حتى أربع بشرط أن يستطيع إعالتهن في يسر الحال. ومسموح بطلاق المرأة ولكن دون استرداد مهرها، وإذا تم الصلح بينهما يمكنهما الزواج ثانية.

وفي الميراث، تنتقل الأملاك إلى الأبناء والأقارب؛ وفي ميراث الأسرة يكون للذكر مثل حظ الأنثيين. وتحرر الوصية أمام شاهدين يجب عليهما حلف اليمين. ولكن إذا أدينا بشهادة الزور يسمح بحلف يمين ضدهما.

ويعد الربا خطيئة ولا يجوز قهر المدين الذي لا يستطيع الوفاء، ويعد العفو عن الدين من الفضائل. وهذه المبادئ وغيرها تكمل القرآن الذي يعتبر المصدر التشريعي والديني والاجتماعي الذي بعث به الله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - إلى شعبه المختار(*).

٢- مصادر القانون الإسلامي

إن مصدر القانون في الإسلام هو المشيئة الإلهية Fons essendi ومنها يأتي التنزيل وهو La fons cognoscendi الذي تم حفظه بطرق مختلفة:

إما مباشرة في القرآن: كتاب الله الذي أملاه على نبيه، وأيضًا في السنّة: وهي سيرة النبي الذي يعد نموذجًا موثوقًا به يمكن للمؤمنين الالتزام به، ثم الإجماع من خلال المعونة الإلهية التي يمنحها الله لأمته فيعصمهم من الوقوع جميعا في معصية أو من ارتكاب شيء مناف للأخلاق دون تفكير. وأخيرًا فقد أقرت الكتب الخاصة بمصادر القانون أو أصول الفقه مصدرًا رابعًا وهو القياس

(*) لا وجود لفكرة "الشعب المختار" في الإسلام، بل الثابت أنه - صلى الله عليه وسلم - مبعوث للناس كافة، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ/٢٨) وقال صلى الله عليه وسلم: "وبعثت للناس عامة". (متفق عليه) أي رواه كل أصحاب الحديث النبوي. (التحرير)

أو الإستنتاج القياسي والذي يعد بالأحرى رأيًا تفسيريًا طبقًا للتقنيات الحديثة، ولكن المؤلفين المسلمين يصنفونه مصدرًا "أصل".

ولأن هذا المصدر يتسم بقلة صحته في نظر بعض المدارس والعديد من المذاهب الملحدة، فربما دفع ذلك باقي المذاهب لضمه إلى المصادر الأصلية المذكورة آنفًا.

غير أنه من الملاحظ في هذا التصنيف غياب العادات والتقاليد وأوامر الملوك التشريعية مما يُظهر ضعف مكانتهم.

(أ) **القرآن:** "تلاوة أو خطبة" أو قراءة، وهو في المفهوم الإسلامي نتاج لإبلاغ محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة مَلَك (لم يُعرَف له اسم خاص في المرحلة الأولى للدعوة في مكة ثم حدد النبي في المدينة أن اسمه جبريل) لكتاب سماوي محفوظ في الجنة منذ قديم الأزل، وكل فقرة منه تسمى آية أي معجزة، وهو الاسم الذي لا يزال يُطلق على كل قطعة من سوره المائة والأربع عشرة.

أما إذا كان قد تم البدء في كتابة القرآن في عهد محمد – صلى الله عليه وسلم – فذلك أمر مشكوك فيه(*). وفي عهد خليفته الأول أبي بكر أمر بجمع كم كبير من الأوراق المتناثرة التي تحوي العديد من التنزيلات الإلهية وأجزاءً من القرآن، وعهد بحفظ مجموعة الورق هذه إلى إحدى زوجات محمد – صلى الله عليه وسلم، وفي فترة من الزمن أدى اجتهاد بعض المؤمنين الأتقياء إلى تداول كتابات كاملة للقرآن تصل إلى أربع كتابات، ثم اهتم عثمان بالأمر بكتابة صحيحة للقرآن، ولذلك كان زيد بن ثابت – أحد قدامى كتبة محمد صلى الله عليه وسلم – ضمن مجموعة من الأشخاص استعانوا بتجميع القرآن الذي أمر به من قبل أبو بكر، وقد نجح عثمان في أن تلقى هذه النسخة الرسمية القبول رغم وجود بعض المعارضات.

(*) الثابت أنهم فى الجمع الثانى فى عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه اشترطوا لتدوين أي شيء من القرآن أن يكون ذلك من عين ما دوِّن بين يدَيْ النبي – صلى الله عليه وسلم. انظر الملاحظات السابقة صفحة ١٦٢. (التحرير)

ولم تكن محاولة نسخ النص القرآني باستخدام الكتابة العثمانية بالغة الدقة، ففي المقام الأول كان هناك عدم ثبات في الخط العربي، بالإضافة إلى أنه تم تحقيق روايات أخرى رغم قلتها في مخطوطات عديدة.

ويلقى القانون الاهتمام في عُشر القرآن، في السور المدنية، فلم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يهتم خلال دعوته الأولى في مكة سوى بموضوعات العقيدة، ثم جاء أمر بإنشاء الدولة الإسلامية فاضطر إلى وضع قواعد لها طابع تشريعي. ولأن النص القرآني تنزل من الله فقد كان شيئًا غريبًا أن يحوي ظاهريًّا بعض التناقضات؛ مما سبب بعض الدهشة لدى المسلمين الأوائل الذين على ما يبدو كانوا توصلوا لهذه الملاحظة في حياة النبي. وقد واجه النبي هذا الأمر بآيات قرآنية جديدة، فالآيات التالية تنسخ ما قبلها ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة -١٠٦)(*). ووضح علماء الدين فيما بعد أن هذه الآيات عرضية نزلت في مواقف معينة ثم حلت محلها الآيات العامة التي نزلت لكل المواقف.

(ب) السُنَّة: وهي تعتمد على أساس رائع موجود في بعض كلمات القرآن: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب ٢١).

فكل ما قاله أو فعله محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون أقل من تحقيق للنموذج الذي أنزله الله من أجله، فسنته يجب أن تكون تفسيرًا حيًّا للوحي.

وهذه السُنَّة تتضح في ثلاث طرق: ما قاله: وهي مبادئ غير قرآنية. وما فعله وهو نموذج للتقليد؛ ثم أخيرًا ما أقره وهي أفعال أو عادات صمت تجاهها واستحسنها ضمنيًا. وهذه المظاهر الثلاثة تشكل المعنى العام للسُنَّة.

(*) الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم موضوع معروف وله ضوابطه وشروطه وأحكامه، ويمكن الاطلاع عليه فى كتب علوم القرآن. (التحرير)

ولكن لأن لكل قاعدة استثناء، فبعض ما فعله يعد ميزة خاصة به لا يمكن أن نقلده فيه، فعلى سبيل المثال يدرك المسلمون تمامًا حرمة جمع أكثر من أربع زوجات في الشرع، فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد اتخذ عددًا أكثر من الزوجات فهذه رخصة استثنائية نزلت له خصيصًا. ولا تقتصر سُنَّة النبي على هذا القدر فهى طبقًا لما قُلت أمر قابل للتأويل المحض، وهى مصدر حقيقي للتشريع.

وبعض علماء الدين الذين يستندون، على القرآن يقرون أنه بجانب التنزيلات الموجودة فيه هناك تنزيلات ظهرت في أفعال النبي؛ والبعض الآخر لا يقرون بذلك تمام الإقرار، ولكنهم يرون أن القرآن تنزيلات واضحة أما السُنَّة فهي ضمنية. ويتحدثون عن سُنَّة أشخاص بارزين في تاريخ الإسلام، وهي لا تطابق سُنَّة النبي، فهي ليست مصدرًا للتشريع ولكنها تفيد في إخبارنا عن مدى الإجماع على شيء في فترة محددة. ورغم ذلك، وحتى بدون هذه الفائدة فهي تُعد شيئًا سالفًا ذا قيمة عظيمة، وخاصة عندما يكون الشخص الذي تُنسب إليه السُنَّة من الشخصيات البارزة.

والنقل الصحيح للسُنَّة هو الشفهي، والرواية هي الحديث، أي أن أحد أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يحدِّث أحد التابعين بقول أو فعل للنبي ويجب أن يصل ذلك بسند متصل إلى الراوي الذي يستند إليه باعتباره مصدرًا، ولهذا فإن ضمان صحة الحديث يجب أن يشتمل بالضرورة على جزأين: الإسناد حيث يُذكر أسماء كل ناقلي الحديث منذ البداية، والمتن وهو النص الأصلي كما هو.

وفي الأساس، فإن سيادة الطريقة الشفهية وقفت ضد محاولات تحديد النص بكتابته، ولكن مع الوقت ومع وجود بعض الرواة المشكوك فيهم – الذين أكثروا المادة المنقولة لحجم كبير حتى إن البعض لم تسعفهم ذاكرتهم القوية لحفظ كل هذه الأحاديث – تمت الموافقة على الاستعانة بملاحظات مكتوبة، ومنها نشأ جمع الأحاديث. وللقيام بمحاولات تجميع الأحاديث الأولى فإن الكُتاب وجدوا أنفسهم

مضطرين للقيام بأسفار طويلة ليبحثوا في كل إقليم عما حفظه الناس عن التابعين الذين عاشوا هناك، وبعد ذلك جاءت عمليات التجميع هذه التي كانت بمثابة قاعدة للقيام بإسهامات وتنقيحات تالية، وأول نوع من هذا التجميع هو "المُسندة" التي حققها رجال ثقة (بالإسناد).

ورويدًا رويدًا أصبح للقرآن مكانة خاصة، وتم استخدامه بصورة مباشرة خاصةً فيما يتعلق بالتشريع، وتم اتباع نظام منهجي في المصنفات وقُسِّمت إلى فصول مشابهة لما في الكتب التشريعية.

ثم أدخل كاتبنا العظيم للأحاديث: القرطبي بَقِيّ بن مخلد (المتوفي في ٨٨٩ م) نظامًا يمزج بين المُسندة والمُصنفة وهو: تقسيم المادة العامة إلى فصول مماثلة لفصول كتب الفقه (المُصنفة) وفي داخل كل فصل استبدل بالفوضى المعتادة تجميع طبقًا للرجال المسندين (مُسندة).

ولا يجوز أن نخلط بين جمع الأحاديث وبين التدوين الرسمي. إن استخدام بعض من هذه التجميعات التي قام بها رجال ثقات هو الذي جعل الناس ينكبون عليها. ومن أشهر عمليات جمع الأحاديث ما قام به البخاري (المتوفى ٨٧٠ م) ومسلم (المتوفي ٨٧٥ م). وقد تكرر تفسير هذين الكتابين وإملاؤهما، كما أن ممارسة علوم الحديث التي - في البداية - لم تختلف بوضوح عن التشريع أصبح لها بعد مرحلة الجمع المذكورة مكانة ذاتية وذلك بعد أن حاولت ببسالة أن تتقدم على علم الفقه.

ومع ذلك ونتيجة للصراع بين العِلمَيْن أصبح لكل منهما مجالاته، وتطور علم الحديث وأصبح له منهجية مميزة ونوع من النقد التاريخي الذي يهدف إلى فصل الأحاديث الصحيحة عن الباطلة، وما نتج عن هذا العمل النقدي الذي يتصف بالرسمية الشديدة لا يرضي طموحنا الحالي في معرفة الحقيقة التاريخية للإسلام في أوله.

وفيما يتعلق بالقيمة العامة للحديث باعتباره مصدرًا تاريخيًا، فقد ظهرت مؤخرًا مواقف تشكيك مُبالغ فيها من قِبَل الباحثين الأوروبين، ومع ذلك فمن الملاحظ الاتجاه نحو تصديق نصوص الأحاديث.

ويزخر أدبنا الإسباني بالأعمال عن السُنَّة من مجموعات للأحاديث سواء شاملة أو جزئية وكتب نقدية وتفسيرات، إلخ. وبالتالي، فبالإضافة إلى ذلك، فإن تأثير هذه الكتب الشرقية في إسبانيا كان تأثيرًا مباشرًا ومتميزًا مثلما الحال في أي بلد إسلامي.

(ج) إجماع عامة المسلمين: باعتباره مصدرًا للتشريع، وقد نُسِب هذا المصدر إلى بعض النصوص القرآنية التي لا علاقة لها به، وعلى العكس، فبعض الأحاديث هي التي تبرر بدقة ووضوح لوجود هذا المصدر.

ويقول محمد صلى الله عليه وسلم "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة" (حديث شريف)[*].

وهكذا فإن قيمة هذا المصدر تستند إلى وجود نوع من الرعاية الإلهية تؤكد عصمة عامة المسلمين، ولكن كيف يمكن تقدير هذا الإجماع؟ هناك مَن أدرك أن هذه العصمة خاصة بالصحابة والتابعين، ولكن الأحاديث التي استشهدوا بها لا تُعد دليلاً على قصر فاعلية الإجماع على الجيلين الأولَيْن في عهد الإسلام.

ومذهب الإمام مالك يعير اهتمامًا خاصًا لمفهوم الإجماع في المدن المقدسة وخاصةً المدينة: "السُنَّة المدنية"، ولكنه لا يستثني بذلك إجماع عامة المسلمين.

وفي أغلب الحالات يوضع في الاعتبار رأي علماء الدين، ولكن يؤخذ برأي المسلمين كلهم في المسائل التي يسهل على عامة المؤمنين فهمها.

(*) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن باب السواد الأعظم. (التحرير)

إن للإجماع دورًا عمليًا مهمًا بين باقي المصادر، فهو يراقب تأويل هذه المصادر نفسها، ويؤكد البواعث التاريخية للوحي في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن والسُنّة، كما يُعد أيضًا تعظيمًا شرعيًا للعادات. فبمجرد أن يُعرض يقبله الشعب المسلم دون نقاش، بالإضافة إلى أنه يرجع إليه الفضل في تنسيق بعض الأنظمة التي لا توجد في الكتاب المقدس ولم يهتم بها الحديث مثل تأسيس الخلافة.

(د) **القياس:** وهي كلمة تعني مباشرةً المطابقة، وقد أفادت في تحديد أول عامل مشترك بين الطرق الاستنتاجية. وتشمل وسائل منطقيةً مختلفةً لتطبيق المصادر على أشياء معينة في الحياة التشريعية، ووسائل لسد الثغرات التي تركتها المصادر الأخرى، والتخفيف من التطبيق المتشدد لهذه المصادر من خلال التفسير التشريعي المتعقل والمنصف.

وفي كتاب "أصول الفقه" للإسكافي، يمكن تحديد معانٍ مرادفة للقياس مثل: اجتهاد، واستنتاج عام، ورأي وتفكير. وكلمة رأي يمكن اعتبارها المصطلح الأشمل الذي يُشتق منه عدة أنواع مثل: القياس والاجتهاد والاستحسان والاستصلاح، ويعد الاجتهاد هو خير مفهوم يتضمن قضايا التفسير التشريعي المنصف.

ويجب إدراك الدور الذي يقوم به القياس ومبررات وجوده بين المصادر الأخرى إذا وضعنا في الاعتبار أن هذه المصادر (الأصول) طبقًا للشريعة الإسلامية لا تطابق مطلقًا ما نفهمه نحن لمصدر للتشريع، فمسألة عرض الأصول تشمل تقييم الوثائق التي يوجد بها التنزيل الإلهي، واستخدامها نفسها، كما تشمل التأويل الذي يضاهي القياس بالفعل.

ويجب ألا نغفل عن أن التأويل – مع كل ما يُفترض فيه من أمانة – إذا وضع نصب عينيه تطبيق قاعدة ما في الواقع أكثر من اهتمامه بالتحقيق الفلسفي

واللغوي لما يعنيه المصدر في محتواه التاريخي، فإن أقل ما يمكنه فعله هو أن يضع هو أيضًا وبطريقته الخاصة قواعد أخرى لم ترد في النصوص ولا في الوثيقة التي تُؤوَّل.

والقياس يفسح المجال لأن يكون استخدامه في الإسلام ضرورة حقيقية، وذلك يرجع لأن المبادئ تُصاغ لعدد كبير من القضايا التي تخص موقفًا معينًا وشخصيًّا، فتطبيق هذه المبادئ يحمل معه تطبيقًا للقياس.

ومع ذلك فهناك قضايا يصعُب ردها إلى قضايا أخرى تم حلها بوضوح، وهنا يتم اللجوء إلى القياس الذي ينطلق في الأساس من روح القانون بصفة عامة وليس من القضية نفسها، وذلك لا يعد قياسًا، بل هو تفكر أو رأي.

ولم يلقَ أول أسلوب للقياس معارضة تُذكر، ولكن مع استخدامه بهذه الطريقة حاربه بشدة المسلمون المتشددون، وخاصةً المتخصصون في علوم الحديث الذين خشوا أن تأتي المعايير البشرية المجردة لتحل محل الوحي.

٣- علم التشريع في القانون الإسلامي

إن القانون - بوصفه علمًا يُنظم الحياة الاجتماعية - له أهمية كبرى في الإسلام، وعندما بدأ محمد - صلى الله عليه وسلم - رسالته أخذ يلقن الناس المبادئ الأخلاقية التي إذا لم تُنَفَّذ يصبح لها دلالة تشريعية. وبعد ذلك في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن ظهر تيار لأسلمة القانون، وهذه الأسلمة تمت في صورتين اعتمدت أولاهما اعتمادًا شديدًا على سُنَّة النبي، بينما ارتكزت الأخرى على القرآن والمبادئ التشريعية الموجودة في السُنَّة.

وتم تجسيد ذلك عمليًا من خلال تطبيق مفهومين سبق ذكرهما وهما: الحديث والرأي.

ومع ذلك فإن أكثر التيارات تشددًا - التي ترى أن الالتزام الديني والأخلاقي هو الأساس - اعتبرت أن الأسبقية للحديث؛ بينما الأشخاص العمليون الذين يركزون اهتمامهم في حل مشكلات المجتمع لجأوا إلى تحكيم العقل.

ومن اللازم أن نشرح هذه المفاهيم التي تدخلت في تكوين القانون الإسلامي.

أ- الحديث

نتيجة لاعتبار سُنَّة النبي أو الحديث القاعدة الوحيدة لتنظيم الحياة الاجتماعية، ورَفْض ما سواها، أصبح من الضروري سد الفجوة التي أدى إليها هذا التحيز، فمن بداية القرن الثامن تم القيام بمهمة جمع أقوال النبي وأفعاله التي نُسِبت إليه، وهذا هو ما يتكون منه الحديث. إن المدينة التي مكث فيها النبي السنوات الأخيرة من عمره لها أهمية كبيرة، فهي المكان الذي تكونت فيه السُنَّة أي ما فعله محمد صلى الله عليه وسلم أو ما أمر بفعله.

ومع ذلك فإذا كانت أقوال النبي وأفعاله هي التي تُستخدم قاعدة، فإنه يُنسب إليه أيضًا عادات الفقهاء العامة وآراؤهم، وتبرير ذلك أنه إذا فكروا أو سلكوا سلوكًا مُعينًا فإن ذلك يرجع لما قاله النبي. ومع وجود مثل هذا الكم من الأحاديث المنسوبة إلى النبي، ومع ضرورة التحقق من صحتها؛ نشأ علم الحديث الذي يعني ببساطة دراسة الأشخاص الذين يروون أخبارًا عن النبي، بدءًا من صحابته الذين شهدوا سيرته، مرورًا بالتابعين الذين سمعوا ما حكاه الصحابة حتى آخر واحد يروي الحديث.

ويقوم الأسلوب المنهجي المستخدم على أنه إذا لم يعرف أحد هؤلاء الرواة مَنْ قال أو حكى الحديث يُعد حديثًا باطلاً.

وبالتالي، فالحديث ينقسم إلى جزأين: الإسناد، أى الأشخاص الذين ينقلون الحديث، وهم الدليل على صحته، والمتن (النص) أو ما يقوله النبي. ويتسم موقف

علماء الحديث تجاه التنظيم التشريعي بالبساطة، فهم يعطون الأفضلية لسُنَّة النبي أولاً طبقًا لما يُحكى في الحديث، ويتفادون أي شرح أو تأويل له.

(ب) الفقه

الفقه هو العلم الشرعي للقانون الوضعي، ومَنْ يمارس هذا العلم هم الفقهاء، ومن هذه الكلمة تُشتق كلمة الفقيه. وترتكز منهجية الفقه على الرأي المشترك، أو اتفاق آراء الفقهاء فيما يتعلق بأمور السيرة أو السُنَّة الأولى، والتي رغم أنها شيء ينفرد به النبي فإنها ملائمة للتطبيق على المواقف المستحدثة. كما يطبقون معايير أخرى مثل القياس الذي يُستخدم منذ قديم الزمان، ومثل الاستنتاج المنطقي أو الرأي.

أما مبادرة البحث الدقيق التي قام بها الفقهاء خلال القرن الثامن لتكوين قواعد جديدة للفقه فهي تُعد اجتهادًا، ومَنْ قاموا بها يُطلَق عليهم المجتهدون.

ومن بين هؤلاء المجتهدين أو المحققين يستحق الذكر كل من:

أبو حنيفة

وهو فقيه يُنسب إليه فضل القيام بأول محاولة لتأسيس علم الفقه، وهو يستند على القرآن وعلى الحديث أيضًا مطبقًا القياس، وباستخدام الرأي المتشدد واضعًا نصب عينيه مبدأ (الاستحسان) فكوَّن نظامًا شرعيًا نظريًا يصعب تطبيقه إلى حد كبير عند تطبيقه في حل المسائل.

مالك

اسمه مالك بن أنس (٧١٥- ٧٩٥م)(*)، عاش هذا الفقيه – العملي للغاية – في المدينة ويعتمد على القرآن والحديث. وهو مؤلِّف كتاب "الموطأ" أو الطريق

(*) وُلد في ٧١١م. (المترجمة)

اليسير الذي يعرض فيه مجموع الأحاديث للبحث عن حل القضايا المطروحة. والمصادر التي يستخدمها هى السيرة في المدينة أو سُنّة النبي، حيث يعرض رأي الجمهور أو إجماع المسلمين، وفي حالة وجود خلل ما يلجأ لاستعمال العقل باحثًا عن رأي الفقهاء، وبحس منطقي عظيم يفضل المصلحة المُرسَلة (الاستصلاح) على الاستحسان.

الشافعي

نشأ الفقيه الشافعي (٧٦٧- ٨٢٠م)(*) في المدينة، ثم قام بالتدريس في القاهرة وبغداد، في الفترة التي وضع فيها علماء الحديث علمهم، وهو يعتمد على الحديث في تفسير القرآن، ولأنه كان ذا روح مجددة للغاية رفض الإجماع وما جرى عليه العُرف في المدينة (رأي أهل المدينة)، وإذا وصل به الأمر لقبولها يكون ذلك بإجماع الأمة الذي يظهر في رأي عموم الفقهاء.

ابن حنبل

يمثل الفقيه ابن حنبل - الذي وافته المنية عام ٨٥٥ م - التغيير الفكري في علم الشريعة. كانت فترة قمة مجد الحديث هي الفترة من القرن الثامن حتى التاسع، وكان يحدث خلط بين علم الفقه وعلم الحديث عندما ضيَّق الفقهاء استخدام الرأي والاستنتاج.

ويرتكز ابن حنبل على القرآن والحديث فحسب، ونظرًا لأنهما وحي أنزله الله لا يَستقرئ تعاليمهما أو نتائجهما من خلال الرأي؛ وبالتالي فالإجماع يدل فحسب على إجماع المسلمين أما القرآن والسُنّة فيُفسران حرفيًا.

(*) وُلِد فى ٧٦٠م. (المترجمة)

أبو داود

وُلِد في أصفهان ومات عام ٨٨٣ م، يعتمد على القرآن والسُنَّة، ويستخدم ظاهر المعنى أو المعنى الحرفي مبدأً للتفسير، ولذا كَوَّن المدرسة الظاهرية، ويرى أن الإجماع هو اتفاق رأي صحابة النبي فقط وليس التابعين أو رأي الفقهاء.

وتختلف الأطروحات التي تعرضها كل مدرسة وكل اتجاه مع اعتبار أن هناك أربع طرق مختلفة لتصور الشريعة:

فتلاميذ الشافعي كونوا المدرسة أو المذهب الشافعي، وعلى نفس المنوال نشأت المدارس الأخرى: الحنفية والمالكية والحنبلية.

وقد بقيت هذه المذاهب الأربعة راسخة في العقيدة الإسلامية، ومحافظة على الاختلافات المهمة الموجودة بينها، وانضم الفقهاء إلى مدرسة أو أخرى.

(ج) وصول الحديث والفقه إلى إسبانيا

وقد أدخل الفقهاء الإسبانيون هذه المذاهب في إسبانيا، عدا مذهب أبي حنيفة، وذلك من خلال أسفارهم للشرق التي كانوا يقومون بها للتواصل مع المعلمين العظام.

وقد أدخل علم الحديث إلى إسبانيا قاضي قرطبة معاوية بن صالح (المتوفى عام ٧٧٣م) وفي الوقت نفسه قام صعصعة بن سلام الشامي (٨٠٧م) بنشر تعاليم فقيه دمشق الأوزاعي (المتوفى عام ٧٧٤ م).

وقد أُدخل أيضًا في إسبانيا عِلم الفقه ومذهب الإمام مالك الذي اشتهر بأنه عالِم حديث في نهاية القرن الثامن، حيث تتلمذ على يديه ابن حبيب (المتوفى عام ٨٥٢ م ومؤلِّف إحدى الأعمال الرئيسية) وآخرون مثل سبتون (المتوفى عام ٨١٤ م) وعيسى ابن دينار (المتوفي عام ٨٢٧ م) ويحيى بن يحيى الليطي (المتوفى عام ٨٥٢ م).

وسرعان ما انتشرت في إسبانيا الآراء المالكية، وحظيت بالتأييد الرسمي وذلك لأن مالك كان يمدح الأمويين في قرطبة، مما أثار امتعاض العباسيين، كما أن الدولة الإسلامية في إسبانيا كان تعاني من عدم وجود وحدة بين العرب والشوام والبربر والصقالبة والمولدين والمستعربين (الأندلسيين المسيحيين) فاضطروا إلى الحفاظ على وحدة المذهب أيًا كان الثمن، ولذلك رفضوا أي مذهب آخر.

وقد لقي انتشار المذاهب الأخرى كل أنواع الصعاب وحتى الاضطهاد الرسمي. أما مذهبا الشافعي وابن حنبل فقد دخلا إسبانيا عن طريق بقِيّ بن مخلد (٨١٧- ٨٨٩م) الذي كان يقوم أيضًا بنشر الآراء الحنبلية.

ويتسع المجال أيضًا لذكر ابن حزم القرطبي (٩٩٤-١٠٦٣م)، وهو أديب مشهور ألف كتاب "طوق الحمامة"، وقد كان في الأصل مالكيًا ثم أصبح فيما بعد ظاهريًا وكان له توجه خاص في هذا المذهب وهو الحزمي مما جعله هدفًا للاضطهاد بسبب نشره لمذهبه. وبسبب هذه الاضطهادات بالتحديد لم تنتشر المذاهب عدا المذهب المالكي، وكان أقدم مؤيد للظاهرية هو ابن القاسم (المتوفى عام ٨٨٦ م).

٤- التراث الإسلامي في العلوم التشريعية الإسبانية

في القرنين الثامن والتاسع بعد عملية تأسيس الشريعة الإسلامية انتهى البحث الخلاق واستقرت المدارس المختلفة، التي انضم إليها الفقهاء المختلفون وأصبحوا مجرد طلاب علم (مقلدين)، واقتصر دورهم على اتباع المذاهب الموجودة (التقليد)، وبهذه الطريقة أصبح الفقهاء لا يدرسون مصادر جديدة، بل يدرسون مؤلفات وكتب الفقه الموجودة.

والفقه لا يعد فقط علم القانون ولكنه القانون الوضعي، وبذلك كانت كتب الفقه في إسبانيا الإسلامية - منذ القرن العاشر وحتى الخامس عشر - هي القانون نفسه الصادر من المذهب المالكي الذي كان هو المذهب الرسمي.

(أ) علم الشريعة أو الفقه

أسس علم الشريعة أو الفقه مبدأ شرعيًا يعتبر أصول الفقه لا تكمن فقط في القرآن كتنزيل إلهي واضح ولا في السُنّة كتنزيل ضمني، ولكن تكمن أيضًا في الوسائل التي تُمكن من تفسيرها وهما الإجماع والقياس.

ويحتاج العلم إلى بنية تنظيمية وإلى أسلوب منهجي لتطويره، ولهذا سوف نقوم بتحليل المصادر التالية التي تعتبر معنًى مختلفًا للأصول:

- **القرآن:** مثلما يقول المدجنون، هو كتاب المسلمين الديني والأخلاقي ومصدر التشريع.
- **الحديث:** عند المدجنين الإسبان يضم سيرة النبي وتحتوي على أعمال مالك ومجموعات الأحاديث التي تُرتب طبقًا للمواضيع أي المصنفات التي قام بجمعها البخاري (المتوفي في ٨٧٠ م) ومسلم (المتوفي في ٨٧٥ م) وقد انتشرت في إسبانيا في أواخر القرن التاسع وبدايات العاشر.
- **الإجماع:** إلهام إلهي في معناه الواسع الذي – طبقًا للمذهب المالكي – يظهر في "رضاء الأمة بالإجماع" ويتطابق بالفعل مع رأي عامة أئمة المذاهب.
- **القضاء الاجتهادي (الفقه):** في المحاكم وذلك من خلال الأحكام التي يصدرها القضاة (ومفردها قاضٍ). وهذه الأحكام تكون ذات فائدة إذا كان القاضي الذي يصدرها ذا سمعة راسخة.

وهكذا، ففي قرطبة، في عهد الإمارة أو الخلافة وُضعت مهنة قاضي قرطبة، وكانت أحكامه تؤخذ في الاعتبار. وفي البداية كان القاضي يُذكر وبعد ذلك ينسى الناس مَن الذي أصدر الحكم ثم يبقى الحكم فقط، وهذه الأحكام التي كانت تُحفظ في محاضر مجموعة أو في الديوان شكلت جزءًا من مجموعات، أشهرها ما قام به ابن زياد في بداية القرن العاشر.

- فتاوى الفقهاء الذين أُذِن لهم من بداية القرن التاسع بإبداء رأيهم حول تطبيق المذهب في بعض الأحوال، وهؤلاء الفقهاء المعتمدون (المفتون) يصدرون الآراء أو الفتاوى التي تُعرّف الحلال أو تنصح به أو تعلمه الناس، وكان القضاة قبل إصدار الأحكام يطلبون مشورة بعض الفقهاء الذين كانوا يعرضون ما يتراءى لهم، وكانت هذه الآراء تستخدم في جهات مختصة بالدعاوى فتؤخذ حجةً في صالح مزاعمهم.

وفي القانون الإسلامي الإسباني كان الفقهاء يدافعون عن مبدأ أنه يجب ألا نفعل أفضل شيء بل نفعل ما نستطيع مراعين المصلحة العامة.

وتشتهر في إسبانيا مجموعات الفتاوى مثل: مجموعة أسد بن حارث الإشبيلي (القرن التاسع وبدايات القرن العاشر) ومجموعة أبو الأصبغ الجياني (١٠٩٣ م) في فترة الخلافة، أما في مملكة غرناطة فهناك مجموعة الفتاوى لابن لب (١٣٨٠ م) والفتاوى التي جمعها الونشريسي المغربي (١٥٠٨ م).

- القياس

يُعد القياس أحد مصادر القانون الوضعي المهمة، وقد لقي معارضة في إسبانيا من طرف المدرسة المالكية ومدرسة الظاهريين الذين كانوا يدافعون عن مبدأ التفسير الحرفي.

(ب) كتب الفقه

تعد كتب المدرسة المالكية هي أكثر كتب الفقه انتشارًا، وكانت مادة للملخصات مثل ما قام به الفقهاء الإسبان. وقد تمرد الظاهريون على هذه المدرسة مدافعين عن الدراسة المباشرة للأصول وتفسيرها تفسيرًا حرفيًّا وضيقًا، ومن بينهم

بالأخص ابن حزم القرطبي (٩٩٤- ١٠٦٣م) الذي اضطهده المالكيون. ويجب إبراز أعمال مالك والتي من أشهرها كتاب الموطأ أو الطريق اليسير الذي يعرض فيه طريقته في جمع الأحاديث.

ومن أشهر الكُتاب الإسبان محمد العتبي (٨٦٨ م) وهو مؤلِّف المستخرج أو (مجموعة)، وتشمل أحاديث وآراء للفقهاء، وقد عرفت باسم العتبية، والذي كان كتاب التعليم في إسبانيا وشمال إفريقيا والشرق.

وهناك فقهاء آخرون اشتهروا في القرن الحادي عشر مثل سليمان الباجي (١٠٨١م) المدافع عن الطرق المالكية، وابن مغيث الطليطلي (١٠٦٦م)، وأبو الوليد (١٠٩٦م) وهو مؤلِّف لكتاب مشهور هو "المختصر"؛ أما في القرن الثاني عشر فهناك، أبو بكر الطرطوشي (١١٢٦م) مؤلِّف "مصباح الأمراء" وابن العربي الإشبيلي (١١٤٨م) الذي فسَّر كتاب "الموطأ" لمالك، وابن رشد (١١٩٨م) وهو فيلسوف وفقيه حقق في كتابه "البداية" دراسة دقيقة للمدارس المختلفة وشرح الفروق بينها، ثم ابن خلف (١١٩٢م) صاحب مؤلَّف عن الأنساب، وأبو الوليد القرطبي (١٢٠٣م) وهو مؤلِّف متخصص في قانون الإجراءات.

وفي مملكة غرناطة، اشتهر ابن سلمون (١٣٦٥م) وله كتاب توثيقي، وابن فرحون (١٣٦٩م) مؤلِّف كتاب "التبصرة" عن قانون الإجراءات، وابن عاصم (١٣٥٩- ١٤٥٢م) مؤلِّف "التحفة" وهو كتاب عروضي عن القانون في ضوء التطبيق الإجرائي وقد يكون أشهر ما كُتِب في القانون الإسباني المسلم، ووصلت شهرته للشرق ويرجع ذلك للطبعات العديدة التي صدرت منه، وكذلك لكثرة التفسيرات له.

(ج) قوانين مسلمي الأندلس

مع قيام الملوك الكاثوليك بغزو غرناطة لم ينتهِ تاريخ أدب القانون الإسباني الإسلامي لأن إسبانيا أضافت إلى هذا الأدب الإسلامي الأدب الموريسكي، وكتبت ملخصات باللغة القشتالية ليستخدمها مسلمو إسبانيا في العصور الوسطى الأولى، مثل قوانين المدجنين في القرن الرابع عشر التي وضعها باحث القانون Hinojosa وكانت تعد تطبيقًا للقانون الروماني.

وفي العصور الوسطى كان مألوفا مصطلح "مسلمي الأندلس" "موروس moros" ولكنه لم يُستخدم قط للتحقير بل استخدمه المسيحيون في الأندلس ليشيروا به إلى العرب من شمال إفريقيا أو المغرب المجاور لإقليم موريتانيا القديم، وعلى النقيض فقد كانت كلمة "عربي" يقصد بها العرب من باقي الشرق الأوسط.

إنه كتاب يشتمل على مبدأ المذهب المالكي، ومن بين الخصائص التي يجمعها المؤلِّف ما يلي:

ففي الزواج للمرأة ولي ينوب عنها، وليس هناك عقد زواج دون الصداق، وهو مبلغ محدد وحقيقي يقدمه الزوج لزوجته حتى لو كان مقداره بسيطًا، ويوجد عديد من النصوص حول رعاية الأبناء وتربيتهم.

لقد كانت هذه القوانين تنظم البيع والإيجار وعقود المزارعة الريفية والحرف اليدوية ونظام الدعوى الجنائية وفدية القتل التي كانت تُحسب بالجِمال، مما يشير إلى أن التقاليد غلبت على التطبيق المحلي في صياغة القوانين؛ وكانت عقوبة الرِّدة والفتنة هي الموت، كما نظمت القوانين حق الميراث وغيره.

وفي عام ١٤٦٢ كتب عيسى جابر الفقيه الأكبر ومفتي مسلمي سيقوبية ملخصًا للأوامر الأساسية وللقانون والسُنَّة، وهو تجميع للآراء الفقهية يدور حول مبادئ الإسلام الخمسة: الإيمان بالله الواحد (التوحيد) والصلاة والزكاة والصيام

والحج. وقد كتبه المؤلف بالقشتالية في كتاب واضح وعمل ينظم العلاقات القانونية والعلاقات الاجتماعية مثل الاتفاقات الروحانية والنظافة والنظام الاجتماعي للمدجنين في بلد مسيحي. كما ينظم أيضا الزكاة أو الضريبة الشرعية والجهاد وحقوق الزوجية وعقود الزواج والطلاق والوصاية والعقود والوصية والإجراءات الجنائية والآداب والاستخدامات الاجتماعية الإسلامية. وفي مرحلة تالية كتب القاضي الغرناطي القيسي "نظام الزواج" يجمع فيه التقاليد الإسلامية.

وفيما بعد، حريٌّ بالذكر مؤلّف "تقسيم الميراث"، فمن الملاحظ أن الموريسكيين الإسبان، عند طردهم من موطنهم، ظلوا على التقاليد الموريسكية. وفي القرن السابع عشر في تونس قام موريسكي بلنسي مجهول بنشر عمل لم يسبق نشره.

الفصل الثامن

إسبانيا حلقة الوصل بين الشرق والغرب

١- إسبانيا هوية ثقافية مزدوجة

إن إسبانيا بالنسبة للغرب أو الأندلس بالنسبة للشرق هي جلد الثور هذا، وهي بوتقة لحضارات عديدة. ويرجع ذلك لتنوع الشعوب أو الحضارات التي ارتبطنا بها منذ فجر التاريخ فالشعوب الشرقية مثل الفينيقيين واليونانيين والكريتيين وأيضًا العبريين- بسبب العلاقة التاريخية المفترضة بين مملكة سليمان مع أرجانطونيو ملك تارتسوس- هي الشعوب التي جاءت لنا لأهداف تجارية، كما جاءت شعوب أخرى غزتنا واحتلتنا تاركة لنا ثقافتها (لغتها وحضارتها) مثل الرومان والعرب. لقد قررت روما غزو إسبانيا حيث بدأت مع الحرب القرطاجية الثانية في عام ٢١٨ قبل الميلاد وانتهت تقريبًا مع بداية التقويم المسيحي (١٩ قبل الميلاد) في عصر أغسطس.

وقد جاء الغزو الروماني لإسبانيا على مراحل، ففي المرحلة الأولى تم غزو أندلسيا وليبانتيه وكاتالونيا، وفي الثانية فتحوا لوسيتانيا، وفي الثالثة تم غزو إسبانيا الداخلية حيث حدثت قصة مؤلمة في تاريخنا وهي الاستيلاء على نومانثيا. أما المرحلة الرابعة والأخيرة فكانت غزو شمال شبه الجزيرة وحرب الكانتابريين التى انتهت بالصلح في عام ١٩ قبل الميلاد في عهد أغسطس حيث شيدت مدن باسم ثيسار أوجستا (ثاراجوثا أو سرقسطة) وأمرتيا أوجستا (ميريدة أو ماردة).

وقد أثرت روما في إسبانيا تأثيرًا عميقًا في النظـــام الـــسياسي والقـــانوني، وأيضًا في اللغة (حيث اتُخذت اللاتينية لغة) والأدب. ولم تكن اللغة اللاتينيـــة هـــي لغة المنتصرين فحسب بل كانت اللغة التي يستلزم استخدامها في أي مـــسألة مـــع الإدارة شريطة ألا تكون محلية مجردة، كما كان لهذه اللغة ســيادة وتفــوق علـــى اللغات التي كانوا يتحدثون بها في أوروبا الغربية.

ولم يكن هناك حرب استرداد ضد روما، بل كان هناك مـــا هـــو أفـــضل، التنافس الشريف في مجد التحضر حيث تفوق التلاميذ على الأساتذة. وحري بالذكر عباقرة الأدب مثل سينكا ولوكانو المَوْلُودَيْن في قرطبة، ومثل بورثيـــو لاترونـــي القرطبي أستاذ أوبيديوس وإيخنيوس أمين مكتبة الإمبراطـــور أغـــسطس وعـــالِم الزراعة القادشي كولوميلا وعالِم الجغرافيا بومبوليو ميلا وماركيـــال دي بيلبـــيلس وكينتيليانو أستاذ البلاغة في كالاورا وأيضًا الفيلسوف الرواقي دكيو من ماردة.

وبعد أن غزا بربر الشمال الإمبراطورية الرومانية حدث اتحاد بـــين قبائـــل الجزيرة العربية التي اعتنقت الديانة الجديدة (الإسلام) وغزوا جـــزءًا كبيـــرًا مـــن أراضي الإمبراطوريـــة الرومانيـــة فـــي الـــشرق أو الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة والإمبراطورية الساسانية (فارس القديمة).

ومع بداية القرن الثامن أخذ الفاتحون يتأملون، عبـــر شـــواطئ المغـــرب، أراضي إسبانيا الخصبة وبساتينها التي ترويها أنهـــار غزيـــرة وحـــدائقها الغنـــاء وغاباتها الكثيفة. وكان حلم المحاربين القادمين من الصحراء الجـــرداء أن يـــصبح فتح إسبانيا حقيقة.

وفي تلك اللحظة كانت الدولة القوطية الغربية لقمة سائغة للغزاة – فقد كانت غارقة في أزمة سياسية واقتصادية خطيرة، واهنة بـــسبب الأوبئـــة والمجاعـــات، وبسبب الصراعات الداخلية بين العشائر الأسرية، مـــع انقـــسام طبقـــة الأشـــراف والإكليروس ومع عدم رضا الشعب.

وفي عام ٧١١ وصل طارق بن زياد – حاكم طنجة العربي – إلى جبل طارق ومعه جيش من المغاربة. هزم الملك السيد لذريق في وادي لكَّة وتجاوزوا حدود مملكة القوطيين الغربيين، وغزوا ما بعد جبال البرانس فأوقف زحفهم في Poitiers (معركة بلاط الشهداء) القائد الفرنسي شارل مارتيل. وبعدما هُزِم الإسبان في وادي لكَّة، اتجه طارق صوب طليطلة عاصمة المملكة. ولم يجد مقاومة تُذكر فاحتل الإقليم كله عدا الساحل الكانتابري وأطلق عليه الأندلس وأصبحت إمارة تابعة للخلافة في دمشق. أما أراضي الساحل الكانتابري البعيدة عن سيطرة المسلمين فقد سميت إسبانيا.

وهكذا بدأت بعد ذلك المقاومة لتكوين البؤر المسيحية واستعادة المملكة القوطية الغربية. لقد كان تعداد سكان إسبانيا عند غزو العرب أربعة ملايين إسباني روماني وقوطي تقريبًا استسلموا دون مقاومة تذكر لأربعين ألف محارب، والغالبية العظمى من الشعب كانوا من العبيد الذين أثقلت الضرائب كاهلهم فلم يبدوا أي مقاومة من أجل مملكة القوطيين الغربيين.

وقد اتفق الفاتحون مع الرافضين لحكم السيد/ لذريق الاستبدادي وهم الأساقفة والأشراف ونبلاء عظام آخرين على الإبقاء على ممتلكاتهم وامتيازاتهم.

وفرض المسلمون الضرائب على المسيحيين واليهود فقط دون أن يصروا على اعتناقهم الإسلام الذي قام على مبدأ تسامح الفاتحين مع أصحاب العقائد الأخرى.

ويصر بعض المؤرخين على افتراض أن المسلمين لم يقوموا بغزو إسبانيا، فقد تم الترحيب بوجودهم، لأن جموع السكان اعتنقوا الإسلام. ويعزز هذا الافتراض عدم وجود أي أخبار في كتب التأريخ الإسلامية لهذه الفترة عن وجود مآثر أو أحداث حربية بين المسلمين والمسيحيين، فالمسيحية في هذه الفترة التاريخية كانت

تشكل مجموعة من المعتقدات يشوبها خلط كبير بسبب التشدد من قِبَل رجال الكنيسة فيما يتعلق بتحليل الطبيعة الإلهية أو البشرية للمسيح عليه السلام.

وتنقسم المسيحية إلى تيارين: التوحيد والتثليث. وتم حل الانقسام في نيقية من خلال مجلس للأساقفة وأعلنوا إلحاد أبرز بطاركة الكنيسة، وتم إعدام أغلب المنشقين المدافعين عن التيار التوحيدي أو الاعتقاد في إله واحد مثل أيرنيو أسقف ليون وأوريخنيس ولوثيانو... إلخ.

كما لفظت الكنيسة البعض الآخر مثل أريو ونيستوريو والإسباني بريشيليانو الذي ذُبح. وفي هذه الظروف، وبسبب الصراعات الجدلية التي تمس صلب العقيدة، عانت المسيحية من أزمة هوية هائلة. وفي هذه الديانة يغلب اليقين بالله القادر على كل شيء، وهو اعتقاد يطابق ما يوجد في الإسلام عن الله، مع اختلاف أن الله في الإسلام أكثر تسامحًا مع الشهوات الجسدية لعبيده ولا يثقل كاهلهم بمتطلبات الكهنوت المسيحية.

وبعد أن اعتنق الشعب الإسباني القوطي الغربي الإسلام، تم إعفاؤهم من الضرائب وتحرر العبيد، فهذه العقيدة لا تبيح الرق بين المؤمنين بل يقتصر على الكافرين(*).

وكان أغلب مسيحيي إسبانيا من أصحاب المبدأ الأريوسي، رغم أن رجال القصر الملكي ورجال الكنيسة القوطيين الغربيين تجاوبوا مع الأوامر الصادرة من روما ومع عقيدة التثليث. وكان حكم القلة القوطية الغربية - ومقره في طليطلة - يستخدم أشد أنواع التنكيل والتعذيب مع رعاياه الأريوسيين.

(*) ليس صحيحًا اقتصار إباحة الرق على الكافرين فى الشريعة الإسلامية، بل سعى الإسلام إلى تحرير الرقيق بأن جعل كفارة بعض الذنوب تحرير رقبة مؤمنة، (النساء/٩٢) أو تحرير رقبة (المائدة/٨٩) دون اشتراط الإيمان. (التحرير)

وبعد هزيمة وادي لكّة بشهر حاصر مغيث الرومي - نائب طارق- مدينة قرطبة. ويقول حاييم الزعفراني العالم اليهودي المغربي: "أثناء الحصار انزوى اليهود في مساكنهم ينتظرون بفارغ الصبر النهاية، وعلى عكس ما كانوا يشعرون به تجاه القوط وتجاه رجال كنيستهم لم يخافوا نهائيا من وصول المسلمين، بل كانوا يعلِّقون عليهم كل آمالهم، لأنهم لم ينسوا أن ملوك القوط الغربيين ظلموهم دون شفقة. ولذلك فاليهود - طبقا لما يرويه المؤرخون المسلمون والمسيحيون - شاركوا في تسهيل دخول الجيش الإسلامي إلى المدينة مستخدمين الحيل الحربية، كما احتفلوا بانتصارهم. ثم جعلهم المغيث في خدمته، وائتمنهم على حراسة المدينة. وحدث الشيء نفسه في طليطلة وفي إشبيلية، حيث ترك موسى بن نصير حامية يهودية للحفاظ على النظام".

ومنذ ذلك الحين دخلت إسبانيا في كنف دار الإسلام واندمج المسيحيون والآيروسيون واليهود بتوافق تام في الدولة الإسلامية التي تتشكل.

وهكذا، فعندما تحول يهود إسبانيا إلى أعضاء في إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلنطي إلى الصين، التقوا ثانية مع إخوانهم من الجاليات اليهودية الأخرى في الشرق وفي شمال إفريقيا، واستأنفوا العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

ومن جهة أخرى، فإن المسيحيين الإسبان الموحدين أكدوا ورسخوا هويتهم التوحيدية مع إخوانهم في العقيدة نفسها من المسلمين واليهود.

ونرى أنه من الضروري أن نطرح هذا التوضيح لنشأة إسبانيا المسلمة؛ لندحض التاريخ الرسمي الذي يؤكد دون الاستناد لمصدر أو حجة جادة أن المسلمين فتحوا إسبانيا بحد السيف.

فالقصة الحقيقية تؤكد أن أهل إسبانيا، وأغلبهم آريوسيون، والجالية اليهودية الكبيرة رحبوا بالمسلمين محررين لهم، وشاركوهم في عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم التي كانت بالفعل نفس عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وفي أقل من جيل اندمج المسلمون العرب والبربر تمامًا مع سكان إسبانيا الأصليين، وذلك من خلال العديد من علاقات المصاهرة لأن الغالبية العظمى منهم جاءوا إلى إسبانيا دون نساء. ونفس هذه الأحداث تكررت في القرنين الخامس والسادس عشر، في أثناء اكتشاف وغزو واحتلال أمريكا اللاتينية، حيث استقر الإسبان المشاركون في هذه المآثر في الأراضي الجديدة واختلطوا بالسكان الأصليين بعد تبشيرهم بالمسيحية.

ولدى بعض المؤرخين الإسبان اعتقاد خاطئ أن المسلمين كانوا غزاة متوحشين لإسبانيا ذات الهوية القومية، والتي طردت فيما بعد هؤلاء المحتلين غير المرغوب فيهم. وإذا نظرنا بالعين المجردة للمساحة الجغرافية لشبه جزيرة أيبريا لاقتنعنا بزيف هذا الاعتقاد المذكور آنفًا، فالمتوحشون والغزاة لا يُخَلِّفون وراءهم أنهارًا وجبالاً ومدنًا تكشف أسماؤها عن وجود أولئك الذين تركوا بصمتهم في أمتهم المتحضرة في اللغة والتقاليد والأعمال الفنية، وفي التراث الحاضر الذي صنعوه هم؛ فهذا Guadalquibir اسم عربي (الوادى الكبير) وTajo اسم معرب (التاجُة). ولولا العرب لما كانت هناك مدن تسمى Alcalá (القلعة)، ولا Medina مدينة، ولا Almunia ألمونيا، ولا Alcolea الكوليا، ولا Alcázar القصر، ولا Guadalajara (وادى الحجارة)، ولا Madrid مجريط، ولا Almansa المنزة وكلها تأتي من أسماء الأماكن الجغرافية العربية في إسبانيا.

إن المنزل الإسباني به aljibe (الجُب) (حوض)، وatarjea (الطرحية) (آجر)، وzaguán (عُسطوان) (دهليز)، وalcobas (القبة) (غرفة النوم)، وalfeizares (الفَسحة) (حافة النافذة)، وaiacena (الخزانة) (صوان)، وbaldosas (بلاطة)، وzaquizamí (سقف شامى) (غرفة صغيرة غير مريحة وقذرة)،

وazotea (سطح)، وalbañal (بالوعة). وفي المسكن القشتالي، كان albañiles (البناءون) وalarifes (المهندسون) والذين يتحدثون العربية في الأساس يضعون tabiques (تشبيك) (الجدران الفاصلة) وazulejos (القيشاني) وarambeles (الحنبل) (ورق الحائط) وأشياء أخرى من أجل alhajar (الحاجة) (تزيين) المنزل.

وفي الحائط كانوا يركبون alacenas (الخزانات) (الأصونة) ذات anaqueles (نقال) (الأرفف) حيث توضع الأشياء في azafate (سفط)، وهي كلمة تستخدم في كولومبيا بمعنى صينية، وكانوا يحفظون الماء البارد في alcarraza (الكراز) (الإبريق) وماء البئر في acetre (سطل). وكانوا يدخرون المال في alcancía (الكنزية) (الحصالة) ويحفظون الحبوب في algorfa (الغرفة) (الجرن).

ويمكننا القول إن من بين كل الغزوات التي استهدفت شبه الجزيرة الأيبيرية كان الغزو الإسلامي أكثرها سلمًا، وفي أقّل من عامين تكونت الدولة الإسلامية وضمت مسيحيين ويهودًا، واستمرت حوالي ثمانية قرون حتى ١٤٩٢م.

أما باقي الغزوات على شبه جزيرة أيبيريا فكانت سافكة للدماء، حيث حاول الفينيقيون والقرطاجنيون دون جدوى على مدار أربعة قرون قهر البيتيكوس (المنتسبين إلى النهر الكبير في جنوب إسبانيا) والسلتي ليبريين، كما تسبب الرومان خلال ستة قرون تقريبًا في مجازر رهيبة، مثلما حدث في نومانثيا البطولية التي قاومت الحصار عشرين عامًا ثم دمرتها تمامًا فيالق إسكيبيون إنيليانوس.

أما المسلمون فلم يدمروا شيئًا من الأعمال القديمة التي تركها الرومان مثل الكباري ومجاري المياه، بل أقاموا (حضارة مائية) وشيدوا آثارًا رائعة ما زالت باقية حتى يومنا هذا.

ولكن بعيدًا عن الأشغال العمومية والمعمارية والعجائب العلمية والثقافية المميزة للأندلس فإن أفضل ما يتميز به التراث الإسباني الإسلامي هو روح

التسامح. ففيما يُطلق عليه العصر الذهبي للإسلام، عندما كانت الأراضي الإسلامية تمتد من إسبانيا إلى الصين بين القرنين الثامن والرابع عشر؛ تعايش تحت مظلة الإسلام في جو من الحرية والاحترام المتبادل مسيحيون آريوسيون ونساطرة، والقائلون بطبيعة واحدة في المسيح والأقباط واليهود والبوذيون والمجوس والمانويون والهندوس، وضَمَن لهم الإسلام عقائدهم وتقاليدهم بنظام أهل الذمة. إن مفهوم التسامح هذا الذي نفّذه الإسلام من أكثر من ألف وأربعمائة عامٍ بدأت أوروبا بعد جهد جهيد في تنفيذه منذ منتصف القرن العشرين.

وبعد الغزو القوي والسلمي لإسبانيا ضحى العرب بطليطلة التي كانت بؤرة عظيمة للثقافة والفنون، وذلك رغم اهتمامهم بالاستيلاء عليها عاصمة لمملكة القوطيين الغربيين لكي لا يختاروا عاصمة أخرى. ورغم ذلك ولأنهم امتلكوا بالفعل طليطلة لم يختاروا قرطبة عاصمة منذ عام ٧١٣ م حتى ٧١٩ م.

إن الوضع الذي كانت عليه قرطبة كان مثار الإعجاب، حيث يجري بها نهر الوادي الكبير، وفي القرن العاشر أصبحت عاصمة للعالم المتحضر. والحق يُقال فإن إمكانات التطور الحضري في قرطبة كانت أكبر من طليطلة، ولكن تاريخ الحضارة يبين أن هناك مدنًا كبيرةً تفقد جزءًا من هويتها بسبب مساحتها الكبيرة جدًا، ولا تصبح أبدًا مراكز للحضارة. ولم تستطع قرطبة أن تبرهن على عظمتها المادية إلا عندما أشعت حضارتها ومكانتها في شمال إفريقيا. ويصور لنا المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية باعتبارها خلايا من الشعراء والحكماء والفقهاء والأطباء والعلماء، ويذكر لنا المقري أعمالهم وأسماءهم.

وجدير بالذكر ازدهار قرطبة أثناء الفترة الإسلامية؛ فهناك معلومات أكيدة عن أن تعداد سكانها كان حوالي مليون، وكان بها ثلاثة آلاف مسجدٍ من بينها ثمانمائة في ضاحية صاكوندا، وبها ستمائة حمام عام، وكان عدد الفنادق الصغيرة والخانات ألف وستمائة، بالإضافة إلى أربعة آلاف متجرٍ ودكانٍ وخمس وعشرين

مدرسةً عامةً. وكان يحيط بالمدينة سور على مساحة ٢٦٩٠ هكتارًا. وكانت قرطبة مجهزة بنظام متطور وفريد للصرف وللمياه الجارية، يضاف إليه شبكة إضاءة عامة ونظام عبقري لري الأراضي المنخفضة المحيطة بها من خلال السواقي والترع، تأخذ الماء من نهر جواد لكبير (بالعربية: الوادي الكبير، النهر الكبير).

وفي هذه الحقبة في منتصف القرن العاشر، كانت باريس ولندن قريتين مجهولتين تقريبًا وكانت أغلب مدن أوروبا غير المسلمة في أشد حالات المرض والبدائية. لقد وصل الحال بالأندلس أن أصبح بها أكثر من سبعين مكتبةً عامةً بينما في أوروبا الغربية كان العلم كله حكرًا على رجال الكنيسة فحسب. فمكتبة الخليفة القرطبي الحكم الثاني كان بها ٤٠٠٠٠٠ مجلدٍ قرأها كلها الخليفة نفسه، وحاليًا، يوجد في مكتبة الأسكوريال مخطوط أندلسي في ورق القطن يرجع لعام ١٠٠٩م، ما يدل على أن المسلمين هم أول من استبدل الورق بجلد الحيوان الورق.

ورغم هذا التقدم انغمست الخلافة القرطبية في حروب أهلية أدت إلى سقوطها في عام ١٠١٠ م. وانقسمت إسبانيا المسلمة إلى ثلاث وعشرين طائفة انشغلت زيادة عن الحد في صراعات داخلية، ومكائد ما منعها من مواجهة العدوان على الأندلس من جهة مملكتي قشتالة وأراجون.

٢- التأثير العربي في كل ما هو إسباني

يمكن تعريف الأندلس بأنها حضارة كان لها إشعاع خاص في الغرب وفي الشرق، وبعد أن انطفأ بريقها وسقطت في طي النسيان بالنسبة لأوروبا وبالنسبة للعالم الإسلامي بدت كأسطورة جميلة لا تنتمي لأي من هذين العالمين. إذًا فمن هذا الموضع توصف المراحل الحاسمة لوجودها خلال ثمانية قرون.

وتعد اللغة الإسبانية أول التقاء لنا بما هو عربي، حيث توجد خمسة آلاف كلمة من أصل عربي وخاصة الكثير من الكلمات التي تبدأ بالمقطع (ال)

وهي أداة التعريف العربيـــة، مثـــل almohada (المخـــدة)، وalcázar (القـــصر)، وalfeizar (فتحة النافذة)، وalcahuete (القواد)، وalcalde (القاضـــي) وalbañil (البناء)، وalmirante والتي أصلها أمير البحر أو قائد المركـــب. وعنـــدما نقـــول ojalá فنحن نتضرع باسم الله أو ما يشاءه الله (إن شاء الله).

وكذلك في مجال العلوم توجد كلمة اللوغاريتم وهي مشتقة من الخوارزمي: وهو اسم عالم الرياضيات العربي في إسبانيا في القرن العاشـــر، وكلمـــة álgebra من العربية: البيرا وتعني الجبر. كما أن الأرقام عربية، ومفهوم الكيمياء نشأ مـــن العربية وهي لغة سامية مثل العبرية.

وفيما يتعلق بالمورث اللغوي من أصل عربي في اللغـــة الإســـبانية فلـــدينا التعقيب التالي عن تأثير العربية في الكلام الإسباني: إن الرؤية التي أسسها الإسلام عن العالم في الأندلس من خلال لغة القرآن "العربية" لم تؤثر على المسلمين فحسب بل على كل سكان شبه الجزيرة الأيبيرية. إن أثر طريقة الحياة هذه والتي ســـادت خلال ألف عامٍ تقريبًا لا يمكن طمسه بسهولة كما يزعم البعض. فإذا وضعنا فـــي الاعتبار اختلاف المستوى الثقافي بين المـــسيحيين والمـــسلمين خـــلال العـــصور الوسطى، يصبح أمرًا منطقيًا أن نظن أن الكلمات التي تعبر عن تقنيـــات محـــددة وأغراض ومفاهيم أخرى لم تكن موجودة، أو كان الإسبان يجهلونها فاســـتوعبوها مباشرة لعدم إمكانية ترجمتها. إن بقاء هذه الكلمات العربية في القشتالية قد يعطينـــا أيضًا فكرة دقيقة عن الوضع الثقافي للشعبين، فالمسلمون علّموا الكثيـــر لمـــسيحيي الأندلس.

فكما يقر مينيندث بيدال نفسه: "علمونا أن نحمي جيدًا الجيش بواسطة atalayas (الطلائع) (المراصد) وأن نرسل أمامـــه algaradas (العرّاضـــة) (المنجنيـــق) وأن يهتدي بواسطة adalides (دليل) (قادة) عظام وأن يراقب المعـــسكر بواســـطة rondas (الدوريات) وأن يقوم بعمل ribato (رِباط) (مباغتة العدو الغافل).

وقد أدى تفوق المسلمين الحضاري إلى فرضهم مصطلحات قانونية لم يكن هناك ما يماثلها في البنية الاجتماعية للمسيحيين مثل alcalde (القائد) (العمدة)، و alguacil (الوزير) (حاجب محكمة)، وzalmedina (صاحب المدينة)، وalmojarife (المُشرف) (محصل الضرائب)، وalbacea (الوصية) (الوصي)... إلخ، كما فرضوا أشكالاً تجاريةً مثل almacén (مخزن)، وalmoneda (المنادى) (مزاد)، وquilate (قيراط)، وarroba (الربع)، و quintal (قنطار)، وazumbre (مكيال للسوائل)، وalmudes (مُد: مكيال للحبوب)، وcahices (قَفِز: مكيال)، وfanegas (فينقة: مكيال للحبوب).

ويظهر بوضوح نقل التقنيات والوظائف في كلمات alfarero (الفخّار) (الفخاري)، وalbéitar (البيطري)، وalbañil (البناء)، وalarifes (شيخ البنائين) الذين يبنون وalcantarillas (القنطرة).

وتُستخدم في الزراعة مصطلحات مثل: albaricoque (البرقوق)، وalcachofa (الخرشوف)، وacelgas (السلق)، وalgaroba (الخروب)، وnaranja (البرتقال)، وlimón (الليمون) وهي محاصيل تروى بماء يستخرجونه بالسواقي من aljibes (الجب) وalbercas (البركة). ويساق إلى الحقول والحدائق عبر acequias (ساقية) رائعة وalbañilería (مبنية من الحجر والطوب).

ولا يزال صدى اللغة العربية يرن في حلق الأندلسيين المعاصرين مثل حرف (h) الحلْقي الذي حل في الكلام محل (h) مثلما في كلمة hondo أو حرف (s) الذي ينطق (خوتا) خاء: sepia jibia سيبيا التى تنطق (خيبيا).

وحدث التواصل الآخر مع العرب من خلال القصص خاصة "ألف ليلة وليلة" التي تعد نتيجة عجيبة تفتق عنها الخيال، ونموذجًا أساسيًا للأدب في كل العصور، قرأناها ونحن صغار مثلما قرأنا مصباح علاء الدين ورحلات السندباد وعلي بابا والأربعين حرامي.

وفي إسبانيا، ما بين القرنين الثامن والخامس عشر، طوَّر العرب حضارة تعد أكثر تقدمًا بكثير من الحضارات في باقي أوروبا، وذلك في الطب والعمارة والفلسفة والأدب.

وتعد أعاجيب البناء في هذه الحقبة مثل مسجد قرطبة وقصر الحمراء والخينراليفي (جنة العريف) وقصر إشبيلية تعد آثارًا شاهدة على إبداع العرب الفني وولوعهم بمباهج الحياة التي استمتعوا بها في ثمانية قرون، هي عمر الأندلس في كل جنوب إسبانيا المعروفة اليوم بأندلوثيا.

وهناك حضارتان وسط تناوبتا مع الحضارة المسيحية والعربية، وهما: حضارة المدجنين وحضارة المستعربين.

والمدجن هو أسلوب الكتابة أو الفن الذي شاع بين المسيحيين متأثرين بالمسلمين الذين يعيشون بينهم، وهو أسلوب مشهور، ويمكن ملاحظته في بعض قصائد قمص هيتا في القرن الرابع عشر.

ويقصد بالمستعرب تأثير اللغة القشتالية في العربية مثل الخرجة، وهي أبيات قصيرة كتبها بالعربية الإسبان الذين كانوا يعيشون في أندلوثيا، ولكن بصوت ومعنى ينتمي للإسباينة القديمة التي يطلق عليها القوطية الغربية. وقد فعل ذلك أيضًا اليهود المتأسبنون الذين نسخوا بحروف عبرية قصائد في اللغة الرومانثية البدائية التي كانت لغة الحديث فى القرنين الثامن والتاسع.

بعد ذلك بقرنين قدَّم عرب الأندلس شعرًا غير عادي، قام على النظريات الصوفية حول الحب المستحيل الذي يشرد منه العقل، والذي انتقل بعد ذلك إلى نافارة ومن هناك إلى بلاط بروفنسا عن طريق الشعراء الغنائيين، ولذلك سُمي حبًا مختصًا ببلاط الملك. وسيصبح هذا الشعر القاعدة التي استند عليها فن المسرح والحب المُحرم في "لاسيلستينا" أو (القوادة)، والحب الفروسي في "أماديس دي

جاو لا" وشعر دانتيه الغنائي العجيب وشعر بيترار كــا، وجارثيلاســو دي لابيجــا، وعلى نطاق أوسع شعر المتصوفين مثل سان خوان دي لاكروث الذين اشتقوا مــن هذا الشعر كل الصياغات اللفظية المميزة لحب رائع وروحاني.

وما قامت حركة النهضة الثقافية إلا بفضل الترجمة إلــى اللاتينيــة للكتــب الإغريقية الكلاسيكية في مدرسة المترجمين في طليطلة أثناء القرن الثاني عــشر، حيث كانت تُترجم إلى العربية ثم إلى اللاتينية أعمال بلوتينوس وأفلاطون وسقراط ونظرياتهم الخاصة الرياضية والكيميائية والفلكية التي انتشرت في كل أوروبا فــي العصور الوسطى.

٣- قواعد الاعتراف بإسبانيا ودمجها في الحضارة الشرقية

إن ما تم عرضه مُسْبَقًا يُعرِّف إسبانيا بأنها شعب ذو ثراء حضاري ليس له نظير في أوروبا، ويُعتبر جغرافيًا جزءًا منها، ولكنه يتميــز بطبيعــة وخــصائص عرقية تجعله على الحدود ما بين الغرب والشرق. وهذه الإحداثيات تُعرِّف إســبانيا باعتبارها دولة تقع في محيط قارة أوروبا ولها جوهر وهوية تتأرجح ما بين كلتــا الجهتين الأصليتين.

ولذلك فإن هذه الظروف والخصائص الملازمة للشعب الإسباني تعد أســبابًا صحيحةً تمامًا لكي تستغل الفرصة التي منحها القدر لها لتوفق بين كــلا العــالمين المتباعدين روحانيًا ربما بسبب اختلاف رؤيتهما للمفهوم الإنساني للطبيعة.

فمنذ أيام الحروب الصليبية والغربيون يتفاخرون بتميزهم العنــصري علــى باقي البشرية، ويبدون ازدراءً صريحًا إلى حد ما تجاه الأجناس غيــر الأوروبيــة باعتبار ذلك إحدى خصائص الحضارة الغربية (ومثال على ذلك اضطهاد الجاليــة اليهودية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا في العصور الوسطى الأولى وفي إسبانيا فــي العصر الحديث وطرد الموريسكيين واستعباد المسلمين... إلخ).

فالغرب قد لا يتقبل أفكار الهندوس والبوذيين الفلسفية ولكنه يلتزم الآن بموقف متوازن تجاهها. مع ذلك فإذا أعرب عن مشاعره تجاه الإسلام يتخذ موقف الكراهية المتأصلة بعمق والذى يصل إلى حد التعصب تقريبًا. وبالفعل فإذا ارتكبت جماعة من العرب أحد أعمال العنف في الغرب بمعاونة غير أخلاقية من أشخاص آخرين - من أصل عربي أو لا - فإن ارتكاب هذه الأفعال ينتشر كدويّ البرق متهمين بدون وجه حق باقي الأمة العربية السلمية فى العالم كله. ومع تطور التاريخ لا يزال هذا الموقف ثابتا للأسف حتى الآن.

وبحكم موقع إسبانيا في مفترق الطرق بين عالمين حضاريين تنتمي إليهما معًا عن حق، عليها واجب والتزام أخلاقي أن تتدخل بوصفها محاورًا قويًّا بين الحضارتين بهدف تيسير التوافق بينهما والعلاقات الودية وتشجيع التقارب والاحترام المتبادل لهوية كل منهما وتقاليده وطبيعته.

وهذا الاتجاه العام لضم إسبانيا للغرب وللشرق بسبب هويتها القومية لا يجب أن يقتصر على مجرد تصريح فارغ وأجوف للنوايا الحسنة ويكون مبادئ مجردة، بل من الضروري أن تقوم إسبانيا وحكومتها المستقبلية ببث الثقة في العالم الشرقي بأن في هذه البقعة الأوروبية يقع شعب شقيق هو شعب إسبانيا لديه نفس الهوية الثقافية، وقادر على أن يدافع عن مصالح هذه الحضارة بدافع التضامن وبدافع الجذور الوراثية المشتركة.

وفي وقتنا الحالي رغم أن تشجيع الاستعراب الإسباني حدث منذ فترات عديدة فإنه لم يتطور بصورة كاملة كما قصد مؤسسوه. فمنذ قرن ونصف - ولأقصى حد ممكن - تم دعم الدراسات التاريخية والأدبية والاجتماعية لأسلافنا.

ومع ذلك، فيما بعد، في منتصف القرن الماضي كان عدد الأشخاص المتخصصين في هذه الدراسات قليلاً بسبب الأحوال الاقتصادية من ندرة الوسائل

المتاحة، ولكن أحوال بلدنا تغيرت الآن مما يسمح بتفرغ أكثر وأفضل لهذا المجال، كما أن الحكومات الموجودة أيا كانت أيديولوجيتها قامت بمبادرات قليلة لتشجيع هذه الدراسات.

وكان هناك عصر ذهبي بدأ بتأسيس مدرسة الدراسات العربية في عام ١٩٣٢ وانتهى بموت المستعرب العظيم السيد إميليو جارثيا جوميث في عام ١٩٩٥. ومن بين الأعمال الفكرية يجدر بالذكر ما قام به مؤسس المدرسة المذكورة إميليو جارثيا جوميث صاحب أوائل الترجمات للأدب المعاصر وأعمق الدراسات للخرجة وللموشحات وللكتابات الشعرية.

ولم تفعل الحكومات التي تعاقبت على إسبانيا سوى القليل لتسهل التبادل الثقافي بين دولة إسبانيا والدول العربية الحالية. ومن المؤكد أيضًا أنه من الناحية الأخرى فإن الحكومات العربية لم تُبدِ اهتمامًا بنشر ثقافتنا عبر لغتها. فالسلطات الإسبانية والعربية لم تأخذ مأخذ الجد تلك التصريحات الرنانة التي تصدر في المؤتمرات والمجالس. ولم تحاول أي حكومة أو سفارة على الإطلاق أن تطلب – كرد فعل – إضافة اللغة الإسبانية في تعليمها الثانوي أو من الجهة الأخرى جعل العربية لغة ثانية أو ثالثة في إسبانيا حتى في محافظات الحكم الذاتي الحالية الواقعة في أراض ذات هوية ثقافية إسبانية إسلامية. ولذلك فبعيدًا عن الدعاية السياسية والتي تتخذ الآن شكلاً دينيًا فإن المجهود الثقافي لا يزال غائبًا عن الساحة بشدة.

وتواجه إسبانيا تحديات، فعلى المستوى القومي يجب أن تستعيد هويتها العربية الغائبة مثلما يوحي عنوان هذا العمل المتواضع، وهي تأمل في تغيير مصيرها مستقبلاً؛ وعلى المستوى الدولي أن تكون دولة وسيطة بين كلتا الحضارتين. ويحدوها الأمل أن تصبح يوما ما عن قريب حلقة الوصل من أجل الاتحاد والتفاهم وأن تسهم في تحقيق التوافق والود بين دول متخاصمة، وذلك في إطار الاحترام المتبادل للتقاليد ولأنماط الحياة اليومية لكل شعب.

وفي الوقت الراهن يعد المجتمع الغربي غارقًا تمامًا في عشقه للأفكار ذات المكاسب المادية، ويبذل لذلك قصارى جهده، مبتعدًا تمامًا عن المفهوم الديني للحياة والذي كان حاضرًا في الماضي. وهناك دلائل واضحة على أنه لن يكون هناك أي تغيير في القريب العاجل.

وعلى النقيض، فالمجتمعات الإسلامية حافظت على مدار قرون على التفسير الديني للحياة، كما أن معتقداتها وروحانيتها هي الثوابت الأساسية لكل مسلم بينما تجعل من المكاسب المادية والرفاهية مرتبة ثانوية في اهتماماتها.

إن الانقسام في النظرة الفلسفية الدينية للحياة الإنسانية وفي الأسس الروحانية والمقاصد الاجتماعية هو الشيء الثابت الذي يفصل الإسلام عن الغرب، وهي أشياء يجب بكل تأكيد أن يتم التغاضي عنها من الطرفين بحيث يعيش الكل بجانب الآخر في ود وصداقة.

ومن المؤكد أننا نعيش في عالم ديناميكي حيث يحتاج كل كائن بشري إلى غيره، كما أن تغير التوقعات الاقتصادية بين الدول المتقدمة والدول الأقل تقدمًا يؤدي إلى الهجرة تجاه الحضارة الغربية بحثًا عن موارد لتحسين أحوال المعيشة. ولذلك سيُحدث بعد عدة قرون اتحادًا بين كلتا الحضارتين وسيكون اتحادًا إيجابيًا لأنه من الناحية السلمية، يجب على الحضارة الشرقية أن تعيد التوازن والروحانية المفقودة للحضارة الغربية الغارقة حاليًا في حالة من المجون الأخلاقي وخلاعة التقاليد.

وإذا كانت إسبانيا تريد أن تكون في المستقبل عنصرًا دوليًا فعَّالاً في هذه المهمة النبيلة التي منحها إياها الله في قدرها التاريخي، فمن الضروري أن تعمل بشجاعة على أن تكون محط تغير عميق من أجل استعادة هذه الهوية الشرقية الغائبة من خلال برنامج للتغيير يحقق لها هذا الهدف. وسيكون لهذه التحولات أثر

على الصعيد المحلي وعلى الصعيد الدولي. على الصعيد المحلي، فـإن الوسـائل المقصودة لتحقيق هذا الهدف هي:

١- **الجانب اللغوي**

إدخال العربية كلغة ثانية أو ثالثة في التعليم الابتدائي وتـشجيع الاتفاقيـات الثقافية المتبادلة بين البلاد في هذا المجال وزيادة أبحاث اللغة ومظاهرها الأدبيـة في النطاق الجامعي.

٢- **الجانب التشريعي**

تغيير محتوى القوانين المدنية والجنائية فيما يتعلق بمصادر القانون، وجعـل القانون الإسلامي مصدرا احتياطيا ليطبق على الجالية الإسلامية الموجودة حاليًا في مجتمعنا والتي تقدر بحوالي ٥٥٠٠٠٠ نسمة (ما بـين ٣٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ مـسلم إسباني من الذين اعتنقوا هذا الدين؛ ٩٠٠٠٠ مسلم في سبته ومليلـة و ٤١٥٠٠٠ من شمال إفريقيا والشرق الأوسط مقيمين لأسباب مهنية و١٠٥٠٠ طالب من بلاد الشرق الأوسط وشمال إفريقيا).

وترتكز الشريعة أو القانون الإسلامي على المصادر التالية:

- القرآن.
- سُنّة النبي.
- الحديث.
- الإجماع.
- القياس.
- الفقه.
- فتاوى الفقهاء.

وعلى الصعيد العالمي فإن وسائل تحقيق هذا الهدف هي التالية:

١- جانب القانون الدولي

تَخلِّي إسبانيا المطلق عن أي تدخل حربي - مباشر أو غير مباشر- ضد أي دولة إسلامية، أو التدخل بمعناه الشامل لأغراض إنسانية من خلال منظمات رسمية ننتمي إليها (منظمة الأمم المتحدة والناتو) ويتحتم علينا أن تضع رأى مجلس الدول الإسلامية في المرتبة الأولى لتعرف إذا كان يقبل أم لا احتمالية التعاون في هذا الصدد. ويحق لإسبانيا مبدأ واحد من القانون الدولي وهو الدفاع المشروع.

ولا يجوز إساءة فهم هذا الالتزام الذي أطرحه باعتباره تحديدًا للسيادة الوطنية، بل على العكس فهو موقف يعتمد على هويتنا وتآخينا مع العالم الإسلامي.

ومن الناحية الأخلاقية، علينا أن نرفض الحروب بين الإخوة، ونقوم في نفس الوقت بالمهام المذكورة من الوساطة والتحكيم بين الحضارتين.

٢- الجانب التشريعي

إعادة القوانين التاريخية للمدجنين الإسبان - في الممالك الإسبانية المسيحية - في كل إسبانيا والمُعترف بها محليا في القوانين التالية:

قانون Vall de uxo (Castellon) الذي وضعه دون خايميه الأول، الملقب بالغازي ملك أراجون، الذي أذن بتعليم القرآن بحرية والحكم في دعاويهم الخاصة بالماء كما في الماضي وبيع العقارات الجيدة للمدجنين وليس للمسيحيين.

قانون شاطبة الذي وضعه ملك أراجون دون خايميه الأول الغازي، والذي يُمكِّن المدجنين من استبدال القاضي في الدعاوى، ويمكنهم اللجوء فقط للملك أو لقاضٍ مسلم يحكم وفقًا للسُنَّة التي يُعلِّمونها لأبنائهم.

وبذلك، فبالاعتماد على هذه القوانين التاريخية المذكورة ستقبل الجالية الإسلامية الموجودة في إسبانيا هذا الامتياز بمبادرة الحكومة بالاعتراف بهذه الهوية المزدوجة عن طريق إعادة المحاكم الإسلامية التي كانت موجودة في الماضي.

يجب أن تكون هناك مؤسسة لإقامة العدل الإسلامي يديرها الأئمة الذين يقومون بمهمة مزدوجة: بوصفهم أعلى سلطة دينية من جهة، وقضاة المسلمين من جهة أخرى؛ ويكون المسجد هو المكان الذي يُقام فيه العدل. وفي قرطبة كان يوجد قاضي المسلمين أو قاضٍ يحكم في التظلمات كما في قرطبة الأموية يساعده كاتب وفقيه مستشارًا للحكم في كل إسبانيا وثلاثة قضاةٍ إقليميين وكان اختصاصهم وموقعهم هو التالي:

إسبانيا الشمالية: التي تضم مقاطعات جليقية وأشتورية وكانتابريا ولاريوخا والباسك وأراجون وقطلونية ونافارة وبلنسية والجزر الشرقية (البليار) التي مقرها سرقسطة.

إسبانيا الوسطى: وبها محافظات قشتالة – ليون، وقشتالة – لامانشا وإكستريماداورا ومقرها طليطلة.

إسبانيا الجنوبية: وبها أندلوثيا ومُرسية وجزر الكناري وسبتة ومليلة ومقرها غرناطة.

ومع ذلك، وبسبب الحدود الإقليمية الواسعة، ومن أجل تسهيل تدبير العدالة في الأماكن التي يقطن بها أكبر عدد من المسلمين يمكن تأسيس مراكز للقضاء تخضع في الأساس لأسباب تاريخية ولوجستية، أو بها أكبر تيار من المهاجرين (فعلى سبيل المثال يتبع قاضي غرناطة المراكز المحلية في سبتة ومليلة وسانتا كروث دي تينيريفي ولاس بالماس دي جران كناريا – إحدى جزر الكناري – والجزيرة الخضراء).

ويحدث الشيء نفسه في دوائر اختصاص أخرى، فعلى سبيل المثال يتبع قاضي سرقسطة المركز المحلي لبالما دي مايورقة.

وقاضي المسلمين والقضاة الإقليميون - باعتبارهم أجهزة استشارية - لديهم مجلس القضاة والمُجتهِد الذي يعرف مصادر الإلهام، ولديهم أيضًا مجلس الفقهاء الذي يصدر الفتاوى أو الآراء الإسلامية ويكون ذلك باسم رئيس الدولة دون أي تدخل من جانب السلطات الإسبانية فيما يتعلق بفحوى هذه الفتاوى ولا تدخل في تنفيذها لأنها تعتمد على قانون القرآن الإلهي.

٣- الجانب الدبلوماسي

نَشْر كل هذه الوسائل المُتخذة في الجوانب اللغوية والتشريعية والقضائية والثقافية في كل المجتمع الأيبرو أمريكي لأنه جزء من هويتنا المشتركة، ونَشْر زاد العلم الثقافي الإسلامي الذي نقلناه لهم بعد اكتشاف أمريكا اللاتينية واحتلالها، وأن يتضمن ذلك أيضًا الجالية الإسبانية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولتحقيق هذه الوسائل المطروحة، من الضروري أن تكون هناك في الغد حكومة شجاعة تشمل هذه الوسائل في برنامجها السياسي وتكون قادرةً على نشرها وتنفيذها حتى لو كان ذلك ضد الرفض المحتمل والمعتاد من جانب قطاعات تقليدية في المجتمع.

وهؤلاء الذين لا يريدون تصور هذه الحقيقة الاجتماعية ويرفضون الفكرة ويُرجِعون معارضتهم لدوافع دينية بالتحديد مع إخفائهم لدوافع أخرى يرتكبون خطأً تاريخيًا لأنها فرصتنا الوحيدة لننضم للمجتمع الإسلامي هذا، وبذلك نكون قادرين أيضًا على أن نندمج في هويتنا المزدوجة هذه لنحقق توافق الحضارات دون أن نتخلى عن هويتنا الأوروبية التي ننتمي إليها بسبب نشأتنا.

إن مبدأ تحالف الحضارات الذي أقره الأمين العام (السابق) للأمم المتحدة، كوفي عنان، من خلال مبادرة الرئيس الحالي للحكومة الإسبانية السيد خوسيه لويس رودريجث ثاباتيرو والسيد رجب طيب أدروغان رئيس وزراء الحكومة

التركية، هذا المبدأ يعد فكرة رائعة لحفظ السلام والتوافق الدولي، ولكنه لن يكون فعّالاً بصورة كاملة إذا لم يغير العالم الغربي من سلوكه مع العالم الشرقي، وإذا لم يحدث ذلك سيظل الأمر مجرد تصريح بالنوايا الحسنة دون أي فعالية تذكر.

فالعالم الغربي بفكره ونظامه السياسي الديمقراطي والحريات الموجودة به يجب أن يقتصر فحسب على البيئة التي ينتمي إليها، ويتعين على الحكومات الغربية من خلال الدول تجنب وضمان عدم التدخل السياسي أو الاجتماعي... إلخ، في العالم الشرقي. ولأن الشكوك تحيط بالمستقبل فيجب تجنب أي نقد أو تعليق من أي نوع حول طبيعة العالم الشرقي القائم بصفة عامة على التقاليد في أنظمة سياسية قمعية سواء كانت مَلَكيةً أو جمهوريةً ولكن نظامها الاجتماعي وتشريعها وهويتها أنزلهما الله من خلال وحيه إلى رسوله النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- دمج الشعوب الناطقة بالإسبانية في الهوية الشرقية

في العصر الحالي الذي يشوبه الاضطراب ويتسم بالعداء المستمر بين الحضارات -- هذا العداء الذي انتهى منذ أيام الحروب الصليبية - لم يكن بين الشرق والغرب أبدا هذا الخلاف الذى ربما نتج عن تدخل العالم الغربي في الحياة السياسية والاجتماعية للشرق، بالإضافة للوجود العسكري للغرب في الأرض المقدسة التي تلقَّى فيها محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة النبوية من الله.

والاتصال مع العالم الغربي في ظل هذه الظروف غير مقبول من الغالبية العظمى من الأمة الإسلامية التي ترفض موقف حكوماتها لأن هذه الصلة ليست صلة صداقة بين العالمين بل هي عداوة وفرض لأنظمة سياسية جديدة على العالم الشرقي الذي يعتبر القرآن – هذا الكتاب المقدس الذي أنزله الله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم – المصدر الوحيد لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والقانونية والدينية.

فحتى القرن الثامن عشر كانت كلتا الحضارتين لديها نفس الاعتقاد التوحيدي حول مصدر السلطة في الكون الذي يأتي من الله وينوب عنه في الغرب الملك أو الأمير، وفي الشرق الخليفة كقائد روحاني للأمة الإسلامية أو أمة المؤمنين. وفي القرن السابع عشر نما في الغرب مذهب العقلانية الذي تجسد في القرن الثامن عشر في الفكر الموسوعي وأتباعه.

لقد غيَّر جان جاك روسو بكتاب "العقد الاجتماعي" الأطروحة في العالم الغربي عن مصدر السلطة، ونَشَر فكرة أن السيادة أو السلطة تكمن في الأمة. وبهذه الطريقة حدث انقسام بين الشرق والغرب، مع وجود رأي مختلف لكل منهما حول فهم حياة البشر واحترام المعتقدات في كلا العالمين.

فعند الشرق يعد عيسى عليه السلام هو أعظم الأنبياء قبل مجيء خاتم الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم، وعلى النقيض فالغرب يرون أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم مُدَّعٍ للنبوة.

وتجاه موقف الغرب هذا حيث عدم الفهم وعدم التسامح غير المقبولين في الوقت الحالي – كما ذُكِر من قَبْل – فإن إسبانيا وتركيا اتخذتا على التوالي – عبر رئيس الحكومة ورئيس الوزراء – مبادرةً لعرض فكرة مبدأ تحالف الحضارات على الأمم المتحدة بموافقة الأمين العام كوفي عنان، وذلك تَحَدٍّ، على الغرب مواجهته بقوة حتى يتسنى له بالتفاهم مع الشرق الحصول على نتائج مثمرة في المستقبل. وكلما زاد مجهود كل الدول وتضامنها واهتمامها بالتعاون من أجل تنمية هذا المبدأ زادت احتمالات النجاح المرجوة.

وتلتزم إسبانيا بالمسئولية تجاه هذه الفكرة بسبب هويتها الثقافية المزدوجة اللاتينية والشرقية، حيث تنتمي إلى كلتا الحضارتين، وعندما قام الإسبان بغزو أمريكا واحتلالها حملوا معهم زادًا من العِلم الثقافي الإسلامي في بداية القرن السادس عشر.

وقد وجدت أمريكا اللاتينية في الإسلام جذورها التاريخيـة، فهـي قاعـدة لحضارتين حيث تأسست هويتها اللاتينية الأمريكية عليهما، إحداهما جـاءت مـن الهوية الحضارية الإسبانية التي تأسلمت ما بين القرن الثامن والخامس عشر فـي جزء من شبه الجزيرة، وفي الباقي، بفضل أصولها وتأثيرها الثقافي والاجتمـاعي في المدجنين، بينما الأخرى إفريقية، وهي أكثر قارة انتشر الإسلام فيهـا. ولهـذا نقلت إسبانيا لأمريكا هويتها الثقافية الكامنة في لغتها وفي مظاهرها الفنية وعاداتها وأدبها وقوانينها... إلخ، وكلها تتميز بأنها إسلامية.

إن الدور الذي تقوم به أمريكا اللاتينية في الوقت الراهن عليها أن تـستمر فيـه في المستقبل القريب؛ وذلك لقدرتها الإنتاجية وثرواتها الحقيقية والكامنة ولأهمية قيمهـا الثقافية، وكل ذلك تعرفه إسبانيا منذ زمن. وذلك سيجعل المستقبل أكثر فاعليـة فهنـاك روابط تجمعنا ولها ما يبررها، ولهذا فإن مستقبل أمريكا اللاتينية يرتبط حتمًا بإسـبانيا، وإذا كانت إسبانيا مندمجة في هذه الهوية الثنائية بسبب صلات أخويـة فـإن أمريكـا اللاتينية ستسير على نفس نهجها. وترغب إسبانيا في وجود أمريكـا اللاتينيـة علـى الساحة الدولية وأن تشارك بتضامن في استعادة هذه الهويـة الثنائيـة وتنـدمج فيهـا وتشارك إسبانيا في مهمة التحكيم والوساطة بين كلتا الحضارتين.

إن التراث الإسلامي ارتبط بشدة بالثقافـة الإسـبانوأمريكية، فمنـذ القـرن السادس عشر في فترة تولي نائب الملك الحُكم في بيرو كانت مدنها التعدينية ومـا زالت معتادة على تدريس الأعمال العبقرية لأساتذة الصناعات اليدوية المـدجنين العظام. ويجدر بالذكر كنيسة شولولا الملكية في المكسيك التي تعد تحفـةً حقيقيـةً على غرار مسجد قرطبة الكبير (إسبانيا) بقبابها وأقواسها التي تمثـل الروحانيـة الإسلامية في أرض مكسيكية.

وفي مقاطعة سانتا ماريا لاريبيرا في مدينة المكسيك يوجد مبنى على الطراز المدجني تم إنشاؤه في عام ١٨٨٤، وفي عام ١٩١٠ تم نقله إلى منتزه سانتا ماريـا

لاريبيرا، حيث يعد هذا الأثر من التراث التاريخي للمكسيك، ويُستخدم الآن في الحفلات الموسيقية والعروض المسرحية والسينمائية وأغراض أخرى متنوعة.

وهكذا فإن أبناء هؤلاء الصُناع اليدويين قد شيدوا رواقًا على الطراز المدجن في جامعة سان كارلوس الوطنية في منتصف القرن الثامن عشر في أنتيجوا (جواتيمالا).

ويجب ذكر أفنية كاليفورنيا المميزة التي توجد في المكسيك وفي الولايات المتحدة الأمريكية والتي تعد تراثًا إسلاميا آخر يحاكي البيت ذا الحديقة الموجود بغرناطة، وهو فناء أو بستان تتضح فيه العناصر الفنية المدجنة الخاصة بالحضارة الإسلامية. وبالإضافة إلى تراث أمريكا اللاتينية الثقافي الإسباني بشقه الإسلامي، فقد استقبلت الكثير من المهاجرين المسلمين من الشرق الأوسط في منتصف القرن التاسع عشر. وفي منتصف القرن العشرين فإن الجيل الثاني من المسلمين المقيمين في مدن مثل سان باولو وبوينوس أيريس وكاراكاس ومدن أخرى أيبروأمركية عاشوا في مجموعات منظمة في مراكز انتشار الثقافة والدين الإسلامي.

ويستمر الإسلام في الانتشار في إسبانيا وأمريكا اللاتينية وأيضًا في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث إن الجالية الإسلامية اللاتينية هي التي تسجل أكبر معدل للنمو. وإذا استمر هذا الاتجاه ستصبح أكبر جالية إسلامية في أمريكا.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يوجد أكبر حشد للمسلمين في ديترويت حيث أُنشئ لهم مسجد. ومن الملاحظ أيضًا في الولايات المتحدة ازدياد الإسلام لسببين: فمن ناحية، الأقليات المسلمة اللاتينو أمريكية من أصل بورتوريكي ومكسيكي؛ ومن ناحية أخرى، الأصل الإفريقي للسكان المولودين في الولايات المتحدة والذين يشكلون مجموعة ستزداد في المستقبل لما لها من تأثير سياسي وسلطة في المجتمع الأمريكي.

وتوجد في كل العواصم والتجمعات في أمريكا اللاتينية مساجد في الأرجنتين وكولومبيا وفينزويلا والمكسيك؛ بينما يقل الوجود الإسلامي في بيرو وبوليفيا والإكوادور وباراجواي.

ففي فينزويلا يوجد ما لا يقل عن مليون مسلم تقريبًا من بينهم فينزويليين (كريوس: وهم أبناء الإسبان الذين وُلِدوا فى أمريكا اللاتينية) الذين اعتنقوا الإسلام، ويوجد خمسة عشر مركزًا إسلاميًا جاري العمل بها في العاصمة وفي باقي البلد: (أنثواتجوي – أراجوا – بوليفار – كارابوبو- فالكون – نويبا اسبارتا – ياراكر – ثوليا، كما توجد مساجد في ماراكايبو وكاراكاس وبلنسية ومارجريتا).

وكذلك في كولومبيا يعيش أكبر تجمع للمسلمين في مايكاو وفي مدينة لاجواخيرا، وفي مراكز إسلامية في مدن مثل: مايكاو وبوينا بينتورا وسان اندريس وبرانكيلا وسانتا مارتا وقرطاجنة ووادي دوبار وكوكوتا وكالي وباستو.

وبهذا الانتشار للإسلام في أمريكا اللاتينية أصبح من اللازم أن يكون لها دور أساسي بالمشاركة مع إسبانيا في استقرار الأوضاع والتفاهم السلمي بين الشرق والغرب. وللمكسيك أيضًا هوية إسلامية وذلك يرجع إلى أصلها الإسباني وإلى أسباب سياسية. ففي القرن التاسع عشر عندما أقامت حكومة بينيتو خواريث نظام التعليم العلماني، فتحت الباب للهجرة العربية إليها وخاصة هجرة اللبنانيين وقد شيدت المكسيك أول مساجدها في مدينة توريون (كواويلا) وهو ما زال يُستخدم. وفي أغسطس عام ١٩٩٥، تم إنشاء المركز الثقافي الإسلامي المكسيكي في مقاطعة el Valle (في المكسيك العاصمة) ويستخدم مكانًا للصلاة ومكتبة. وفي الوقت الحالي يزداد نفوذ الجالية الإسلامية المكسيكية وتنتشر في مدن اتحاد المكسيك الفيدرالي وجوادالاخارا ومونتيري وبيراكروث.

أما في الأرجنتين فيقارن الأديب الكبير دومينجو فاوستينو سارمينتو في عمله "فاكوندو" أو "الفصيح" بين راعي البقر gaucho (جاوشو) في المروج والفارس العربي، فكلمة (جاوشو) مشتقة من الكلمة العربية "الجَوْش"(*) وهي تعني راعي البقر.

وأثناء الغزو الإسباني ارتبطت الأرجنتين بعلاقة بالعرب من خلال الغازي الإسباني فرانسيسكو دي بياجرا - الماريشال وحاكم شيلي ما بين ١٥٦١ و ١٥٦٣ - فقد كان حفيد الموريسكية أيزابل مودارًا، وقد خلَّف وراءه نسلاً كبيرًا في توكومان.

وطبقًا للأبحاث التي قامت على كتب التاريخ لهذه الفترة، كانت هناك هجرة كبيرة في الخفاء من جانب الموريسكيين الإسبان (المسلمين الإسبان الذين لقوا اضطهادًا ظالمًا من محاكم التفتيش في القرنين السادس عشر والسابع عشر) فاستقروا في منطقة نهر لابلاتا والذين أدى وجودهم إلى نشأة ثقافة الفروسية المختصة برعاة البقر gauchos (جاوشوس) في الأرجنتين وأروجواي والبرازيل وأيضًا Huasos (رعاة الأيل) في شيلي.

والجالية الإسلامية في الأرجنتين في وقتنا هذا كبيرة العدد للغاية وتتراوح ما بين ٦٠٠٠٠٠ ألف و٩٠٠٠٠٠ مسلم يعيش أغلبهم في بوينوس آيريس، العاصمة الفيدرالية وفي بوينوس آيريس الكبيرة أو المنطقة المختصة بالعاصمة. ومع ذلك فهناك أقليات مسلمة تعيش في مقطاعات أخرى كما في ميندوثا ولاريوخا وكاتا ماركا وسانتياجو دي لاستيرو وتوكومان ونيوكون.

(*) الجوْش: قطعة عظيمة من الليل، عن المعجم الوجيز. (المترجمة)

وقد تم تأسيس المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية ومقرها في بوينوس آيريس، ويوجد حاليًا ثلاثة مساجد. وتستقر الجالية الإسلامية في سان كريستوبال وباليرمو وفلوريس وكونستيتوثيون وفي بيرسو التي تعد أهم مكان يجمعهم.

وفي باقي البلد لا يزال هناك في الوقت الحالي ستة مساجد أخرى مستخدمة. وفي البرازيل توجد جالية إسلامية هائلة في وقتنا هذا، فهناك أكثر من مليون مسلم متفرقين في كل أنحاء البلد. وأغلب المسلمين هناك جاءوا نتيجة الهجرة السابقة وأكثرهم كانوا من أصل لبناني ثم بعد ذلك هاجر سوريون وفلسطينيون ومصريون وغيرهم من بلاد إسلامية أخرى.

وهناك أكثر من مائة مسجد موزعة في كل أنحاء الأقاليم وأهمها مسجد ساو باولو. ومع ذلك، فهناك مدن أخرى برازيلية بها تجمعات كبيرة للمسلمين مثل مدن: برازيليا وريو دى جانيرو وكورتيبيه وريو جراندي دي سول وكايداس دي إيجواسو.

وفي شيلي، في كتاب "تاريخ شيلي" لأوريليو دياث ميثا، يذكر أنه في أثناء حملة الاحتلال بقيادة الإسباني دييجو دي الماجرو تم عزل معاون خاص له من منصبه وهو بيدرو دي جاسكو وذلك لممارساته الموريسكية مما يدل بالفعل على وصول الموريسكيين الإسبان في هذا التاريخ في الخفاء هربا من الاضطهاد الظالم من جهة محاكم التفتيش في هذه الحقبة. وفي عام ١٨٥٦، كانت هناك هجرة عربية جماعية من سوريا ولبنان وفلسطين، ثم في عام ١٩٢٦ أُنشئت رابطة الوحدة الإسلامية وتتكون من مسلمين يعيشون في شمال كالاما وشوكيكاماتا وفي العاصمة سانتياجو وفي بالباraيسو وسان فيلتي وتالكا كونثيبثيون. وفي عام ١٩٨٨ تم البدء في إنشاء مسجد سانتياجو دي شيلي وانتهى العمل بعد عام وافتتح في ١٩٩٦. وتستقر الجالية الإسلامية في شيلي في سانتياجو دي شيلي وكوبياكو ولاسيرينا وشيلان وبورتومونت وأماكن أخرى.

وتعد بيرو إحدى دول أمريكا اللاتينية التي يقل بها وجود الجالية الإسلامية رغم أنه في الوقت الحالي هناك أقلية مسلمة ومَسجدين أحدهما في العاصمة ليما، والآخر في دائرة تاكنا على الحدود مع شيلي. ومع ذلك فهناك تقارب دبلوماسي حاليًا بين أمريكا اللاتينية والدول الإسلامية لدوافع اقتصادية. ففنزويلا والمكسيك والإكوادور تعد دولاً منتجةً مصدرةً للبترول، ولها مصالح مشتركة مع الدول الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التي تصدِّر البترول أيضًا. وبذلك يمتد التأثير الثقافي للإسلام نحو أمريكا اللاتينية. وهكذا فإن العلاقات التجارية الدائمة بين الإسلام وأمريكا اللاتينية والهوية الثنائية لهذه البلاد بسبب حضارتها الإسبانية تعد أسبابًا مقنعةً تجعلنا نتوقع احتمالات أكبر لازدياد الإسلام في أمريكا اللاتينية وانتشاره في البلاد المجاورة.

الفصل التاسع

التحكيم الدولي: حلول سلمية للصراعات الناتجة عن التقاء كلا العالمين الجهاز التحكيمي. عناصر تشريعية دولية. المنهج التحكيمي والنصاب القانوني في الاتفاقيات

١ـ التحكيم الدولي

إن الدول التي يتألف منها المجتمع الدولي قد تتسم العلاقة بينها بطابع الصراع، حيث تتعارض مصالح وتطلعات بعضها مع مطالب البعض الآخر وينشأ الجدال. وإزاء هذه المواقف، من اللازم استخدام وسائل حل سلمية مختلفة مثل: الطرق الدبلوماسية والتشريعية والتحكيمية.

والطرق الدبلوماسية قد تكون مباشرة أو بتدخل وسطاء. والطرق المباشرة التي أطلق عليها روسو "بالاتفاق المباشر" تُوصَف أيضًا بأنها مفاوضات دبلوماسية تحاول أن تبحث عن حل للمشكلة المطروحة من خلال تدخل ممثلي الدول المهتمة بالقضية، ويكون ذلك عادةً بين وزراء الشئون الخارجية أو الممثلين الدبلوماسيين، وهذه المفاوضات قد يكون لها الآن طابع اختياري أو إجباري.

فالمفاوضات الاختيارية هي التي تجري بهدف حل المشكلة مع عدم وجود توقعات مسبقة، وعلى النقيض فهي إجبارية عندما تقع المشكلة المطروحة في إطار الآثار التشريعية لاتفاقية مُسبقة أقرتها الدول المهتمة بالأمر والتي تجعل من التفاوض الدبلوماسي شرطًا لا غنى عنه سابقًا لاستخدام الطريق التحكيمي أو التشريعي. ومن مميزاتها أنها طريقة سهلة ومتعقلة، ولأنها مباشرة لا يوجد بها

وسطاء، كما أن الحل الإيجابي يمنع توتر العلاقات بين الدول. ويعد تدخل الوسطاء أحد الطرق الدبلوماسية المذكورة. وتأتي هذه الطريقة عندما تتدخل دولة ثالثة في محاولة إيجاد حل سلمي.

وهكذا فإن المساعي الحميدة تفترض تدخل دولة ثالثة بشكل ودي في النزاع المطروح، حيث تعرض سلسلة من الحلول للمشكلة وتتعاون مباشرة من أجل تحقيق الأهداف المنشودة. وتُستخدم المساعي الحميدة كطرق لحل النزاعات الموجودة بالفعل، وأيضًا نزاعات ما قبل الحروب وما بعدها فتحاول أن تتجنب إمكانية اندلاع الحرب. وإذا حدث ذلك تحاول أن تحقق السلام.

وهناك طريقة أخرى يحدث خلط بينها وبين المساعي الحميدة وهي الوساطة التي تفترض تدخل دولة ثالثة بمساعٍ حميدة، حيث تعرض على أطراف النزاع حلولاً مسبقة للمشكلة. ويعد التحكيم وسيلة أخرى للحل السلمي.

فاتفاقية لاهاي المبرمة في يوم ١٨ أكتوبر ١٩٠٧ تنص في بندها ٣٧ على أن "التحكيم العالمي يهدف إلى حل النزاعات بين الدول من خلال مُحكِّمين تقوم الدول باختيارهم، وعلى مبدأ احترام القانون". وعلى ذلك ليست هناك اختلافات مادية بين التحكيم والتنظيم القانوني، بل اختلافات شكلية فيما يتعلق بالجهاز المقرر.

ومن الناحية التاريخية، ظهر التحكيم كأحد أقدم الوسائل لحل النزاعات، ولنتذكر الرابطات الاستضافية اليونانية (رابطة ديلفوس).

وهكذا فمن الناحية التأريخية هناك ثلاثة أنواع مختلفة من التحكيم:

تحكيم رئيس دولة، وتحكيم اللجنة المشتركة، وتحكيم المحكمة. ويرتكز تحكيم رئيس الدولة على فكرة أن الله هو مصدر السلطة وقد تطورت هذه الفكرة في العصور الوسطى وأصبح المُحَكِّم هو البابا أو الإمبراطور ولكن مع الإصلاح أُعيدَ النظر في سلطة البابا.

أما التحكيم بواسطة لجنة مشتركة فقد ابتدعه الأنكلوسكسونيون وله شكلان:

(أ) من خلال اللجنة المشتركة الدبلوماسية.

(ب) من خلال اللجنة المشتركة التحكيمية.

وقد فرضت معاهدة Jay في التاسع عشر من نوفمبر لعام ١٧٩٤ استخدام مُحكِّم ثالث. وأخيرًا فالنوع الثالث يمثله التحكيم من خلال المحكمة.

وأساس هذه الوسيلة للحل يمكن إيجاده في الرغبة الحرة للدول التي تخضع لهذا النظام. والمحكمة أو هيئة القضاء التحكيمية تصدر أحكامها وفقًا للقانون أو في حالة الترخيص Exaeoqueo et bono.

المحكمة الدائمة للتحكيم (محكمة العدل الدولية)

انطلاقًا من المقدمة التاريخية للأمم المتحدة يمكن أن نقول إن قواعد الحل السلمي للنزاعات بين الدول والأمم والشعوب للبحث عن تدخل وسطاء محايدين كانت ولا تزال إحدى أهم التطلعات التي يسعى إليها المجتمع الدولي.

في مجموعة القوانين الإسلامية المقدسة وفي التقاليد الإسلامية وفي مدن الدولة اليونانية وفي روما وأثناء العصور الوسطى في أوروبا برز الدور الذي تلعبه الكنيسة وآباؤها وهناك أمثلة ثابتة على هذا التطلع.

وقد أسفرت مؤتمرات لاهاي للسلام لعامي ١٨٩٧ و١٩٠٧ عن نشأة محكمة العدل الدولية الدائمة(*) التي ما زالت موجودة والتي يسهل من خلالها تكوين هيئات للتحكيم، ولذلك يُقال إنها ليست بمحكمة ولا دائمة.

(*) أنشئت تحت رعاية عصبة الأمم المتحدة بهذا الاسم، ثم أصبحت بعد ذلك محكمة العدل الدولية. (المترجمة)

إن البند ٣٩ من اتفاقية لاهاي حول الحل السلمي للنزاعات الدولية (١٩٠٧) ينص على اعتراف جميع الأطراف بأن التحكيم هو أكثر وسيلة فعالة ومناسبة لحل النزاعات القضائية بين الدول التي لم يتم حلها بالطرق الدبلوماسية، وتعبر عن الرغبة في أن تستفيد الدول من هذه الطريقة عندما تتيح الظروف. ولا تنطوي الاتفاقية على إلزام قضائي دولي باللجوء للتحكيم بحيث إنه لكي يكون هناك مثل هذا الإلزام فمن الضروري إعلان خاص عن الرغبة في ذلك يتم التعبير عنها بصفة عامة في اتفاقية للتحكيم.

ولأن كفاءة جميع طلبات الوساطة تقوم على موافقة الجهات فإن أساس كفاءة هيئات التحكيم والعدالة الدولية هذه تكمن فقط في إذعان الدول المتصارعة لها.

إن الاتفاق التحكيمي قد يشكل اتفاقية خاصة أو قد يكون بندًا داخل اتفاقية - لها هدف آخر - متعلقًا باختلافات تأويلها وتطبيقها، ويُطلق على هذا البند بند التحكيم أو بند محكم.

وقد تضع اتفاقية التحكيم نصب عينيها نزاعًا موجودًا بالفعل، وبالتالي يخضع هذا لهيئة تحكيم (الإلزام التحكيمي)، أو على العكس تهتم بنزاعات قد تنشأ في المستقبل (اتفاقيات التحكيم). فعلى سبيل المثال، اتفاقيات التحكيم السابقة على الحرب العالمية الأولى لم تمنح الأطراف حقًّا فوريًّا للعمل المختص بالدعاوى، وتجبرهم ببساطة عندما ينشأ النزاع على تحقيق التزام تحكيمي من أجل تحديد النقاط محل النزاع والهيئة التحكيمية وتنظيم التحكيم وطريقته.

وبالتالي، فإذا لم يتم التوصل لاتفاق حول الالتزام لن تُحل المشكلة رغم وجود اتفاقية التحكيم.

وقد استُخدمت الطريقة نفسها بعد الحرب العالمية الأولى في معاهدة بين دول أمريكا اللاتينية للتحكيم في الخامس من يناير لعام ١٩٢٩. وإذا كان من

الضروري – في المرحلة الأولى من تطور تأسيس الوسيلة التحكيمية – التركيز على التزام التحكيم وذلك لكل حالة على حِدة، ففي اتفاقية لاهاي في ١٨ أكتوبر ١٩٠٧ نجد قواعد عامةً التي يجب تطبيقها – طبقًا للبند ٥١ – طالما أن جميع الأطراف لم يتفقوا على أشياء أخرى.

وفي أسلوب التحكيم يجري العمل بمبدأ التقدير الحر للدلائل، غير أن التطبيق أدى إلى صياغة بعض القواعد في هذا الصدد. ففي فبراير لعام ١٩٦٢ أصدر مكتب محكمة العدل الدولية في لاهاي لائحة للتحكيم والتوفيق في حالة النزاعات بين دولة ما وأطراف غير حكومية.

وهكذا فإنه نظرًا لتطور القواعد السابق ذكرها للطريقة الساري العمل بها حاليًا في القانون الدولي والتي تنظم العلاقات السلمية بين الدول، فعندما تنشأ نزاعات قد تنتهي بمواجهات عسكرية يصبح من الضروري تحديد المسلمات والطرق التي – من الآن فصاعدًا – ستنظم العلاقات السلمية بين الشرق والغرب. وتقوم الفكرة الأساسية على إلغاء الحرب باعتبارها وسيلة وإقامة بعض المبادئ والأسس العامة والطرق التي تقبلها كلتا الحضارتين من خلال ميثاق أو معاهدة، فتفصل في نزاعاتهما بأسلوب سلمي وتتجنب دمار الإنسان الأخلاقي والجسدي ودمار حضارته وثقافته التي هي تراث الإنسانية.

إن التحكيم هو الأسلوب القضائي الذي تم إقراره باعتباره وسيلةً للفصل في النزاعات التي قد تنشأ بين الشرق والغرب، ويمتد ليشمل الدول التي لا تنطبق عليها هذه المفاهيم ولكنها تقع في جوار حضارتي الشرق والغرب أو بالقرب منهما. كما أنه لو حدث النزاع بسبب تصرف أي دولة تنتمي لتصنيف الحضارات هذا وأثّر على مصالح الشرق أو الغرب – أو في حالة حدوث العكس – يصبح أسلوب التحكيم هو الأمثل كأول طريق لحل المشكلة، فضلاً عن كون الأمم المتحدة تحديدًا – كمنظمة دولية– هي آخر الطرق لحسم النزاع.

إن المنظمة التحكيمية واختصاصها ودوائرها والثوابت القانونية الدولية وأسلوب التحكيم ونصابه هى كالتالي:

٢- الهيئة التحكيمية

سيتم إنشاء هيئات قضائية للتحكيم في قرطبة (إسبانيا) وإستانبول (تركيا) والقاهرة (مصر) وجاكرتا (أندونسيا) ويكون لكل منها دائرة اختصاص خاصة في الحدود الإقليمية الأربعة التي ينقسم إليها العالم.

ستتكون المحكمة من خمسة عشر قاضيًا: خمسة منهم من كل دولة من الدولتين الخاضعتين للنزاع، والخمسة الباقون تحددهم الدولة التي تقع بها المحكمة، وذلك من خلال منظمات رسمية (المجلس العام للسلطة القضائية). ويُفضّل قضاة أو محكمون متخصصون في القانون الدولي. ويُعَد ذلك قابلاً للتطبيق في حالة قرطبة (إسبانيا) وإستانبول (تركيا)، أما في المحاكم الموجودة في القاهرة (مصر) وجاكارتا (أندونسيا) يتم اختيار الخمسة الباقين من دول محايدة مثل روسيا والولايات المتحدة بالتوالي وذلك من خلال منظمات رسمية تقوم بتحديد الحكومة المختصة بالأهمية القانونية السابق ذكرها.

وإسبانيا، بفضل عملها الحضاري والاستعماري في أمريكا اللاتينية، نشرت هذه الهوية المزدوجة بين شعوبها وتلتزم الآن بجعل هذه الدول الشقيقة تشارك في مهمة التحكيم هذه لتشكل جزءًا من الهيئة التحكيمية هذه المُكوَّنة من خمسة قضاة، حيث يمكن اختيار أحد هؤلاء الأعضاء من داخل المجتمع الإسبانو أمريكي أو من OEA (منظمة الدول الأمريكية) والطريقة المطروحة هي كالتالي:

(أ) دائرة الاختصاص القضائي التي سيتم إقامتها تقوم على تقسيم العالم الحالي إلى أربع مناطق اختصاص لهيئات التحكيم ومقارها في: قرطبة (إسبانيا)، وإستانبول (تركيا)، والقاهرة (مصر)، وجاكارتا (أندونسيا).

وستشمل هيئة التحكيم في قرطبة (إسبانيا):

- أمريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك).
- أمريكا الوسطى (جواتيمالا وهندوراس وبليز والسلفادور ونيكاراجوا وكوستاريكا وبنما وكوبا وجامايكا وجمهورية الدومنيكان وباقي الجزر المستقلة).
- أمريكا الجنوبية (فنزويلا وجويانا وكولومبيا والإكوادور والبرازيل وبيرو وبوليفيا وباراجواي وشيلي وأورجواي والأرجنتين).
- أوروبا (فنلندا والسويد والنرويج وأيسلندا والدنمارك وبريطانيا العظمى وأيرلندا ولوكسمبورج وليختشتاين وهولندا وبلجيكا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وسويسرا وألمانيا والنمسا وأستونيا وليتونيا وليتوانيا وبولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا والتشيك وسلوفاكيا وكرواتيا وسلوفينا والبوسنة ومقدونيا ومونتينجرو (الجبل الأسود) والصرب واليونان وألبانيا ومالطة وقبرص وتركيا).
- الشرق الأوسط (إسرائيل).

وتضم هيئة التحكيم في إستانبول (تركيا) كلاًّ من:

سوريا والعراق والأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية وعُمان واليمن الجنوبية واليمن(*) ومصر وليبيا وتونس والجزائر والسودان والمغرب وموريتانيا وإيران وأفغانستان وإسبانيا.

- الشرق الأقصى (جزيرة تيمور).

(*) توحدت اليمن الجنوبية واليمن الشمالية تحت اسم دولة اليمن فى العقد الأخير من القرن العشرين. (المترجمة)

أما الهيئة القضائية التحكيمية في القاهرة (مصر) فتشمل:

إثيوبيا والصومال وتشاد والنيجر ومالي والسنغال وزامبيا وغينيا وغينيا بيساو وسيراليون وليبريا وساحل العاج وجمهورية فولتا العليا وغانا وتوجو وبينين وبوركينا ونيجيريا والكاميرون وجمهورية إفريقيا الوسطى وغينيا الاستوائية والجابون والكونغو وزائير وأوغندا وكينيا ورواندا وتنزانيا وبوروندي ومالاوي وأنجولا وموزمبيق وزامبيا وزيمبابوي وناميبيا وبتسوانا وليسوتو وجمهورية جنوب إفريقيا ومدغشقر والجزر المستقلة الأخرى.

- الشرق الأقصى (أندونسيا).

أما الهيئة القضائية التحكيمية في جاكارتا (أندونسيا) فتضم:

روسيا وجمهوريات الدول المستقلة (أوكرانيا وميلدافيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان وكازاخستان وتُركجنستان وأوزبكستان وطاجكستان وكيرجيزستان) ومنغوليا والصين وتايوان واليابان وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وباكستان والهند ونيبال وبنجلاديش وسيريلانكا وبرمانيا ولاوس وتايلاند وماليزيا وكمبوديا وفيتنام وجزر الفليبين والسلطنات المستقلة وأستراليا وغينيا الجديدة ونيوزيلاندا والجزر المستقلة.

- الشرق الأوسط (مصر).

٣- ثوابت تشريعية دولية

وتتألف من دول أو منظمات دولية لها كيان قانوني خاص لتتدخل كثوابت قانونية في الوساطة والحل التحكيمي للنزاعات والصراعات التي تنشأ بين كلتا الحضارتين، ويشمل ذلك أيضًا الصراعات بين الدول التي تشكل جزءًا من إحدى الحضارتين نفسها، وهي نوعان.

أحادي بتدخل دول إسبانيا وتركيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية ولجان مكونة من منظمات سياسية دولية عالية الشأن مثل: الاتحاد الأوروبي والجامعة العربية ومجلس الدول الإسلامية ومنظمة الدول الأمريكية (OEA).

والعناصر القانونية الدولية ستكون ما يلي:

أحادية هي إسبانيا وتركيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

إن إسبانيا وتركيا، البلديْن اللذيْن ينتميان للاتحاد الأوروبي بسبب هويتهما الثقافية المزدوجة، سيقومان بمهمة التحكيم بصورة موضوعية ومحايدة واضعين في الاعتبار معايير الشرعية والعدالة الدولية.

وروسيا - التي كانت تُعرف فيما قبل باتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية - أظهرت دومًا وطوال تاريخها احتفاظها بدورها الوسيط في النزاعات الناشبة بين كلتا الحضارتين بطريقة موضوعية ومحايدة، مستغلةً وضعها بين الدول، فهي لها حضارتان: الأوروبية والشرقية، ومقدمةً حلولاً لإنهاء هذا النوع من النزاعات.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فهي قوة عظمى عالمية ولسياستها التدخلية في ضمان الحفاظ على النظام والسلام في العالم وجعلهما أهدافًا لها الأولوية، يجب عليها أن تلعب دور البطولة الرئيسي، فضلاً عن علاقاتها الودية مع بعض الدول الإسلامية، والتي توترت من جهة أخرى بسبب الموقف الخاص الذي تتبناه إزاء الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة أدت مهمة التحكيم والتوفيق في جلب الحلول للأطراف المتنازعة وذلك من أجل إنهاء الصراعات وإقامة السلام والتوافق، مثلما حدث من قبل في اتفاقيات كامب ديفيد بين الحكومة المصرية وحكومة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة (١٩٦٧). ولحسن الحظ، فهناك الآن

بعض الاتفاقيات في طريقها لحل المشكلات مثل تنفيذ اتفاقيات مدريد بين الفلسطينيين والإسرائيليين من أجل تفعيل إعادة الأراضي المحتلة (خارطة الطريق) وترك إسرائيل لغزة ولجزء من الضفة الغربية.

غير أن الحل الحاسم للصراع الفلسطيني الإسرائيلي يكمن في تقبل جميع الأطراف لثلاث حقائق واضحة: إحداها هي وجود شعبين مختلفين في أراضي فلسطين العربية؛ والثانية هي قبول العالم العربي لشرعية دولة إسرائيل أو عدم شرعيتها وذلك أمر متعلق بالقانون الدولي رغم اعتراف الأمم المتحدة الحالي بإسرائيل؛ وثالث الحقائق هو الإصرار على أن القدس هي العاصمة الروحية للعالم الإسلامي واليهودي.

وفي المستقبل، ستكون هيئة القضاء التحكيمية هي من تقرر حل هذا النزاع، وتحدد دائرة الاختصاص الإقليمية التي تربط بين الأطراف من أجل تنفيذ الحكم بتقبل العناصر الدولية (مجلس الدول الإسلامية – الجامعة العربية – الولايات المتحدة الأمريكية – روسيا وإسبانيا وتركيا والاتحاد الأوروبي)، وسيتم فرض العقوبات وتنظيم تنفيذها من خلال الأمين العام للأمم المتحدة.

هيئات، وهي التالية:

(أ) الاتحاد الأوروبي

إن الإنشاء الفعلي للاتحاد الأوروبي انطلق من الدول المشتركة في اتفاقية بروكسل التي أنشأت الاتحاد الغربي المكون من بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج وفرنسا وبريطانيا العظمى والدنمارك وأيرلندا وإيطاليا والنرويج والسويد. وفي الخامس من مايو عام ١٩٤٩ وقعت الدول المذكورة لائحة تأسيس الاتحاد الأوروبي.

وتتكون هذه اللائحة أو الاتفاقية من مقدمة وعشرة فصول مخصصة بطريقة تنظيمية لما يلي:

دراسة الأهداف، وتكوين الاتحاد، والهيكل التنظيمي، ولجنة الوزراء، والمجلس الاستشاري، وأمانة السر، والشئون المالية، والامتيازات والاستثناءات والتنقيحات والتدابير النهائية.

وفيما يتعلق بهدف الاتحاد الأوروبي فهو يكمن في تحقيق الوحدة بين أعضائه من أجل حماية وتشجيع المثل العليا والمبادئ التي تشكل تراثهم العام، ودعم تقدمهم الاقتصادي والاجتماعي.

وهكذا، فإن البند الأول ينص على أن الوسائل التي سيجري استخدامها هي الفحص واستخلاص النتائج من الاتفاقيات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والقانونية والإدارية.

أما بالنسبة لتكوين الاتحاد، فيأتي ذلك في البند الثاني الذي ينظم لائحة الاتحاد الأوروبي، ووفقًا له فإن الأعضاء الأصليين ليسوا فقط مَن وقّعوا هذه اللائحة، ولكنهم أيضًا الذين تتم دعوتهم أو الدول التي تنضم لاحقًا عندما تستوفي الشروط من كونها دولاً أوروبية وتم دعوتها لهذا الهدف من قِبَل لجنة الوزراء.

وهناك شرط جوهري يسبق الدعوة المشار إليها وهو أن مجلس الوزراء – طبقًا للبند الثالث – يرى أن الدولة المطروح أمرها يجب أن توافق على مبدأ "سيادة القانون" والذي بمقتضاه فإن كل شخص يخضع للسلطة القضائية من حقه أن يتمتع بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية. ويصبح الانضمام رسميًا من خلال إيداع الوثيقة الملائمة كما يحددها البند الرابع من اللائحة.

ومن جهة أخرى، فمن المُقرر أن الأعضاء الأصليين والأعضاء الذين تم قبول انضمامهم لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

وهناك أيضًا فئة الوزير المساعد والتي يمكن اكتسابها بالطريقة نفسها ولكن بشكل محدود، حيث إنه – كما يشير البند الخامس – من حق الأعضاء أن ينضموا إلى المجلس الاستشاري مع استبعادهم من لجنة الوزراء.

أما حالات الانسحاب من الاتحاد فيأتي تنظيمها في البند السابع من الاتفاقية الذي ينص على ضرورة إخبار الأمانة العامة، ومن الممكن أيضًا إلغاء عضوية إحدى الدول بقرار من لجنة الوزراء وطبقًا لما تم ذكره في البند الثامن.

أما فيما يتعلق بالهيكل التنظيمي، فمن الضروري أن نحدد الأجهزة الرئيسية وهي: مجلس الوزراء والمجلس الاستشاري.

وتكمن مهمة الأمانة العامة في مساعدة الأجهزة الرئيسية مع إمكانية إنشاء عدد من الأنظمة المعاونة في حالة الضرورة لعملها.

وداخل الأنظمة الأساسية، تبرز سيادة لجنة الوزراء التي – وفقًا للبند الثالث عشر – تعمل باسم الاتحاد. وهي تتألف من ممثل لكل دولة ويكون عادةً وزير الشئون الخارجية في كل بلد أو إذا كان ممكنًا عضوًا من حكومة كل دولة حيث يمكن الإنابة. ومن بين اختصاصات اللجنة يجدر بالذكر: إعطاء توصيات موجهة للحكومات وإمكانية التوصل إلى اتفاقيات ومعاهدات، فهي لديها نوع من السلطة قبل التشريعية والتي ظهرت بوضوح من خلال قرارين لها في عام ١٩٥١.

وبإمكان لجنة الوزراء أن تُصدر أيضًا قرارات التنظيم الداخلي خاصةً فيما يتعلق بالمسائل الإدارية والمالية وقبول الأعضاء الجدد وكل ما له علاقة بإصدار قرارات حول المسائل الداخلية مثل الدعوات والاجتماعات خارج مقر اللجنة، وكل ما له علاقة بتنفيذ اللائحة نفسها. مع ذلك، ورغم ما تم عرضه آنفًا، فيجب أن نؤكد فكرة أن لجنة الوزراء ليس لها سلطة فعلية في إصدار القرارات على الدول الأعضاء.

أما فيما يتعلق بالمجلس الاستشاري الذي أطلق عليه منذ عـام ١٩٧٤ اسـم المجلس البرلماني فهو يعد الجهاز الاستشاري في الاتحاد الأوروبي. وطبقًا للبند ٢٢، فهو يناقش كل المسائل التي تقع في دائرة اختصاصه ويرسل نتائجه في هيئة توصيات للجنة الوزراء. وهذا العمل الجوهري في صياغة التوصيات ينطلق من البند ٢٣ للائحة المعدلة في عام ١٩٥١.

ويتألف المجلس من نواب عن كل دولة من الأعضاء، يختارهم برلمان كل دولة على حدة أو يتم تعيينهم وفقًا للطريقة التي أقرها البند ٢٥. ويمثل الأعضاء ١٧٠ نائبًا من بينهم ثمانية عشر من البلاد التالية: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى؛ واثنا عشر نائبًا من تركيا وإسبانيا؛ وسبعة من بلجيكا واليونان وهولندا والبرتغال؛ وستة من السويد والنمسا وسويسرا؛ وخمسة من الدنمارك والنرويج؛ وأربعة من أيرلندا؛ وثلاثة من قبرص وأيسلندا ولوكسمبرج ومالطة؛ واثنان من ليختنشتاين.

أما بالنسبة للأمانة العامة للمجلس والتي يقع مقرها في نفس مكان المجلس في ستراسبورج فيَرِد تنظيمها في البند ٣٦ من اللائحة، حيث تتألف من الأمين العام وأمينين عامين مساعدين والموظفين الإداريين التي تقتضي الحاجة وجودهم. وتتركز الوظيفة الأساسية للأمين العام في إعداد الميزانيات وفقًا للائحة بالإضافة إلى معاونة الأجهزة الرئيسية ولجنة الوزراء والمجلس الاستشاري والقيام بباقي الوظائف الإدارية. وبالنسبة للوضع القانوني للاتحاد الأوروبي فمما لا شك فيه أنه يعتبر عنصرًا ثابتًا للقانون الدولي له القدرة على عقد اتفاقيات دولية.

(ب) الجامعة العربية

طبقًا للاتفاقية التي وقعتها في ٢٢ مارس ١٩٤٥ في القاهرة كل من المملكة العربية السعودية ومصر والعراق والأردن ولبنان وسوريا واليمن، تم تأسيس

جامعة الدول العربية بهدف دعم التعاون السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والصحي لأعضائها، وقد انضمت إليها فيما بعد: ليبيا (١٩٥٣) والسودان (١٩٥٦) والمغرب وتونس (١٩٥٨) والكويت (١٩٦١) والجزائر (١٩٦٢) واليمن الجنوبية (١٩٦٧) وقطر والبحرين وعمان والإمارات العربية المتحدة (١٩٧١) وموريتانيا (١٩٧٣) والصومال (١٩٧٤). والجامعة العربية لا تعد منظمة إقليمية بالمفهوم الجغرافي للإقليم ولكنها أداة لتكوين مجتمع مناصر للعرب، كما تشتمل أيضًا على تنظيمات قانونية عن اشتراك أقاليم عربية غير مستقلة مثلما يحدث مع فلسطين، فلها نائب يشارك في أعمال الجامعة كما تشارك أقاليم عربية أخرى غير مستقلة مثلما كانت الجزائر تشكل جزءًا من هذه اللجان قبل استقلالها.

ويعد مجلس الجامعة الجهاز الرئيسي في الجامعة، ويتألف من ممثلي الدول الأعضاء ويعاونهم أمانة دائمة. ويمكن أن يجتمع مجلس الجامعة على مستوى رؤساء الدول باعتباره أعلى جهاز في المنظمة أو على مستوى وزراء الشئون الخارجية ووزراء الدفاع. وتعقد لجنة خاصة لكل من المهمات السابق ذكرها.

وقرارات المجلس التي تصدر بالإجماع تكون مُلزِمة لجميع الأعضاء، أما التي تصدر عن الأغلبية فهي تُلزم من يصوتون لها فحسب.

وبحسب مدلول البند الخامس، فبإمكان المجلس أن يحل بصفة الإجبار جميع نزاعات الدول الأعضاء التي تؤثر على استقلال الإقليم وسيادته ووحدته، ولا يكون من حق الأطراف المتنازعة أن تدلي بصوتها.

أما في باقي النزاعات، فيلعب المجلس دور الوساطة. وكملحق للبند السادس وقّعت الدول الأعضاء يوم ١٣ أبريل عام ١٩٥٠ معاهدة الدفاع المشترك، ففي

حالة الاعتداء على أحد الأطراف من المتوقع حدوث عمل جماعي من كل الأعضاء تجاوبًا مع البند ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة.

وقد شملت دول الجامعة العربية في مجال تعاونها جوانب أخرى من العلاقات فيما بينها: ففي عام ١٩٤٦ توصلوا إلى اتفاق ثقافي، وفي عام ١٩٥٤ أُنشئ اتحاد البريد العربي، وفي عام ١٩٥٧ أُنشئ بنك التنمية العربي.

(ج) مجلس الدول الإسلامية

يدخل مجلس الدول الإسلامية في إطار الوسائل التحكيمية ومقره في القاهرة. هو منظمة استشارية عالمية يضم الدول الإسلامية وأيضًا الدول العلمانية التي يدين غالبية أهلها بالإسلام. ويشارك مجلس الدول الإسلامية في الهيئات التحكيمية بأعضاء يتم اختيارهم من خلال المجلس نفسه.

ولا يوجد عند المسلمين سلطة أعلى من سلطة الله، والحكام ليسوا أكثر من ظل الله في الأرض.

وفي حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – والاصطفاء النبوي له بوصفه رسول الله وتواصله الدائم والخارق للعادة مع المشيئة الإلهية من خلال الوحي، في كل ذلك تَجَسَّد بصورة واضحة نموذج الحكومة الدينية، ونشأت الصعاب عندما مات محمد صلى الله عليه وسلم دون أن يخبر بشيء عن نظام الدولة في أمته من بعده. إن أبا بكر الذي كان ينوب عن النبي في حياته في إقامة الشعائر اختاره الناس – بعد بعض الجدال – ليكون خليفة أو تابعًا أو نائبًا عن النبي، له كل سلطاته بعيدًا عن بعثته النبوية وعن الأشياء الخاصة به.

إن نموذج الخلافة يستند على الخلفاء الأربعة الأوائل الذين خلَفوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فهم قادة الدين والسياسة في الإسلام. وقد تركت الدولة

الأموية نموذج الخلافة الديني لينهار، ولكن العباسيين اهتموا به، غير أن الخلافة في عهدهم مرت بأوقات عصيبة، وحدثت مواجهات مع خلافات أخرى إحداها خلافتنا الأموية الرشيدة، وأقل ما حدث هو التنازل عن مبدأ الوحدة الإسلامية، كما كانت هناك خلافة ملحدة شيعية؛ وفي النهاية اقتصرت الخلافة في بغداد على كونها لقبًا صوريًا وحَرَمْهم السلاطين من السلطة الحقيقية، فقد كانوا قادة القوات المنتصرة الذين حصروا الخلافة في الجانب الديني البحت مع البقية من السلطة النظرية التي ظهرت فقط في التأكيدات التي كانوا يمنحونها كملوك لمن كانوا بالفعل ملوكًا، فقد كانوا يعطونهم شهادة أو لقبًا رنانًا أو شيئًا من هذا القبيل.

وقد حاولت الخلافة العثمانية في أيامها الأخيرة ممارسة سلطة دينية بحتة على باقي الدول الإسلامية، ولكن المذهب الجديد فضلاً عن أنه لا يعترف بشرعية الخلافة العثمانية لم يقبل قط مفهوم السيادة الدينية المجردة.

ويقوم التأسيس القانوني للخلافة على الإجماع، فالقرآن والسُنَّة لم يحددا أي شيء خاص بالخلافة.

إذًا فالخلافة تعني ما يلي: أن تقتضي ضمنًا أن يكون الخليفة ذا أهلية بالغًا ذكرًا مُسلمًا حرًا ينتمي لقبيلة قريش... إلخ. وتُمنح الخلافة بالانتخاب ولكنه غير شعبي، بل هو انتخاب من جهة أنسب الأشخاص لمعرفة ما يحتاجه المجتمع ومعرفة الشروط التي يجب توافرها في أكثر الأشخاص الملائمين في ذلك الحين. ويقوم بالانتخاب أيضًا أصحاب المقام الرفيع في قصر الخليفة وأصحاب القلم والسيف أو من لديهم، حسب الجملة المأثورة، القدرة على الحل والربط.

ومسموح أيضًا أن يحدد الخليفة من يليه، وذلك يُعد أكثر الأنظمة استخدامًا ولأن الحكم كان يؤول عادة إلى عضو من الأسرة، مع تفضيل الابن البِكر، فإن ذلك أدى إلى حدوث مواقف تتشابه مع النظام الوراثي.

ولكن المدارس الراشدة لم تعترف أبدا بشرعية هذه الطريقة في الخلافة، فعلى العكس حصر الشيعة – الذين قرروا الانفصال – الخلافة بشكل أساسي في أسرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وخاصة في نسل عليّ صهره.

وعلى الطرف الآخر من الشيعة كان هناك الخوارج، وهم طائفة ديمقراطية تستغني عن شروط الأهلية من أجل الانتخاب ويسمح باختيار أي مسلم حتى لو كان عبدًا أسود.

وتُمنح الخلافة بطريقة تعاقدية، فالمنتخبون يعطونها للمنتخَب فيقبلها، ويُجسِّد هذا الاتفاق بينهم من خلال المصافحة التي تعد رمزًا قديمًا لإجراء التعاقد. أما في حالة اختيار الخليفة لمن يليه فيُراعَى أن تأخذ المراسم شكلاً رسميًا مثل أداء يمين الولاء لولي العهد وأن يكون ذلك في حياته لتأكيد وضع خليفة المستقبل. ويحدث ذلك دون استثناء اعترافًا تاليًا بالخليفة عند بدء مهامه.

وهذا التنصيب يمنح الخليفة السلطة العليا ويلزمه بتنفيذ القانون والعمل لصالح الأمة؛ ويفرض على الرعية واجب الطاعة ولكنها ليست طاعة بلا حدود، فالعقد يمكن فسخه. فعندما يخِل الخليفة بالشروط اللازمة للقدرة أو عندما يتحول إلى طاغية فإن الشعب ومن اختاروه وصدَّقوا على اختياره يصبح من حقهم عزله.

إلى أي مدى تحقق نموذج الخلافة هذا؟

بالنسبة للعديد من المسلمين، هناك أربعة فقط كانوا خلفاءً بحق وهم الأربعة الأوائل. ولكن مع افتراض أن كل ملوك المسلمين الذين حملوا لقب الخلافة اقتربوا في حدود المتاح من نموذج الخلافة وكانت لديهم حجة شرعية في الحصول على الخلافة، فهناك عدد من الأمراء يفوقهم استولوا على السلطة دون أن يسعوا حتى لإضفاء الشرعية على حكمهم من خلال لقب الخليفة. وكانت السلطنة أكثر الأشكال المألوفة في الحكومة، فكلمة سلطان تعني مباشرة السلطة ولهذا لا يعد شيئًا غريبًا

أن نجدها في الاتفاقيات القانونية، ومع مرور الوقت تم تجسيدها في العديد من الموظفين حتى إن السلاطين الذين بالفعل حلوا محل آخر الخلفاء العباسيين جعلوا لكلمة سلطان معنىً معروفًا في الغرب وهو ملِك.

كما أن لقب أمير تم استخدامه إلى حد كبير في الحضارة الإسلامية. وأثناء ممالك الطوائف ساد لفترة من الزمن لقب حاجب الذي يعادل رئيس الوزراء في بلاط الأمويين الإسبان أو ذى الوزارتين ولقب "الوزيران" (صاحب القلم والسيف) ولقب رؤساء الوزارة أيضًا.

أما لقب ملك فقلَّ استخدامه لأنه لم يتفق مع رأي المسلمين في السلطة الشعبية، فهو يشمل فكرة السلطة على الرعية وهي لله فقط فالملك هو الله.

ومع ذلك، فهناك حكومات ملكية موجودة حاليًا في بعض الدول الإسلامية، وتستمد سبب وجودها من كونها من نسل النبي صلى الله عليه وسلم مثلما الحال في المغرب والسعودية والأردن... إلخ.

وعرفت إسبانيا الجمهورية الإسلامية فعلى سبيل المثال في قرطبة، عند خروج الأمويين، تولى الحكم مجلس وكَّل لجنة صغيرة للقيام بالمهام التنفيذية أو حتى وكَّل شخصًا واحدًا.

ولم يعترف القانون الإسلامي بشرعية أي موقف من هذه المواقف. ففي المقام الأول أدان تقسيم الأمة الإسلامية التي كان عليها أن تظل أمة واحدة تحت إمرة أمير واحد هو الخليفة. كما أنه كان يرى باستمرار أن حكومة السلاطين هي اغتصاب للحكم ويؤكد أن القانون المُنزَّل من الله يعاني الكثير من الأذى في ظل هذه الحكومات. ومع ذلك، فأمام هذه الأحوال اتخذ الفقهاء موقف الطاعة والاستسلام العام. فأي شخص يستولي على الحكم تجب طاعته لتجنب الضرر الأكبر وكانوا يذكرون مثلاً للعالم القديم الطرطوشى الذي قال: "واحد وأربعون عامًا من الاستبداد أفضل من عام من الفوضى".

وإزاء هذه المشكلة اشتد ورع المسلمين ومنُّوا أنفسهم بالإصلاح العظيم الذي سيأتي يومًا ما على يد المهدي، وهو شخص موجود في أعماق فكر المذاهب صحيحة المُعتقَد ويتغلغل الإيمان به في وعي كل المؤمنين الغيورين على دينهم. وحُكم المهدي الذي يُعد مسيح المسلمين سيحقق النموذج الإسلامي بصورة كاملة.

وهكذا، وبسبب تقسيم العالم الإسلامي إلى دول عديدة، يقع على عاتق مجلس الدول الإسلامية مهمة اختيار مرجعية دينية ما، ربما تكون الخليفة أو المفتي الأكبر أو شيخ الإسلام، يكون له سلطات دينية بحتة لقيادة العالم الإسلامي وعليه أن يختار مرجعية سياسية محددة والتي كان يُطلق عليها فيما قبل السلطان أو الملك، والآن الملك أو الرئيس ليحكم لفترة محددة ويمثل مجلس الدول الإسلامية والتي تعد كيانات استشارية حاسمة للحفاظ على السلام والوفاق بين حضارات العالم.

(د) منظمة الدول الأمريكية (OEA)

سبق تأسيس هذه المنظمة مؤتمر الحركة الأمريكية الأول في واشنطن (١٨٨٩- ١٨٩٠) كاتحاد دولي للجمهوريات الأمريكية، والذي أُطلق عليه في عام ١٩١٠ اتحاد الدول الأمريكية U.P.A. ومهمته تنسيق الأعمال الاقتصادية والثقافية للدول الأمريكية. وتطوَّر هذا الاتحاد من خلال سلسلة المؤتمرات الخاصة بالقارة الأمريكية والتي تعقد بصفة غير منتظمة.

وبمقتضى ميثاق بوجوتا لعام ١٩٤٨، فإن هذا التجمع المستقل للدول قام كمنظمة إقليمية داخل الأمم المتحدة، ثم صدر عن هذا الميثاق بروتكول تم تطبيقه في بوينوس آيريس في عام ١٩٦٧ ليزيد من مهام هذه المنظمة (OEA) في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ويعدل من التدابير التنظيمية لميثاق ١٩٤٨.

وبإمكان الدول الأمريكية المستقلة أن تصبح أعضاء في هذه المنظمة إذا رغبت في ذلك وتم قبولها بغالبية ثلثي الدول الأعضاء بالفعل. ولكن لا يمكن قبول

أي كيان سياسي يخضع إقليمه فيما قبل ١٨ ديسمبر ١٩٦٤ لنزاع أو اعتراض بين دول خارج القارة الأمريكية ودولة أو أكثر من الدول الأعضاء طالما لم يتم إنهاء النزاع بطريقة سلمية.

وتُعد الأمانة العامة هي أعلى جهاز في هذه المنظمة، وتجتمع سنويًا ولها أيضًا اجتماعات استثنائية. وتقرر الأمانة السياسة العامة للمنظمة وقد تضع داخل دائرة اهتماماتها المسائل التي تتعلق بعلاقات الصداقة بين الدول الأمريكية.

وبالإضافة إلى ذلك، توجد مجالس متنوعة تضم كل الدول الأعضاء:

المجلس الدائم، والمجلس الأمريكي الاقتصادي والاجتماعي، والمجلس الأمريكي للتربية والعلوم والثقافة.

ومهمة المجلس الدائم هي أن يوصي ويُعِد أعمال الأمانة العامة ويقوم بالأعمال التي توكِّله فيها. وبمساعدة اللجنة الأمريكية للحلول السلمية يحاول المجلس الدائم أن يصلح الخلافات التي قد تنشأ بين الدول الأعضاء.

ويقع مقر الأمانة العامة للمنظمة في واشنطن ويرأسه الأمين العام الذي تختاره الأمانة لمدة خمس سنوات غير قابلة للمد. وينص دستور منظمة الدول الأمريكية من بنده العشرين إلى السادس والعشرين على وسائل الحل السلمي للنزاعات وعلى تطبيق العقوبات داخل المجتمع الأمريكي.

٤- المنهج التحكيمي والنصاب القانوني في الاتفاقيات

كما ذُكِر من قبل فإن هيئة القضاء التحكيمية تتألف من خمسة عشر قاضيًا: خمسة لكل دولة من دولتي النزاع والخمسة الباقون طبقًا لمكان الدول المتنازعة ولذا يُوَزَّعون في دوائر الاختصاص الأربع الوارد ذكرها: قرطبة (إسبانيا)، وإستانبول (تركيا)، والقاهرة (مصر)، وجاكارتا (إندونيسيا). ويتم تحديدهم باقتراح

من حكومات الدول المذكورة أو يتم اختيارهم بصورة منفردة بـاقتراح مـن هـذه الحكومات وبدون رفض الدول المتضررة لأحد أعضاء الثوابت القانونية الدوليـة: الاتحاد الأوروبي، والجامعة العربية، ومجلس الدول الإسلامية، ومنظمـة الـدول الأمريكية.

وفي حالة إذا ما كان النزاع يضر بإحدى الجهات الدولية، إسبانيا أو تركيـا أو روسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية، فإن القضاة الخمسة البعيدين عن الـدول المتنازعة يتم تحديدهم بين الثوابت الدولية المنفردة بنوع بسيط من التعاقـب: فـإذا كانت إسبانيا هي المتضررة يأتي القضاة من روسيا والعكس صحيح؛ وإذا كانـت الدولة المتضررة هي تركيا يتم اختيار القضاة من الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والعكس صحيح. ومع ذلك يمكن الاختيار من بـين الهيئـات الدوليـة (الاتحـاد الأوروبي – الجامعة العربيـة – مجلـس الـدول الإسـلامية – منظمـة الـدول الأمريكية).

ويؤدي المُحكَّمون مهامهم في الشئون التي تُطرح علـيهم، ويمكـن إعـادة اختيارهم لشئون أخرى. ويجب أن يكون تفرغهم وعملهم لصالح المحكمة فقط حتى يصدر الحكم الذي يحدد ما يجب على جميع الأطراف فعله. ويحظـى المُحكَّمـون بامتيازات وحصانات دبلوماسية، ومن بين الأعضاء تختار هيئة التحكـيم نفـسها الرئيسَ ونائبه والأمين.

وللقيام بمهامها كمنظمة أو هيئة تشريعية تُعقَد جلسة كاملة ويكفـي مثـول غالبية الأعضاء بنسبة ثلثيهم لإصدار القرارات فيها، وإذا لم يحـدث ذلـك تنعقـد جلسة ثانية بالغالبية المحضة للمحكمة.

وهكذا فإن التطور المستقبلي لهذه الفكرة سيكون فعّالاً للغاية من أجل ضمان السلام في العالم وتجنب أي نزاعات حربية ما بين الحضارات المختلفة التي تـضم

كل منها قوات عسكرية تحت تصرف الأمم المتحدة التي تقدم الدعم لكل حضارة من خلال المساهمة التضامنية للدول جميعها التي تضمها الحضارات المختلفة ارتكازًا على القدرة الاقتصادية التي تتباهى بها كل دولة في الاقتصاد العالمي.

وتتم العمليات العسكرية الضرورية لحفظ السلام والوفاق الدولي بين الحضارات باحترام مطلق لقضاء كل منها، بحيث يتدخل الغرب في إقليمه فقط، ونفس الشيء للشرق مع الاحترام التام للنظام المستخدم دون وجود تدخل أو انتقاد بين الحضارات، وتقوم الأمم المتحدة بالتنسيق الدائم للعلاقات بين الدول.

الفصل العاشر

الروابط التاريخية بين الشرق والغرب: أصول السلوك من أجل تحقيق التوافق والاندماج والمودة في علاقة الشرق بالغرب

١- الروابط التاريخية بين الشرق والغرب

إذا قمنا بتحليل تاريخ البشرية فسنجد أن الحضارات الأولى في العصر الحجري الحديث ظهرت لوجود أودية نهرية صالحة لتنظيم مجتمعات إنسانية مستقرة كانت قاعدة للتشكيلات السياسية والثقافية التي ظهرت فيما بعد.

ففي الشرق كانت هناك حضارات ثلاثة معروفة تنتمي للعصر الحجري الحديث مثل حضارة نهر الإندوس (الهند) بمدنها التي كانت تعد دولاً مثل موهنخو- دارو والهاربان، وحضارة نهر النيل التي سرعان ما شكلت دولة سياسية ودينية تحت سلطة الفرعون، وحضارة بلاد الشام عند ملتقى نهري دجلة والفرات.

وفي هذه الحضارة الأخيرة ظهرت أولى المدن - الدول التي أسسها السومريون الأكاديون وحدث أول توحيد إقليمي في ظل حكم الملك حمورابي لبابل بين عامي ١٧٢٨ و ١٦٧٦ قبل الميلاد. وقد تميزت هذه الحضارات باكتشاف الزراعة وبتربية الماشية البدائية ما نتج عنه تحولات كبيرة في الطريقة التي كان يحيا بها إنسان ما قبل التاريخ. وبدلاً من الترحال استقرت الحياة بالناس وتحولوا من الصيد إلى تربية الماشية بالتبادل مع زراعة الأرض وأنشأوا أولى المراكز الحضرية.

وقد امتدت حضارة العصر الحجري الحديث إلى الغرب ما أدى إلى ازدهار الحضارات الأوروبية في اليونان وإيطاليا وأوروبا الوسطى ومييـاريس (إسبانيا). وبعد ذلك، مع اكتشاف صناعة التعدين، تطورت تقنيات في البرونز والحديد وكانت تُمارس في القارة الأوروبية. ولكن انتشرت ثقافة الحديد - على وجه الخصوص- في القارة من خلال السلتيين حيث نشأت في أوروبا الوسطى، وكانت أهم مراكزها هلستات ولاتينى. وأدت التجارة النشيطة، التي كانت تقوم بها الشعوب اليونانية والفنيقيون والمصانع التي أقاموها في الغرب، إلى نشأة أولى روابط التوافق بين الشرق والغرب.

وقد اتصلت هذه الشعوب بالشعوب الأوروبية المختلفة، وحدث في الوقت نفسه تبادل ثقافي وتقني وتبادل للأنظمة الاجتماعية والسياسية. وبالتالي ففي هذه المرحلة من تاريخ البشرية كان الشرق هو الحامل للعِلم وللثقافة وللحضارة المتقدمة، ومن خلال التبادل التجاري ارتبط بحضارة قديمة وبدائية.

اتسمت علاقة الغرب والشرق بالوئام وحدث تحول في الغرب حيث جاء النظام الاجتماعي والديني للشرق ليحل محل معتقداتهم القديمة المتأصلة في طوطم أو في أرواح أهاليهم الموتى، فأصبحوا يؤمنون بآلهة القرطاجيين واليونانيين واستقرت عبادة أستارتي Astarte ومولوش Moloch وآلهة أخرى من الشرق.

وقد كانت المدن اليونانية، وخاصةً أثينا، هي التي عرفت التطور في القرن الخامس قبل الميلاد في مجالات الفكر والفن والذي أدى إلى نشأة حضارة الحقبة الكلاسيكية التي امتد أثرها الحاسم في الحضارة الغربية إلى يومنا هذا.

وكانت مقدونيا تلك القوة الجديدة القائمة في شمال اليونان، والتي اتسمت بروحها المحاربة وتقاليدها الأرستقراطية الملكية، هي التي فرضت نفوذها العسكري بفضل التجديدات في فن الحرب (مجموعات من المشاة المسلحين

بالرماح تحميهم الخيالة من الجانب). وقد كان ملكهم الإسكندر الأكبر هو من شرَع في غزو الشرق بعد هزيمته للفرس، حيث اتجه إلى قارة آسيا وحقق انتصارات وغزوات في كل من مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى وسوريا وإسرائيل(*) وأشور وميدية وفارس ووادي الإندوس (الهند). وقد تمسك الإسكندر بأهداف العالم اليوناني وإمبراطوريته، وشكّل القاعدة لنشر الحضارة اليونانية الغربية (الهلنستية) عبر الحدود الجغرافية لمُلكه.

ومع تأسيس مدينة روما في عام ٧٥٣ قبل الميلاد تحولت إلى مركز لإمبراطورية إقليمية كبيرة عبر مراحلها التوسعية في شبه الجزيرة الإيطالية وحوض البحر المتوسط الشرقي وكذلك الغربي.

وكانت الحدود السياسية الطبيعية للإمبراطورية الرومانية تقع حول نهري الرّاين والدانوب في أوروبا والمنطقة الفاصلة الطبيعية التي نشأت بسبب الصحراء الإفريقية وجبال القوقاز وبلاد الشام وصحراء شبه الجزيرة العربية.

وقد آلت الثقافة اليونانية إلى روما التي اندمجت فيها وضمت داخل حدودها ثقافات شرقية قديمة جدًا: مثل ثقافة مصر وسوريا وبلاد الشام. وبالنسبة للغرب فقد اشتملت على مناطق أوروبية ترجع إلى ما قبل التاريخ. وقد قدمت الإمبراطورية الرومانية النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والإداري والثقافي وكل ذلك يُعَد عملاً توحيديًا أُطلِق عليه "إضفاء الصبغة الرومانية".

وبعد غزو روما ظهرت في العالم الروماني أنشطة اقتصادية محددة جيدًا تشكلت في وحدات إنتاجية وتجارية كبيرة، ما وثق العلاقات بين الشرق والغرب. وقد قامت روما بمهام الوساطة في تجارة المنتجات الشرقية وذلك عبر شبه الجزيرة الأيبرية وشمال إفريقيا وإيطاليا وإقليم الغال وريتيا ونوريكا وبانونيا وداثيا (رومانيا) وتراثيا اليونان وآسيا الصغرى ومصر وباقي الأقاليم الشرقية.

(*) لم يكن لاسم إسرائيل الدولة وجود آنذاك، وكانت هذه المنطقة هي فلسطين. (المترجمة)

وفي عام ٣٩٥م قام الإمبراطور تيودوسيوس بتقسيم هذه الإمبراطورية إلى جزأين: الجزء الغربي وعاصمته روما، والجزء الشرقي وعاصمته القسطنطينية.

أما الإمبراطورية الغربية فقد سقطت بسبب غزو الشعوب الجرمانية لها، وفي عام ٤٧٦م قام أودواكرو ملك الهيرولوس (Herulos) بخلع آخر إمبراطور روماني وهو رومولوس أغسطس.

أما الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية فقد ظل دون أن يتعرض لأي غزو حتى عام ١٤٥٣م عندما استولى السلطان العثماني محمد الثاني على القسطنطينية. وتعد الإمبراطورية البيزنطية هي أول قوة أوروبية تم تكوينها بعد تفكك النظام الروماني في الغرب، وكانت هناك قوة ثانية بدأت تتكون في الشرق وفي جنوب البحر المتوسط وأثرت في تطور أوروبا وهي الإسلام.

وهذه القوى التوسعية الجديدة اتخذت من الأمة العربية بطلاً لها وصلة بين الشرق والغرب من خلال مشاركتها في القوافل الشرقية. وكان الدافع لها هو دين توحيدي جديد دعا إليه النبي –محمد صلى الله عليه وسلم – (٥٧٠- ٦٣٢م) الذي تمكن من إخضاع قبائل شبه الجزيرة العربية البدو، ثم قام خلفاؤه بنشر السيطرة الإسلامية في بلاد الشام وفارس.

وكان الإسلام سببًا في سقوط إمبراطورية الفرس الساسانية وغزا آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وإسرائيل(*) ومصر والهند، ثم اتجه المسلمون فيما بعد ناحية الغرب واتخذوا من مصر نقطة الانطلاق ليسيطروا على شمال إفريقيا وشبه جزيرة أيبريا ثم اخترقوا مملكة الفرنجة (الفرنسية) حتى هُزِموا.

وقد كان شارل مارتل هو من قام (٧٣٢م) بإيقاف قوى الإسلام التوسعية مؤقتًا من الزحف تجاه باقي أوروبا.

(*) المقصود فلسطين، انظر الملحوظة السابقة. (المترجمة)

وخلال القرن الخامس، بمجرد أن قامت الشعوب الجرمانية بغزو الإمبراطورية الرومانية في الغرب وتركوا أراضيهم الأصلية، زحف الصقالبة صوب الغرب واستقروا على شواطئ أنهار فيستولا وأودير وإلبا والدانوب.

إن عملية الدعوة للتنصر التي قامت بها الإمبراطورية الشرقية البيزنطية لهؤلاء الصقالبة، وتَحَوُّلهم إلى اعتناق المسيحية أدى إلى انضمام هذه الشعوب للمنطقة الثقافية الأوروبية. ثم توغلت شعوب أخرى في أوروبا وقد جاءوا من السهول الآسيوية وكانوا رعاة غنم رحالة مثل البِجْناك (القرن العاشر) والمجريين (القرن التاسع) والبلغاريين واعتنقوا المسيحية وأصبحوا جزءًا من الثقافة الأوروبية.

أما آخر زحف للشعوب نحو أوروبا فقد حدث في القرنين التاسع والحادي عشر حيث قام النورمانديون - أو سكان الشمال الذين عُرِفوا أيضًا بالفايكنج - بترك موطنهم الأصلي في الدول المعروفة حاليًا باسم السويد والنرويج والدنمارك واتجهوا صوب الجنوب وأنبتوا مرة أخرى بذور التقلقل والدمار في القارة. وقد تنصرت هذه الشعوب الأخيرة، وبروحها وحماسها القتالي قامت بمهمة البطل بالنسبة لبابا الكنيسة الرومانية، في استرداد سيشيل وأبوليا الواقعتين تحت سيطرة المسلمين.

وبدءًا من القرن الحادي عشر نعمت أوروبا بسلام حققته بعد غزوات القرن الخامس وهجرة شعوب الصقالبة وشعوب السهول الآسيوية والزحف النورماندي.

ويُعد ذلك البداية لعملية التوسع الأوروبي التي ظهرت أول بادرة لها في الحملات تجاه الشرق الإسلامي التي أُطلق عليها الحملات الصليبية. وقد نشأت حركة الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر تحت إلحاح الكنيسة الرومانية التي استغلت الفرصة لعرض هذه الفكرة بهدف التخلص من النفوذ الدنيوي

لإمبراطور ألمانيا ومن تعسف النبلاء الإقطاعيين. وكان هدف الكنيسة الرومانية الملح والمحدد هو تحرير الضريح المقدس وتأمين طرق الحج للأماكن المقدسة التي قطعها الأتراك السلاجقة في منتصف القرن الحادي عشر.

وعدد الحملات الصليبية ثمانية، قاد أولها روبيرتو ملك نورماندیا وجدفري ملك بويون. وقد أدى فتح المسلمين لإمارة الرها لقيام الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧- ١١٤٩م) والتي فشلت في محاولة استرداد الإمارة.

وفي عام ١١٨٧م قرر صلاح الدين سلطان مصر غزو القدس ولم يتم استردادها منه قط. ولقد كان رجلاً كريم الأخلاق مع المهزومين وصادق الوعد في التسامح مع المسيحيين حيث أمر بحقهم في زيارة الضريح المقدس ولكن في مجموعات صغيرة ودون سلاح.

أما الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢م) فقد قادها الإمبراطور الألماني فيدريكو بربروسا والملك الفرنسي فيليب أغسطس والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد الذين لم يتمكنوا من استعادة القدس ولكنهم كوّنوا مملكة مسيحية في قبرص (١١٩١م).

وقد تصدَّر الهجوم المسيحي على القسطنطينية الحملة الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤م) التي تولى اتخاذ القرار فيها دوق البندقية، حيث تم غزو ميناء زارة ونهب القسطنطينية. قاد الحملة الخامسة خوان دي بريين ملك القدس المنفي وأندرو الثاني ملك المجر وليوبولدو السادس دوق النمسا.

وقد كانت هناك بعض الحملات قليلة الشأن توجهت إلى مصر، وتم الاستيلاء على ميناء دمياط ثم تُرِك بعد سنتين. أما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨- ١٢٢٩م) فقادها إمبراطور ألمانيا فردريك الثاني، حيث أجرى مفاوضات مع السلطان المصري بشأن إعادة القدس للمسيحيين. وفي عام ١٢٢٩م تم تتويجه

ملكًا للمدينة المقدسة في كنيسة الضريح المقدس، ولكن المسيحيين خسروا هذه المدينة في عام ١٢٤٤م بالتحديد.

أما الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨- ١٢٥٤م) فكانت مغامرةً شخصيةً لملك فرنسا لويس التاسع الذي كان ينوي غزو القاهرة ولكنه سقط أسيرًا في يد السلطان واضطر أن يشتري حريته وحرية جيشه بتسليم دمياط ومبلغ مالي كبير للغاية.

وقد بدأ القديس لويس ملك فرنسا الحملة الثامنة (١٢٧٠م). فرغم فشله في مصر، فقد أعد لهذه الحملة وكان هدفها فلسطين، ولكن أخاه شارل أنخو Anjou أقنعه بالتوجه إلى تونس، ثم وافته المنية هو وأحد أبنائه بسبب وباء الكوليرا. وقد ترك الصليبيون سان خوان دي أكرى آخر معقل لهم في عام ١٢٩١م.

تزامنت نشأة الحضارة الأوروبية نفسها مع أول مواجهة كبرى حدثت بين أوروبا الموحدة من جهة، والإسلام من جهة أخرى، والتي يُقصد بها الحملات الصليبية، وفي ذلك الحين بدأت هذه الحضارة تُبصر طريقها ولم تكن قد نقضت بعد تحالفها مع الكنيسة عقب قرون من الظلام تلت انحطاط روما. وكان أدبها حينئذ يمر بمرحلة ازدهار جديدة، وكانت الفنون تستيقظ ببطء من سباتها الناتج عن الهجرات الحربية الهمجية (القوط والهونيون والوندال).

وكانت أوروبا قد خرجت للتو من الأحوال القاسية التي عاشتها في العصور الوسطى المتقدمة، وبدأت تكتسب وعيًا ثقافيًا جديدًا ومعه حساسيةً أعمق. وبالتحديد، في هذه اللحظة الحرجة، بدأت الحملات الصليبية علاقاتها العدوانية مع العالم الإسلامي.

ومن المؤكد أنه كانت هناك نزاعات بين المسلمين والأوروبيين تسبق الحملات الصليبية مثل: الفتوحات العربية لسيشيل وإسبانيا وهجومهم على جنوب فرنسا. ولكن هذه الحروب وقعت قبل بزوغ الوعي الثقافي الجديد في أوروبا

المسيحية، وكانت نزاعات لها طابع محلي وليس لها أهمية كبرى، بينما كانت الحملات الصليبية حاسمةً لأنها تزامنت مع مرحلة الطفولة الأوروبية. وكما يحدث مع الإنسان، فإن الآثار العنيفة التي تصاحب مرحلة الطفولة تظل في الوعي أو اللاوعي طوال الحياة. وهذا هو ما حدث مع الحملات الصليبية التي تركت أعمق الانطباعات وأبقاها في نفس ذلك المجتمع الأوروبي، فالحماس العالمي الذي أيقظوه في تلك اللحظة لا يمكن مقارنته بأي شيء مرت به أوروبا فيما قبل.

فقد سرت في كل القارة موجة من النشوة والسرور التي أذابت - لوقت طويل - الفواصل بين الأمم والشعوب والطبقات الاجتماعية وتشكلت وحدة أوروبية لمواجهة عالم الإسلام.

وبالتالي يمكننا أن نقول إن أوروبا الحديثة تولدت من روح الحملات الصليبية، وكما كان هناك فيما قبل سكسونيون وجرمانيون وفرنسيون ونورمانديون وإيطاليون... إلخ، فقد تكون أثناء الحروب الصليبية مفهوم سياسي جديد للعالم المسيحي مختلف عن المفهوم الديني للمسيحية، فالمفهوم الأول هو الذي وحد الجميع في كراهية الإسلام.

ومن أشد سخريات التاريخ أن أول عمل ناتج عن الوعي الجماعي، أي التكوين الفكري للعالم الغربي، يرجع لدوافع لاقت تأييدًا كاملاً وبدون تحفظ من جانب الكنيسة المسيحية.

وعلى النقيض، فإن أغلب إنجازات الغرب حدثت بفضل العقلانية كثورة فكرية ضد كل ما تمثله وما كانت تمثله الكنيسة تقريبًا.

وقد كان ذلك حدثًا مأسويًا من وجهة نظر الكنيسة المسيحية ومن وجهة نظر الإسلام، لأنه بالنسبة للكنيسة أدى ذلك إلى فقدانها السلطة على سكان أوروبا؛ وبالنسبة للإسلام كان عليه أن يتحمل نيران الحروب الصليبية خلال القرون الطويلة التالية.

وبذرة هذا البُغض العالمي الذي تولَّد عن أعمال عنف لا تُوصف وعن الدمار والهوان الذي أتى به رجال الصليب الأتقياء الذين اخترقوا بلاد المسلمين وغزوها ثم فقدوها، هذه البذرة نغصت العلاقات بين الشرق والغرب منذ ذلك الحين.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية تختلفان في مبادئهما الروحانية وأهدافهما الاجتماعية، فعليهما أن تكونا قادرتين بالفعل على التسامح المتبادل وعلى أن تعيش كل منهما بجانب الأخرى في علاقة ودية.

إن هذا يعد احتمالاً نظريًا وواقعيًا فى الوقت نفسه، فمن جانب المسلمين هناك رغبة صادقة في التسامح والاحترام المتبادل. وهناك حدث يفيد كمثال تاريخي في هذا الشأن وهو: عندما أرسل الخليفة هارون الرشيد في القرن التاسع برسول له لبلاط الإمبراطور شارلمان فقد شجعه على ذلك وجود رغبة مشابهة لديه في التسامح وليس ليستفيد ماديًا من صداقته بالفرنسيين.

ولكن بعد ذلك بقليل وعلى حين غفلة، ظهرت في الأفق الحملات الصليبية ودمرت علاقة الإسلام بالغرب.

ومع ذلك، فالحملات الصليبية لم تكن مجرد حروب لا تُنسى بين أمم ما، ولكنها تركت ضررًا فكريًا متمثلاً في إفساد الفكر الأوروربي ضد العالم الإسلامي في مجمله من خلال نظرية تشويه متعمدة لتعاليم الإسلام ومبادئه، لاقت تشجيعًا من الكنيسة.

ولكن حتى قبل استرداد مملكة غرناطة في عام ١٤٩٢، التي تعد آخر أثر لإسبانيا الإسلامية، وقع حدث ثالث على درجة بالغة من الأهمية وأفسد علاقة العالم الغربي بالإسلام وهو: سقوط القسطنطينية في يد الأتراك.

فالإمبراطورية البيزنطية كانت لا تزال تحتفظ بشيء من تلك الجاذبية القديمة التي كانت تميز اليونان وروما كما كانت تعد حصن أوروبا لمواجهة

الهمجيين الآسيوين. وبسقوطها النهائي ظلت أبواب أوروبا مفتوحة أمام الغزو الإسلامي وأصبح العداء الأوروبي للإسلام أمرًا بالغ الأهمية ليس من الناحية الثقافية فحسب، ولكن أيضًا من الناحية السياسية مما زاد من حدته.

ورغم ذلك كله فقد حققت أوروبا استفادة عظيمة من هذه النزاعات. فالنهضة التي ظهرت ثانية في الفنون والعلوم الأوروبية والتي استعارت الكثير من المصادر الإسلامية، وخاصةً العربية، ترجع إلى حد كبير لاتصال الغرب بالإسلام. وقد استفادت أوروبا من ذلك في المجال الثقافي وكانت استفادتها أكبر بكثير من استفادة العالم الإسلامي. ولكن ذلك لم يجعلها تعترف بفضل المسلمين الدائم عليها ولم تقلل من عداوتها القديمة، بل على العكس فإن هذه العداوة أخذت تنمو مع مرور الزمن وأصبحت عادة. فشعور الاحتقار نحو الإسلام أصبح جزءًا لا يتجزأ من القارة الأوروبية.

فالمسيحي بالفعل كان أكثر تعصبًا وتعنتًا نحو المسلم مما كان عليه الإسلام نحو النصرانية.

وتعد أسباب هذه الروح الانفتاحية للإسلام أسبابًا دينيةً وتاريخيةً وعمليةً أيضًا. فبالنسبة للمسيحيين وأيضًا للمسلمين، فإن دينهم والتنزيل الذي نزل عليهم يعتبران هما الرسالة الخاتمة من الله للبشرية.

ومع ذلك فهناك اختلافات فكرية بينهما يفرضها التاريخ. فالمسيح عليه السلام يعد بالنسبة للمسلمين نبيًا ورسولاً من الله، وعلى النقيض فمحمد صلى الله عليه وسلم يعتبر في نظر المسيحي مدعيًا للنبوة.

ومحمد -صلى الله عليه وسلم، ذلك الرجل الذي قُدِّر له قيادة الدين الجديد وتأسيسه، يعرض عقيدة بسيطة - يمكن إدراكها بسهولة - ترتكز على عقيدة أنبياء

بني إسرائيل وعلى الاعتراف بالمسيح عليه السلام باعتباره آخر نذير روحي قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعد خاتم الأنبياء.

وفي نهايات القرن الخامس عشر قَوِيَ نفوذ المسلمين بعد فتح الأتراك للقسطنطينية في عام ١٤٥٣م. وهو الفتح الذي جاء بالإسلام حتى جزر البلقان في أوروبا بعد اختفاء الإمبراطورية البيزنطية كدولة تقع على الحدود بين الغرب والشرق.

وهناك حقيقة تاريخية مهمة لم تلقَ عادةً حظها من التقدير وهي أن الأتراك العثمانيين - وهم شعب يقع في الطرف الشمالي الغربي لآسيا الصغرى في مواجهة أوروبا - لم يبدأوا طريقهم لتكوين إمبراطورية في آسيا بل على الشاطئ الآخر لبحر مرمرة في أوروبا في إقليم تراقيا والبلقان.

وبمجرد أن وطدوا فتحهم في أوروبا لم يبد أو في التوسع داخل آسيا الصغرى حتى بعد مرور قرن من تحولهم إلى قوة أوروبية. وبالفعل حتى القرن الخامس عشر، لم تكن تركيا قد أصبحت قوةً شرقيةً في الوقت الذي كانت فيه قوةً غربيةً.

وهكذا، فمن خلال الفتوحات وأيضًا من خلال إبرام المعاهدات وشراء الأراضي فإن الإمارات المستقلة في آسيا الصغرى والوسطى والشرقية أصبحت جزءًا من النظام السياسي العثماني.

وقد كان من السهل نسبيًا اندماج مسيحيي تراقيا وبلغاريا، ولكنه كان أمرًا أكثر صعوبة بالنسبة لاندماج باقي الجاليات التركية التي نشأ منها في الأصل العثمانيون والتي ارتبطت مع المسيحيين بعلاقات وثيقة فيما قبل.

وهناك ثلاثة سلاطين عظام قاموا بتكوين إمبراطورية غربية شرقية شاسعة باستخدام مواهبهم الشخصية وبالفتوحات وهم: محمد الثاني وسليم الشجاع وسليمان العظيم.

محمد الثاني

عندما تولى محمد الثاني العرش في ١٤٥١م كان الحال قد استقر بالعثمانيين بقوة في جنوب شرق أوروبا وفي جنوب غرب آسيا، ولم يتبقَ سوى السيطرة على القسطنطينية التي كانت تعد ضمان البقاء للإمبراطورية البيزنطية العظمى فقد كانت محاطة بأرض تركيا.

وخلال فترة من الزمن بدا على الأتراك ترددهم نحو غزوها، فقد كانوا يدركون الخطر الذي يترتب على الاتصال بتلك الجوهرة التي سرعان ما قد تتحول إلى مركز للفساد والانحطاط والتدهور بالنسبة للأتراك، الذين كانوا حتى ذلك الحين سلالة سليمة الأخلاق. إذًا لماذا استولى الأتراك على القسطنطينية؟

ربما لأن مدينة كتلك كان لا يمكن أن تظل معلقة في الهواء فوق قطعة أرض يحيط بها من جميع الجهات أراض أجنبية، كما كان هناك أيضًا طموح محمد الثاني الشخصي. فذلك الأثر الذي كان إمبراطورية كبيرة فيما قبل، وريثة لمدينة القياصرة، وظلت لخمسة قرون تحت الحكم الإمبراطوري، والمقر الدائم للقانون وللفن وللثقافة في العالم، ذلك الأثر كان غنيمة كبيرة أغرت الدولة العثمانية.

وقد اقتضى الترتيب المنطقي للأحداث أن تكون هذه المدينة جزءًا من الإمبراطورية العثمانية النامية، لأن الإمبراطورية البيزنطية القديمة التي كانت تنتمي إليها لم تعد موجودة بعد. لم يكن هناك أي شيء بطولي في ذلك الاضطراب النهائي، بل كان أكثر من صراع غامض مات فيه آخر إمبراطور روماني في يوم مشئوم في عام ١٤٥٣م وهو تاريخ أساسي في تواريخ العالم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد استقر محمد في العاصمة الجديدة وقام بعمل الحد الأدنى من التغييرات في حكومة الإمبراطور البيزنطي وحافظ على الأسماء اليونانية وعلى مؤسسات الإمبراطورية. وإذا كان قد غيَّر فيها بطريقة أو بأخرى

فإنه أبقى على صلاحيتها. إن ما يُروى عن نهب المدينة بعد فتحها أمر مبالغ فيـــه بوضوح لأن الضرر الــذي ألحقــه الجنــود المــسيحيون - ظاهريًــا - بكنـــوز القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٥م كان أكبر من ذلك.

وفي ذلك الحين كان يبدو أن الأتراك يرغبون في إثبات أنهم غربيون مثلهم مثل اليونانيين. فمنحوا السكان المسيحيين حقًا كاملاً في الدين وفي ملكية الكنيـــسة وفي سَنّ القوانين الخاصة بالميراث وفي ممارسة تقاليــدهم الأســرية. واختــصوا اليونانيين بالامتيازات حيث توج السلطان بنفسه بطريــركهم وكانـــت لـــه ســلطة تحصيل الضرائب من أهل ملته أنفسهم.

ورغم الامتيازات التي لا تُنكر من قِبَل السلطان محمد الثاني، فإن حكمـــاء القانون والعلم والمعرفة - الذين ظلوا في المدينــة - أظهــروا نكــرانهم للجميـــل وزاغت أعينهم نحو الغرب ليسهموا في بداية النهضة في إيطاليا وفي الإصلاح في العالم المسيحي الغربي. وحتى عام ١٤٥٣م كانت حيوية الأتراك القوية تجــد مـــا يساندها في حدة ذهن اليونانيين وذلك التعاون غير الرسمي أسفر عن نتائج مفيـــدة لكلا الطرفين.

ولكن حينئذ وفي أشد لحظات الانتصار بالنسبة للأتـــراك، تـــسربت جـــائزة النصر من بين أيديهم. فقد بدأ فن بيزنطة وثقافتها في الاختفاء وبقي فقـــط الفـــساد وفجور المدينة الإمبراطورية وبلاطها الملكي.

ومع مضي الزمن أثمرت تلك البذرة عن تدهور الإمبراطوريـــة العثمانيـــة، ولكن ذلك الوضع لم يصبح حقيقة إلا بعد فترة طويلة، فقد استمرت الإمبراطوريـــة العثمانية في مسارها، فكانت تزداد قوة يومًا بعد يوم وتستغل زيادة عـــدد الأتـــراك الدائمة لشغل الوظائف الصغيرة في خدمة الدولة.

وقد واجه محمد الثاني تلك الصعوبات وكان على دراية بالخطر الذي يعنيه غزو القسطنطينية بالنسبة لإمبراطوريته، فقد كان يعلم أن لديـــه أفـــضل عناصـــر بشرية لإدارة الدولة. وإزاء هذه الظروف جعل في خدمته أيضًا مسيحيين اســـتطاع أن يحثهم على اعتناق الإسلام بمنحهم مكانة ملائمة.

ويستحق محمد الثاني أن يدخل التاريخ ليس لأنه قائـــد عـــسكري فحـــسب، بل أيضًا لكونه عالمًا ورجل دولة ذا بصيرة.

سليم الشجاع

إن السلطان الجديد سليم الشجاع، والذي جاء بعد بايَزيد الثاني ابـــن محمـــد الثاني في عام ١٥١٢م، تمكن من توسيع نطاق إمبراطوريته نحو الشرق. فقد اتجه أولاً إلى إيران التي كان زعيمها الشاه إسماعيل قد أسس أسرة الـــصفويين فبعـــث روحًا جديدةً في شعبه العتيق.

وكان سليم ينتابه الشك في قدرة إمبراطوريات أوروبـــا الأساســـية علـــى خلـــق الصعوبات له في الشرق لغيرتهم من قدرة العثمانيين على إبرام معاهدة مع إسماعيل.

وفي الوقت نفسه كان السلطان يستشعر الخطر في الآثار الدينيـــة للمـــذهب الشيعي بين المسلمين الأتراك، حيث كانت إيران تعد في وسط الشيعية، لذا أعلـــن الحرب وهزم الشاه إسماعيل في موقعة شالدران في الأناضول الشرقية ومد نفـــوذه في الشرق حتى تلك المنطقة.

ثم عاد بعد ذلك إلى الجنوب ليملأ الفراغ في الأراضي العربية ويهزم في النهايـــة سلطان مصر المملوكي. وبهذه الطريقة امتدت حـــدود الإمبراطوريـــة العثمانيـــة حتـــى سواحل شمال إفريقيا. ثم خلف سليم في الحكم ابنه سليمان العظيم في عام ١٥٢٠م.

سليمان العظيم

هو آخر كبار السلاطين ولُقِّب بالقانوني، بدأ حكمه بوضع الغـرب نـصب عينيه وزحف بجيوشه إلى أوروبا الشرقية.

كان الاستيلاء على بلجراد (١٥٢١م) هو أول حملة لسليمان في أوروبا، ثم تلاها الانتصار في موهاكس على المجريين (١٥٢٦م) ما جعله يسيطر على جُزر البلقان الغربية وعلى الدانوب.

ثم تقدم بعد ذلك صوب فيينا، فقد كان يتوقع أن يتقابل مع عـدوه الرئيـسي الإمبراطور الإسباني كارلوس الخامس والذي لم يتقدم للمعركة، بل انسحب وتـرك الميدان للأتراك ولكنهم بسبب افتقارهم لفنون الحرب انسحبوا بحذر في خريف عام ١٥٢٩م.

وبعد فشل سليمان في فيينا بثلاث سنوات، عاد لغزوها رغمًا عنـه، ولكـن بسبب ثورة الإنكشاريين الذين استلزموا القيام بغارات يمكنهم الحصول فيها علـى الغنائم، قام السلطان ثانيةً بإجهاض الغزو وكانت النتائج مشابهة للغاية لنتائج الغزو السابق. وقد وصلت الإمبراطورية العثمانية لأقصى اتساع لها من ناحية الغرب في شواطئ الدانوب الوسطى.

وكانت تلك هي لحظات اتساع الممالك المسيحية الكبرى، فرنـسا وإسـبانيا وهابسبورج؛ وكان يوازيها في عالم محمد - صلى الله عليه وسلم - الإمبراطورية العثمانية التي كانت بالفعل هي القوة العظمى في ذلك الوقت في الإسلام. ورغم أن سليمان كان مسلمًا تقيًا، فمن المحتمل أن فكره لم يكن مناصرًا للإسلام، ولكن مـن المؤكد أنه لم يترك أي فرصة أمامه ليجعل راية النبي الخـضراء ترفـرف مـع احترامه الدائم لحقوق المسيحيين أينما يجدهم.

إن التدهور الذي عانت منه الإمبراطورية العثمانية خلال السنوات التالية وصل إلى القرن التاسع عشر. والسبب في أنها لم تنته تمامًا في ذلك الحين هو أن القوى الأوروبية التي كانت تتنازع على غنائم الإمبراطورية العثمانية لم تكن ترغب في أن تزداد عظمة منافسيها. وفي الداخل، انتعشت من جديد نزعة القوميات الإقليمية سواء للأقلية المسيحية أو للمسلمين الذين كانوا يرغبون في تكوين أمم مستقلة. وفي القرن التاسع عشر انفصل عن الإمبراطورية القديمة اليونانيون والرومان والبلغاريون والصرب وأهل مونتينجرو (الجبل الأسود)، وذلك بسبب الحروب البلقانية، كما انهارت تركيا ونشأت دول جديدة ربطت مصيرها بأوروبا.

وعلى الجانب الآخر، فإن مصر التي كانت تطمح إلى الاستقلال بعد الخدمات العظيمة التي أسدتها للسلطان، كانت على وشك أن تحل محل القسطنطينية لتصبح على قمة العالم الإسلامي.

وإزاء الرغبة في تحديث المبادئ لاحتواء عملية الانهيار من غير منع أفكار الاستقلال، فإن قدامى الأتراك والطوائف التقليدية ظنوا أن سبيل الخلاص يكمن في الماضي المجيد. وفي النهاية استولى على الحكم رجال أتراك وطنيون، ولكنهم أوروبيو النفس وأنصار للهوية التركية ضد الأقليات العنصرية.

إن روسيا، التي وضعت نصب عينيها البحر المتوسط كإحدى طرق التوسع، تدخلت لتحمي الصقالبة والمسيحيين.

والنمسا، نظرًا لأن لها باعًا طويلاً في صراع الأتراك، كانت تطمع في تحرير البلقان لتضمها إلى منطقة نفوذها.

أما إنجلترا، فرغم انغماسها في زيادة رقعة إمبراطوريتها الاستعمارية وتوطيدها، كانت ترغب في أن تكون موجودة على الساحة حتى تتجنب انتصار

أحد منافسيها ما قد يقلل من نفوذها وحتى تمنع الوجود الروسي في البحر المتوسط.

وفرنسا رأت نفسها مجبرة على التدخل لأن لها باعًا طويلاً في مساندة تركيا ولكونها دائرة نفوذ.

بينما بيسمارك كان يرغب في أن تختفي نقطة الخلاف الدائمة بسبب المسألة البلقانية التي كان متورطًا فيها.

وأخيرًا كانت هناك إيطاليا التي تخشى من ارتفاع شأن الصرب واستقرارهم في منطقة البحر الأدرياتيكي، ومن جهة أخرى، كانت ترغب في تكوين إمبراطورية، ما دفعها لأن تنتزع من الأتراك تريبولي وثيرينايكا في عام ١٩١٢.

وكانت هناك صراعات مستمرة من جانب الأمم الشابة (اليونان والصرب وبلغاريا والجبل الأسود) من أجل أن تثري حدودها القومية، ولكن هذه الصراعات انتهت بالسلام في بوخارست (١٩١٣) في المرحلة التمهيدية للحرب العالمية الأولى.

وفي القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، تدهور حال تركيا. وكان ذلك الأمر قد بدأ في القرون السابقة بفعل حرص الدول الأوروبية على التوسع. فكانت روسيا أولاً في آسيا الصغرى، ثم بعد ذلك في أوروبا الجنوبية لتدعم الشعب المسيحي الأرثونكسي في الإمبراطورية التركية في أوروبا وتساعدها في ذلك المطامع الاستعمارية للنمسا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا.

وكان محمد الثاني (١٨٠٨- ١٨٢٩)(*) يريد أن يمنع تفكك دولته، فأعاد تنظيم الجيش مستعينًا بمدربين أوروربيين وحل الجيش الإنكشاري وهم جنود في حرس الأباطرة الرومان كان يصعب السيطرة عليهم.

(*) محمد الثاني (١٨١٠ – ١٨٣٩م). (المترجمة)

وقد حدث تصادم بين سياسته المعتدلة والفكر التقليدي وتجسد ذلك بطريقة عنيفة في ظهور طائفة دينية كانت قد استولت على مكة والمدينة. ولكي يحارب هذه الطائفة، ويحارب أيضًا اليونانيين المتمردين استغاث بمحمد علي باشا في مصر والذي كان قد تخلص من المماليك ومد نفوذه إلى السودان.

وأدت قوة محمد علي الشديدة إلى حدوث نزاع مسلح واسع، أنهى حياة السلطان وأنهى استقلال مصر، ثم جاء بعده السلطان عبد المجيد (١٨٣٩- ١٨٦١) ليجد نفسه متورطًا في أزمة الشرق التي انتهت بعقد اتفاقية المضايق، والتي بمقتضاها تم إغلاق البسفور والدردنيل أمام أسطول أي دولة.

وقبل وفاته بقليل وقعت حرب القرم (١٨٥٣(*)) وفيها مدت فرنسا وإنجلترا يد المساعدة للأتراك ضد الروس.

ثم جاء بعده عبد العزيز (١٨٦١- ١٨٧٦) ومراد الخامس (١٨٧٦) وعبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) الذي حكم باستبداد، وحاول أن يقضي على القومية التي كانت قد شملت المسيحيين والشعوب المسلمة، وصارع رغبات الحداثة في نفس الشباب الأتراك الذين أجبروه على التنازل عن العرش لأخيه محمد الخامس (١٩٠٩- ١٩١٨).

ومن الناحية النظرية، فإن النظام التركي الجديد كان يندرج في إحداثيات الغرب الأوروبي الدستورية: حريات عامة وحكومة برلمانية.

بالنسبة للشباب الأتراك، فإن ارتقاء تركيا لتصبح قوة عظمى كان عن طريق الحفاظ على (الواقع) الإقليمي للإمبراطورية، وعن طريق قمع القومية المناهضة لتركيا. وبعد الحرب العالمية الأولى انضمت تركيا للجانب الخاسر وضاعت أراضيها.

(*) حرب القرم ١٨٥٦. (المترجمة)

وتمت الاستفادة من هذه الظروف بسبب انتصار فرنسا وإنجلترا، وتم تقسيم بلاد الشام وآسيا الصغرى وشمال إفريقيا. وأقيمت مناطق حماية لم تكن سوى استعمار وقح في دول لها حضارة من ألف عام وثقافة أصيلة أعلى من مثيلتها الأوروبية في فترات تسبق القرن السادس عشر.

وفي الأقاليم الجديدة التي حررتها ظاهريًا فرنسا وإنجلترا، ظهر أمراء في حالة سوريا والعراق والأردن من الأسرة الهاشمية مثل العاهل الأول فيصل بن حسين بن علي ملك الحجاز الذي ينحدر من سلالة النبي، والذي قام بتمرد ضد الأتراك. وآخرون مثل أسرة عبد العزيز آل سعود في السعودية أو السلطان محمد الخامس في المغرب من العائلة الإدريسية التي كونت مملكة فاس، حيث إن إدريس من نسل عليٍّ، والاثنان تربطهما علاقة مصاهرة مع النبي(*)، ولكن القوى الأوروبية بتطلعاتها الاستعمارية تجاهلت هويتهم الثقافية وحضارتهم وحافظت على النظام الاستعماري في هذه الدول.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وبفضل مبادرة الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا اللذيْن أجبراهم على بدء عملية إنهاء الاستعمار- تحت رعاية الأمم المتحدة - جعلا تلك الإمبراطوريات الفرنسية والإنجليزية المتدهورة تمنح الدول الجديدة استقلالها.

وهكذا فإن سوريا ولبنان وتونس والجزائر تحت الحماية الفرنسية، والمغرب تحت الحماية الفرنسية والإسبانية أعلنوا استقلالهم في الحقبة ما بين ١٩٤٠ و١٩٥٠.

وفي نفس الفترة، أعلنت الاستقلال كل من: السعودية واليمن والعراق والأردن ومصر والسودان تحت الحماية البريطانية، وبقيت ليبيا تدير شئونها فرنسا وإنجلترا(**) ثم حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية.

(*) لم يدَّع آل سعود وجود علاقة مصاهرة أو نسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم. أما العائلة الإدريسية فتعلن أنهم من نسل عليٍّ كرم الله وجه. (التحرير)

(**) بقيت ليبيا تدير شئونها إيطاليا. (المترجم)

ثم بقيت بعد ذلك فلسطين، فبعدما تآمرت إنجلترا واللوبي اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية أنشأوا دولة إسرائيل على جزء من هذه الأرض، وهو حل استعماري حديث من جهة الغرب ليجيز وجود أمة دون دولة.

وكانت الجالية اليهودية على مدار قرون طويلة قد عاشت في سلام في المجتمع الإسلامي رغم اختلاف الثقافة والدين، وفي الوقت الحالي فإن هذا القرار المثير للجدل قد سبب مواجهة حربية مستمرة. وربما يأتي يوم عن قريب نجد فيه حلاً حاسمًا لهذا النزاع.

٢ – أصول السلوك من أجل تحقيق التوافق والاندماج والمودة في علاقة الشرق بالغرب

بصفة عامة، بعد عرض التلخيص السابق، أصبح لنا مُبَرِّر لنصف العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب بأنها لم تكن علاقات ودية على مدار التاريخ.

وهكذا، فقد حدث ذلك أيضًا في بعض الأوقات التي كان هناك فيها عداء ومواجهة حربية من جهة الشرق منذ نشر الإسلام في الإمبراطورية البيزنطية؛ وعلى العكس حدث الشيء نفسه من جهة الغرب في الحملات الصليبية. وفي تدخُّل الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية والروسية والنمساوية في تفكيك الإمبراطورية التركية في أوروبا والشرق الأوسط منذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الأولى.

وعلى الشرق والغرب أن يبحثا في المستقبل عن حلول من أجل التوصل إلى التفاهم والمودة بين كلتا الحضارتين، فمن الضروري أن نحدد في أصول السلوك قواعد التفاهم بهدف نسيان ذكرى الماضي ومواجهة المستقبل باتحاد عرقي وديني دون تدخل وبتسامح مطلق تجاه فكر كلا العالمين ومعتقداته وفلسفته.

وقد تعددت أخطاء الماضي بين الشرق والغرب ما أدى إلى تولد هذا الاتجاه نحو العداء والصراع بين الحضارتين. ويجب إخراج هذه الأسباب إلى النور من أجل إصلاحها ومن أجل إرساء القواعد لهذا التفاهم القادم الذي سيُيسر السلام والتوافق والمودة في المستقبل.

وسوف نسرد بعض الوسائل التي من الضروري أن تنفذها كلتا الحضارتين بهدف تحقيق التوافق في علاقتهما.

مِن جانب الغرب:

بسبب الهيمنة الحالية للغرب، عليه أن يأتي بسلوك متواضع وكريم في الوقت نفسه في سبيل إصلاح أخطاء الماضي وهو:

- اعتراف المسيحية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الإلهية وببعثته النبوية، ففي المقابل فإن الإسلام يعترف دومًا بالعقيدة اليهودية والمسيحية. ففي القرآن – الكتاب المقدس الذي أنزله الله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم – يَرِد في السورة الثانية في الآية ١٣٠(*): ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾.
- الاعتراف الضمني بالإسلام دينًا حقيقيًا يقف على قدم المساواة مع المسيحية، مع الإلغاء النهائي لمصطلح كافر الذي يستخدم في القانون الكنسي لتسمية المسلمين.
- اعتراف الكنيسة الرومانية بالأخطاء التاريخية الماضية من كراهية الإسلام والعدوان عليه (الحملات الصليبية).

(*) هي الآية ١٣٦ من سورة البقرة. (المترجمة)

- اعتراف تاريخي من جانب حكومات الدول التي تورطت في الحملات الصليبية في أوروبا الغربية بأن الهدف منها لم يكن سوى استعمار أوروبي محض للشرق، وقد كان لهذه الحملات دوافع اقتصادية حجبتها المهمة الروحانية تحت رعاية البابا القائد الأعلى للكنيسة المسيحية. ويعد زيفًا ما قيل من أن دافع تلك الحملات كان تحرير الأماكن المقدسة من عدو من الناحية الروحانية غير موجود.
- عدم تدخل الغرب في الحياة السياسية والاجتماعية للشعوب المسلمة وعدم فرض مبادئ سياسية وعقائد بعيدة عن حضارتهم.

ويحق للعالم الشرقي فقط دون غيره أن يحدد مستقبله فيما يتعلق بنظامه السياسي والاجتماعي وفقًا لمعتقداته المقدسة التي يحتويها القرآن - كتاب المسلمين المقدس - الذي أنزله الله وأوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

- إلغاء الحرب كوسيلة لإذابة الفروق بين الشرق والغرب ومسموح فقط بالدفاع الشرعي.
- عدم التدخل العسكري في الشرق لفرض حلول سياسية من أجل شعب دون دولة (إنشاء دولة إسرائيل).
- إعادة نظر حاسمة من هيئة القضاء التحكيمية لقرار الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨ حول شرعية أو عدم شرعية وجود دولة إسرائيل.

فالمجتمع اليهودي الذي يعيش مشتتًا في كل أنحاء العالم لا يجب أن نحدد هويته من خلال الأعمال العسكرية لدولة إسرائيل الحالية. فقد عاش ويعيش في سلام على مدار التاريخ في دول مستقلة (في الماضي: في الأندلس وفي وسط أوروبا وفي الإمبراطورية العربية وفي الإمبراطورية التركية؛ أما الآن فهم يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أمريكا الجنوبية وفي أوروبا وتركيا

وشمال إفريقيا... إلخ) وهذه الجماعات اليهودية لم تطالب بسيادتها في أي مكان عدا في فلسطين لتقيم دولة مستقلة.

- الاعتراف الفعلي بحق دول الشرق في السيادة وبحقها في حل أزماتها السياسية والاجتماعية بوسائلها الخاصة دون أي تدخل غربي.

ويجب أن يسود الاحترام المطلق معاملة الغرب للشرق وألا يكون هناك أي احتلال وقتي أو طارئ لأراضي الشرق. وهذه الأشياء يجب أن نعتبرها دفاعًا عن كرامة هذه الشعوب وعن أماكنها المقدسة التي تلقَّى فيها النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – الرسالة الإلهية من الله.

- أن يضع الغرب مجموعة قوانين أخلاقية تدين أي انتقاد من الأشخاص أو المؤسسات لكرامة الحضارة الشرقية سواء ديني أو سياسي أو اجتماعي، وتعتبره سلوكًا مذمومًا أو إجراميًا يستوجب العقوبة.

إن حرية التعبير في الغرب تقف عند حدود أراضيها فحسب ويعاقب القانون على أي تدخل في حياة ومعتقدات وعادت وطبيعة الحضارة الشرقية.

فعلى سبيل المثال إذا فرضت دولة إسلامية عقوبة ما – أيا كانت – على فرد من المجتمع تنفيذًا للقانون الإسلامي، فلا يحق لأي مواطن أو مؤسسة... إلخ من الغرب أن تمارس حقها في التدخل أو في انتقاد العقوبة المفروضة الموجودة فى القانون الأخلاقي على الفرد بشكل خاص، وعلى الممثلين الشرعيين فى حالة المؤسسات.

من جانب الشرق:

- الاعتراف بالمسيحية كدين حقيقي يوازي الإسلام طالما أن الغرب يعترف بالبعثة النبوية لمحمد – صلى الله عليه وسلم، وإلغاء كلمة كافر نهائيا التي تطلق على المسيحيين.

- أن تُدين الحكومات الشرقية وتعاقب على أي عمل عسكري وعلى وسائل العنف الأخرى ضد الغرب من قِبَل جماعات سياسية غير خاضعة للسيطرة تفعل ذلك دون مبررات وبعيدًا عن الجهاد، بهدف التماس دوافع غير عادلة وغير أخلاقية ومناقضة للدين الإسلامي. فالقرآن العظيم يتسم بالوضوح والشفافية بالنسبة لهذه الأشياء حيث يستنكرها ويدينها.

ففي السورة الثانية الآية ١٨٦(*) يقول: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ وفي السورة الخامسة الآية ٢٧(**) يقول: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ...﴾.

- الاحترام المطلق لأساليب الحياة في الغرب وتطورهم السياسي والاجتماعي رغم افتقارهم للروحانية.

وبمجرد أن تقوم حكومات الدول بالتنفيذ المنهجي لهذه المبادئ من أجل تحقيق الوفاق في علاقة الشرق بالغرب وإعادة الأوضاع إلى طبيعتها، يجب أن يقر الطرفان القواعد التالية:

١- إعلان مبدأ الصداقة والتعاون بين الحضارات والتخلي التام عن الأعمال الحربية وإلغاء الحرب باعتبارها وسيلة للفصل في النزاعات.

٢- الاحترام المتبادل بين الحضارات وعدم التدخل في التطور السياسي والاجتماعي للدول المنتمية لكلتا الحضارتين.

وستُقام ولاية شرعية من أجل معاقبة التدخل السياسي أو أي نقد عبر وسائل الاتصال الاجتماعية أو الصحافة ضد الأنظمة السياسية والدينية للشرق أو للغرب،

(*) هي الآية ١٩٠ من سورة البقرة. (المترجمة)

(**) هي الآية ٣٢ من سورة المائدة. (المترجمة)

مع إقرار اتفاقيات من أجل تسهيل تسليم الأشخاص اللاجئين الذين يقومون بأنشطة غير شرعية في الشرق أو الغرب مثل التآمر ضد حكوماتهم أو الإضرار بها وتهديدها مستخدمين العنف لمجرد أن يكونوا معارضين سياسيين.

٣- الاحترام المتبادل لشرعية الأنظمة السياسية السائدة في كلتا الحضارتين سواء بالنسبة للنظام الديمقراطي في الغرب أو الأنظمة الاستبدادية أو الملكية أو الجمهورية أو الطائفية الموجودة في الشرق.

٤- ضرورة أن يحدد مجلس الدول الإسلامية سلطة دينية وأخرى سياسية من أجل حسن التفاهم مع الغرب. ويجدر بالذكر أنه في فترة الحملات الصليبية كان الملك الناصر صلاح الدين – سلطان مصر وسوريا – نموذجًا حيًّا للتسامح والمروءة مع أعدائه المسيحيين.

٥- إنشاء مجموعة من هيئات القضاء التحكيمية -كما عرضنا من قبل- بهدف تحليل النزاعات بين كلتا الحضارتين والفصل فيها.

٦- أن يتم في المستقبل إدراج مبدأ تبادل المصادر القانونية كقانون عملي سارٍ في كلتا الحضارتين وذلك من أجل الاهتمام والترحيب بتيار الهجرة من الشرق للغرب والعكس.

إذا تحققت كل هذه التوصيات في المستقبل، ونفذت الحكومات بدقة القواعد التي تم عرضها فسينهي الشرق والغرب تمامًا هذه المرحلة التاريخية الطويلة التي ساد فيها عدم التفاهم.

وسيصبح من الممكن بهذه الطريقة أن تبدأ مرحلة السلام والود والتوافق الدولي.

٣- ثوابت دولية في الوساطة والتحكيم من أجل الاتفاق بين الشرق والغرب. مقدمة

إسبانيا، هل إسبانيا تنتمي إلى أوروبا؟

إنه لأمر معقد أن نطرح هذا التساؤل حول انتماء إسبانيا أو عدم انتمائها للقارة القديمة. فرغم أنها تقع داخل حدود أوروبا، فإن التطور التاريخي لها قد يجيب على التساؤل المطروح.

إذا رجعنا لفترة ما قبل التاريخ وعصر المعادن لوجدنا أن الحضارات المزدهرة والمعروفة كانت موجودة فحسب في بلاد ما بين النهرين في ملتقى نهري دجلة والفرات، وحضارة الهاربا Harappa في حوض نهر الإندوس (الهند) وحضارة النيل في مصر ثم بعد ذلك الحضارة الإغريقية والفينيقية والفارسية والمقدونية. وكانت أوروبا قارة يسكن ثلاثة أرباع مساحتها قبائل من أصل سلتي، وكان لهم أسلوب حياة وتطور بدائي، مما أدى إلى اعتقاد عدم وجود أوروبا من الناحية الحضارية. وفي العصر القديم، فرضت السيطرة في البحر المتوسط كل من: اليونان باعتبارها مهدًا للحضارة وروما قوة عسكرية، وقاموا بغزو شعوب أصيلة ذات حضارات كبرى: مصر و بلاد ما بين النهرين وفارس.

وقد استولت روما على حضارات الشعوب القابعة تحت نيرانها، مما أثر بشدة في شخصية الشعب الروماني ومعتقداته الدينية.

وهكذا ففي هذه المرحلة التاريخية يصبح من الظلم أن ننسب إلى روما أو اليونان - بحكم موقعهما الجغرافي - كونهما الناطق الرسمي لحضارة أصلية أوروبية غير موجودة أو متخلفة، عندما نشير للشعوب الأوروبية المستقرة خارج حدود الإمبراطورية الرومانية.

في هذه المرحلة التاريخية ظهرت إسبانيا كمقاطعة رومانية - تقع في جنوب غرب أوروبا - ولها حضارة قرطاجية، يونانية قبل الاحتلال الروماني. ثم بعد الغزو، أصبحت ذات حضارة رومانية، وكانت فسيفساء لثقافات وشعوب مختلفة (النوميديين والليبيين والمصريين والأشوريين والبابليين والفرس والمقدونيين... إلخ).

ثم جاءت العصور الوسطى، وبعد غزو البربر للإمبراطورية الرومانية في عام ٤١١م، حكم إسبانيا شعوب مختلفة "الوندال والألانيون والقوط الغربيون الذين تصارعوا فيما بينهم. وبعد أن وطد القوط الغربيون حكمهم بصورة نهائية، حافظوا على مدار ثلاثة قرون على الحضارة الإسبانية رومانية. وبعد ذلك في عـــام ٧١١م فتح المسلمون إسبانيا على يد طارق التابع للخليفة في دمشق، والذي هـــزم الـــسيد لذريق – آخر ملوك القوط الغربيين – في وادي لكة. ثم بدأت في إسبانيا الرومانية التي أطلق عليها المسلمون اسم الأندلس إحدى ألمع الحضارات التي مـــرت بـــشبه الجزيرة.

أنشأ عبد الرحمن الثالث الخلافة، ونشأت الدولة الإســـلامية كيانًـــا سياســـيًّا وثقافيًا واقتصاديًّا مستقلاً عن الخلافة في بغداد من الجانب العسكري والديني.

وتألقت قرطبة كمركز للإشعاع الحضاري في كـــل القـــرون مثلهـــا مثـــل القسطنطينية والإسكندرية وبغداد، في الوقت الذي كانت فيه باريس مدينة تكثر فيها الأوبئة وغير بارزة من وجهة النظر الثقافية وعدد سكانها قليل للغاية.

وقد انتهى وجود المسلمين في الأندلس في عام ١٤٩٢م عندما أنهى الملكان الكاثوليكيان حرب غرناطة بغزو آخر معقل إسلامي في شبه الجزيـــرة الأيبريـــة، وبعد خروج آخر ملوك المسلمين أبو عبد الله إلى المغرب.

ومع ذلك، فقد ظلت هذه الحضارة باقية في إسبانيا لمدة ثمانية قرون. ورغم أن حرب الاسترداد بدأت من المراكز المسيحية فقد تعايشوا مع المـــسلمين لفتـــرة طويلة في وقت كانت فيه العادات والتقاليد والفنون واللغة الموجودة فـــي إســـبانيا المسيحية غير أصلية وكان لها جذور مسلمة.

وهكذا يمكن تعريف إسبانيا بأنها البلد الوحيد في أوروبا مع تركيـــا اللـــذان يقعان داخل أوروبا من الناحية الجغرافية، ويعتبران حصن الدفاع عـــن الحـــضارة الغربية أمام الشرق ولهما هوية مزدوجة شرقية وغربية.

والآن، لا يجوز أن نختزل هذا التأكيد على إدراج إسبانيا في كلتا الحضارتين - بسبب هويتها المزدوجة - ليصبح مجرد تصريح مبرمج من قِبَل الأدباء والمؤرخين يستنتجونه منطقيًا من أصولها ومصادرها.

فلا غنى عن أن تستعيد الطبقة السياسية الحالية، الخالية من أشباح الماضي الدينية، هويتنا الشرقية الغائبة طوال هذه القرون. فأشقاؤنا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ينتظرون تغير إسبانيا في المستقبل بحيث تتعايش الهويات اللاتينية والمسلمة.

وبالتالي فإن إسبانيا وتركيا، هاتين الدولتين الأوربيتين العضوين في الناتو، ذواتي الهوية المشتركة بين الغرب والشرق، بإمكانهما إنجاز عمل يستحق التقدير من الوساطة أو التحكيم الدولي بين كلتا الحضارتين اللتين تنتميان إليهما عن حق، وبإمكانهما تجنب المواجهات بين هاتين الثقافتين. وسوف يقومان بهذه المهام من خلال إنشاء هيئة تحكيم دولية لها مقار أربعة (قرطبة في إسبانيا وإستانبول في تركيا والقاهرة في مصر وجاكارتا في أندونسيا) بحيث ينقسم العالم إلى أربع مناطق ولكل منها قضاء خاص. ويشارك في التحكيم الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، ويعد ذلك ثمرة للتوافق الراسخ بين الشرق والغرب.

وإذا تتبعنا تطور مجريات التاريخ، فلإسبانيا في العصر الحديث دور البطولة في أوروبا لسببين: أحدهما اكتشاف واستعمار أمريكا اللاتينية وانضمام أهلها لهويتنا؛ والسبب الآخر هو التراث الذي أخذه كارلوس الأول من جده ماكسمليانو ملك أشتورية حيث جاء بعده فيليب الثاني ثم الثالث ثم الرابع في حروب إيطاليا وهولندا وحرب الثلاثين عامًا.

وبمجرد أن بدأت إمبراطورية إسبانيا في الانحطاط تركت دور البطولة الأوروبي ولم تتدخل في الحرب العالمية الأولى ولا الثانية.

وفي الوقت الحالي تعد إسبانيا دولة أوروبية أو أكثر من ذلك ولهـا تـاريخ مجيد بسبب دورها الأساسي في العالم، ولها تراث ثقافي ولغة يتحدث بها أكثر من أربعمائة مليون إنسان كما لها هوية مزدوجة وثرية ومتعددة الثقافـة تظهـر فـي تقاليدها وعاداتها وطرق فهم الحياة والفن والموسيقى واللغة.

تركيـا

إن تركيا هذه الإمبراطورية الأوروبية الكبرى في القرنين الخـامس عـشر والسادس عشر تعد حاليًا دولة مزدوجة الهوية – أوروبية وشرقية – تشبه إسـبانيا وتميل أكثر إلى أن تكون دولة أوروبية.

وتشترك مع إسبانيا في أنها كانت مثلها – في نفـس الحقبـة التاريخيـة – إمبراطورية لها نفس الهوية المزدوجة الأوروبية الشرقية.

إن تركيا أثرت في أوروبا من الناحية الثقافية وكانت جـسرًا للوحـدة بـين الشرق والغرب، وذلك بوجودها في أوروبا منذ القرن الرابع عـشر عنـدما غـزا السلطان مراد أدريانوبوليس Adrianopolis وتراقيا والبلقان وبعـد ذلـك عنـدما استولى محمد الثاني على القسطنطينية في عام ١٤٥٣.

وخلال خمسة قرون، كانت أمة الترك هي المسئولة تاريخيًا عن الدفاع عن الإسلام وعالمه الروحاني، ولم يكن ممكنًا على الإطلاق أن تكون هنـاك أوروبـا بدون تركيا وحضارتها، رغم أن العقائد الدينية كانت في الماضي تشكل حـاجزًا لا يمكن عبوره.

وقد ارتكب العرب خطأً تاريخيًا عندما تخلوا عن تركيا في الحرب العالميـة الأولى ولم يصطفوا مع إخوانهم المسلمين ليدافعوا معهم عن الإسلام بصلابة ضـد الفرنسيين والإنجليز الذين جردوا تركيا من باقي أرضها. كما أخطأ العرب عنـدما وثقوا في الوعود الزائفة التي أعطتها لهم الإمبراطوريتان الفرنسية والإنجليزية من

قيادة حركة لتحرير هذه الشعوب من قبضة تركيا، تلك القوى التي هُزمت. وثمنًا لمساعدة العرب لهم أظهر أحفاد الصليبيين القدامى هؤلاء نكرانهم للجميل وأخضعوا الإسلام للاستعمار المحض الذي استمر حتى الحرب العالمية الثانية.

ولسوء الحظ، فما زالت هناك جروح مفتوحة جراء هذا التدخل الاستعماري الحديث للإنجليز في أرض العرب، مثلما هو الحال في تكوين دولة إسرائيل.

إن تركيا عندما بدأت تلعب دورها البطولي بوصفها أمة أوروبية في القرن الرابع عشر واستقرت في جنوب أوروبا، أسست دولةً نموذجيةً تقوم على التسامح العرقي والديني تجاه المسيحيين الذين أصبحوا جزءًا من المجتمع التركي دون أن يعانوا من التفرقة العنصرية بسبب عقيدتهم وشغلوا وظائف مهمةً في الإمبراطورية بفضل إمكاناتهم ومواهبهم الخاصة.

وكان هدف السلاطين - مدفوعين بميلهم تجاه أوروبا - تجسيدَ حلمهم في إعادة الإمبراطورية الرومانية في البحر المتوسط.

ثم اغتنت أوروبا من جانبها بفضل تركيا وإسبانيا وروسيا وهي دول تقع في أوروبا جغرافيًا، كما أنها أُنشِئت لتكون حصنًا للحضارة الغربية أمام الشرقية. وعلى العكس أيضًا، فقد حملت هذه الدول الحضارة الشرقية إلى أوروبا. وهكذا، رغم عدم تخليهم عن ميلهم الأوروبي، فقد كان لهم الفضل في الارتقاء بأوروبا ثقافيًا وإنسانيًا، والتي ربما تكون قد تخلفت في القرون السابقة بسبب الحضارة البدائية للشعوب في وسطها وشمالها (السويد - الدنمارك - هولندا...).

روسيا

إن روسيا التي تعد في الوقت الحالي قوة عالمية عُظمى كانت منذ نشأتها دولة أوروبية تقع في محيط أوروبا ومرت بعملية توسع دائم من جميع حدودها. وقد شهد هذا التوسع العديد من الخطوب: الحرب مع بولندا وليتوانيا ومع التتار ومع السويديين والترك واليابانيين والصينيين والألمان.

وهذه الرغبة في التوسع من جميع الحدود التي تحيط بها كانت مستمرة في جميع الأوقات وعلى اختلاف الأنظمة السياسية السائدة، فقد كانت عادة سياسية دائمة. فبالنسبة إلى الشرق، توسعوا في الإقليم المنغولي؛ وبالنسبة الغرب، اختاروا أيضًا الغزوات والضربات: ضم وفقد فنلندا، ضم وفقد واسترداد دول البلطيق، فقد واحتلال بولندا ثم استقلالها الكامل، استعادة بوكوفينا وبيسارابيا ثم التطلع إلى بعيد صوب القسطنطينية والمضايق والتوغل في دول البلقان في إيران وتركيا والاتجاه صوب الشرق الأدنى والأوسط والأقصى.

وروسيا، تحديدًا بسبب موقعها الجغرافي وصلتها بحضارات أخرى، لم تكن لها حضارة خاصة. كما أن الثقافة التي جاءت إليها كانت من أصل أوروبي غربي وشرقي أيضًا. وفي القرن العشرين بعد إقامة الشيوعية وبفضل دورها النامي في الحرب العالمية الثانية تحولت لقوة عسكرية عظمى تهدد الغرب.

وبعد أن انتهت بالفعل فترة الحرب الباردة الطويلة، وبعد نسيان تطورها الكبير في التسليح ما بين الخمسينيات والتسعينيات، وأخيرًا مع سقوط النظام السوفييتي فإن روسيا تبدو دولة كبيرة.

وفي القريب العاجل ستنضم إلى أوروبا بحضارتها الثرية الشرقية والغربية وتقدمها العلمي المذهل. وسيزيد انضمامها هذا من مكانة أوروبا.

وإذا تفكرنا في أن الدول المجاورة لروسيا من الجنوب مباشرة هي دول إسلامية لوجدنا أن روسيا قدمت في مناسبات عديدة خدمات جليلة لصالح السلام. ويعد ضروريًا للغاية تدخلها في التحكيم والوساطة في نزاعات الشرق الأدنى حيث تأتي بأفكار ومشاريع بهدف تحقيق السلام والوفاق الدولي وبأمل أن تعتمد عليها باقي دول أوروبا في المستقبل.

الولايات المتحدة الأمريكية

إن الولايات المتحدة الأمريكية التي تعد بدون نقاش قوةً عظمى أخرى في العالم كانت في نهايات القرن التاسع عشر هي المحرك للتجديد التكنولوجي والتقدم المادي في الغرب.

وهذه الدولة تتزعم بالنسبة إلى العالم النموذج الشامل للاقتصاد الرأسمالي، فهي الطراز الذي يقلده الغرب منذ بداية فترة ما بعد الحرب إثر الحرب العالمية الأولى. وكانت نموذجًا لإنشاء دول مستقلة في العالم الثالث فيما يتعلق بإقامة النظام الديمقراطي بعد إنهاء الاستعمار في إفريقيا وآسيا إثر الحرب العالمية الثانية.

والمجتمعات الأوروبية الغربية تدين للأبد للولايات المتحدة الأمريكية لأنها أول دولة في العالم تبدأ مرحلة تحديث الغرب بعد استقلالها من السيطرة الإنجليزية في القرن الثامن عشر. فإنشاء هذه الدولة أقام مجتمعًا حرًا وديمقراطيًا بعد ثورته الليبرالية، مما أفاد كنموذج يُحتذى في أوروبا الغربية للتخلص نهائيًا من أنظمة الحكم الذاتي والمطلق في الحكومات الملكية الأوروبية.

والمجتمع الأوروبي في نهاية القرن الثامن عشر، وبعد الثورة الأمريكية، كان هدفًا لسلسلة من الاضطرابات السياسية العنيفة (الثورة الفرنسية – مؤتمر فيينا – الثورات الفرنسية في عامي ١٨٣٠م و١٨٤٥م – الكومون في باريس – جمهورية الويمر Weimar، إلخ) التي أحدثت تغييرًا في فكر المجتمع الأوروبي وبنيته عن طريق دعم الليبرالية السياسية والاقتصادية.

وفي الوقت الحالي، تعد الولايات المتحدة الأمريكية بلدًا يفخر بها مواطنوها، يتفوق على قارة أوروبا العتيقة والمتدهورة في كل مجالات المعرفة العلمية والتكنولوجية والاجتماعية والتقدم المادي.

وقد نشأ هذا المجتمع في القرنين التاسع عشر والعشرين في هيئة أمة شابة متعددة الأعراق والثقافات، وهي تراث مشترك لمجموعات عرقية مختلفة في العالم (اللاتينيون والجرمانيون والصقالبة والساكسونيون والمجريون والعرب والصينيون واليابانيون والهندوس... إلخ).

وكانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية مع أمريكا اللاتينية غير صائبة بصفة عامة خلال ثلثي القرن العشرين، بسبب تدخلها البغيض من الناحية الأخلاقية لتقدم المساعدة لأنظمة الحكم الذاتي السياسية ولتمنع التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للجمهوريات الشابة. وفي فترات أخرى، كان تدخلها صائبًا لأنها اتخذت مبادرة تشجيع برامج للمساعدة في التطور الاقتصادي والاجتماعي للشعوب، مثل: التحالف من أجل التقدم في فترة الستينيات في أمريكا اللاتينية الذي بادرت به حكومة الرئيس جون كيندي الديمقراطية.

وبالتالي، فهناك أمثلة واضحة لتدخلاتها العسكرية غير الموفقة في دول الجوار، مثل: الحرب ضد المكسيك منذ ١٨٤٦م إلى ١٨٤٨م بسبب فقد كاليفورنيا وإنشاء دولة بنما في ١٩٠٣م إثر حرب الانفصال مع كولومبيا، والاحتلال العسكري لنيكاراجوا في ١٩٣٣م وإعدام ساندينو، وغزو جمهورية الدومينيكان في ١٩٦٥م بعد عزل الرئيس بوش، التدخل في جزيرة غرناطة ضد حكومة ذات فكر مناصر للشيوعية. ونفس الشيء يحدث حاليًا مثل سياستها العدائية ضد حكومة هوجو شافيز الشعبية في جمهورية فينزويلا البوليفارية، وأخيرًا إبقاؤها على النظام الاستعماري في بورتوريكو منذ عام ١٨٩٨م.

وكان على بورتوريكو أن تقرر بصورة ديمقراطية وضعها الحاسم بأن تكون دولة جديدة فيدرالية أو باستقلالها جمهوريةً مستقلة كونفيدرالية متحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك، فالولايات المتحدة الأمريكية من الداخل هي دولة مثالية ونموذجية تعطي أي مواطن - بغض النظر عن أصله الاجتماعي - مبدأ تساوي الفرص ليجسد غايته من السعادة بمبادرة خاصة منه.

والآن لها دور رئيسي في العالم بسبب قوتها الاقتصادية والعسكرية فهي حصن الدفاع عن الحضارة الغربية. لقد ساعدت أوروبا في اللحظات الصعبة ضد السلطة العسكرية للنازية وللشيوعية وفي أزمات أخرى عالمية.

وفي يومنا هذا، حيث تعاني أوروبا من أزمة هوية بسبب فقدها للقيم الأخلاقية والروحية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل حصناً لا غِنًى عنه للدفاع عن أوروبا ووحدتها وذلك رغم بعض علامات نكران الجميل التي تظهر في بعض الأحيان في التصرفات العامة لبعض الدول الأوروبية أمام هذا الحليف الوفي.

وفي ظروف أخرى، تبوء بالفشل مبادرات الولايات المتحدة الأمريكية لحل بعض النزاعات في أماكن أخرى في العالم ويجانبها الصواب، لسببين أساسيين: أولهما قيامها بدور البطولة وتدخلها الدولي بطريقة عسكرية للغاية؛ والسبب الآخر، هو محاولتها فرض ثقافتها الغربية وفكرها ونظمها السياسية على حضارات أخرى لها تراث وفكر مختلفان وبعيدان عن فكر الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، هاتين القوتين العظميين الغربيتين والمتحالفتين، أن يكون لهما وعي خاص ومتطور في المستقبل بالنسبة إلى علاقتهما وتفاهمهما مع الشرق.

والأسباب مختلفة: أولاً لأن بريطانيا كانت في الماضي صاحبة إمبراطورية استعمارية كُبرى، ولأنها المقر الحالي لمواطنين بريطانيين ذوي ثقافة إسلامية جاءوا نتيجة للهجرة الجماعية من تلك البلاد للدولة المستعمرة حيث يعيشون ويفكرون بالعرف مثل أجدادهم.

والسبب الثاني: أن الولايات المتحدة الأمريكية تعيش فيها حاليًا جالية إسبانية – حوالي ٤٠ مليون نسمة – تشترك مع إسبانيا بسبب جذورها وبسبب الدوافع السابق ذكرها من أصل وعادات وثقافة في هذه الهوية المزدوجة، وقد يكون لهم في الأيام القادمة وجود أكبر في المجتمع. إن مروءة حكومات الولايات المتحدة الأمريكية القادمة، إذا قبلت أن تستوعب هذه الهوية المزدوجة للجالية الإسبانية ستجعل من الممكن تحقيق الثراء الثقافي للأمة الأمريكية. بالإضافة إلى أنها ستدعم بقاء إمبراطوريتها العظيمة في المستقبل بحيث تمتد لعقود كثيرة كما حدث مع الإمبراطورية الرومانية القديمة التي جعلت حضارتها عالمية بتجميعها لحضارات الدول التي تتشكل منها. وقد كان من الضروري أن يمر عشرون قرنًا حتى تدهورها السياسي لتترك فيما بعد ثقافتها وحضارتها أثرًا دائمًا ولا يمكن محوه على مر القرون.

المؤلف فى سطور :

خوليو رييس روبيو "المجريطى"

وُلِد عام ١٩٤٤ في Campo Real القرية الملكية، التي أسسها العرب باسم Campo Almiareg في القرن التاسع. يعمل مهندسًا في التقنيات الصناعية ومحاميًا.

عاشق للتاريخ بوجه عام، حيث تجسدت معارفه في كتبه التالية: "الأندلس بحثًا عن الهوية الغائبة"، وهو الكتاب الأكثر انتشارًا في العديد من المكتبات، ويتحدث عن التاريخ الإسلامي للأندلس – شبه الجزيرة الأيبيرية الحالية – وعن الاعتراف بالهوية الشرقية الموجودة لدى الشعب الإسباني؛ "إسبانيا... نحو أيبيريا موحدة ممكنة" وهو يدور حول الحلم الأيبيري القديم بوحدة إسبانيا والبرتغال في القرن الحادي والعشرين؛ "أساطير أندلسية" ويحكي عن تأسيس Campo de Almiareg المعروفة اليوم بالقرية الملكية (مدريد)، مسقط رأس الكاتب، التي أسسها العرب في القرن التاسع؛ "منطقة قلعة النهر وضواحيها: التاريخ والفن والعادات"، ويتناول الماضي التاريخي لتلك المنطقة والأربع عشرة ضاحية التابعة لسلطتها؛ "Getafe والضواحي المجاورة: التاريخ والفن والعادات"، ويدور حول Getafe، مكانها والضواحي الثمانية المجاورة حيث يجتمع التاريخ والفن وعاداتهم؛ "لقاء ثان: نحو تأسيس تجمع أيبيري من الشعوب"، وهو يجسد الوحدة الأيبيرية ويؤسس "تجمع أيبيري من الشعوب" مجتمعة في اتحاد فيدرالي للدول ذات اللغة الإسبانية والبرتغالية المشتركة وكل شعوب شمال إفريقيا المسلمة والشرق؛ "الأثر العربي في مدريد وجنوبها الشرقي"، وهو دراسة عن مدريد والمدن التي أسسها العرب؛ "مدن أخرى لإقليم القلعة: تاريخ وفن وعادات"، و"إسبانيا المحتضرة..."، وهو دراسة عن التفكك السياسي "لإسبانيا ذات مناطق الحكم الذاتي" حيث يشمل الحل للنزاعات القومية المحددة.

ومن أعماله أيضًا: "عبد الرحمن الثاني، أمير قرطبة وعهده"، وهــو رائــد ازدهار الأندلس ومجدها، و"وادي الحجارة ومُدنها الزراعية: تاريخ وفن وعادات"، ويتناول الماضي التاريخي والثلاث عشرة مدينة الزراعية التابعة لسلطتها بتاريخها وفنها وعاداتها، و"أفراح وأحزان سلالة البصري أو الأندلسي التائه"، ويحكي تاريخ تلك السلالة المسلمة في العصور المختلفة بأمجادها ونكباتها، وينتهي بالحديث عــن المبادئ العظيمة للكتاب المقدس "القرآن".

وحاليًا، في مرحلة الإعداد، يؤلف "بحثًا عن الله ولقائه"، وهو موضوع ديني معقد ومثير للجدل في عصرنا هذا.

يستخدم الكاتب في أعماله اسمًا مستعارًا هو "المجريطي"، وهي لفظة عربية تعني المدريدي "أي المنسوب إلى مدريد" في إشارة لمسقط رأسه.

المترجمتان فى سطور :

د.غادة عمر طـــوسون

- ليسانس ألسن، قسم اللغة الإسبانية، بتقدير جيد جدًا، ١٩٩٤م.
- دبلوم ترجمة فورية وتحريرية، ١٩٩٨م.
- دكتوراه في أدب أمريكا اللاتينية، ٢٠٠٤م.
- أستاذ مساعد بكلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر من ٢٠١٠م.

د. رنا أبو الفضل

- ليسانس ألسن، قسم اللغة الإسبانية، بتقدير جيد جدًا، ١٩٩٤م.
- ماجستير في اللغويات الإسبانية، ٢٠٠٣م.
- دكتوراه في اللغويات الإسبانية، ٢٠٠٧م.
- مدرس بكلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر من ٢٠١٠م.

المراجع فى سطور :

أ.د سرى محمد عبد اللطيف

- دكتوراه الأدب الإسباني من جامعة مدريد المركزية.
- أستاذ اللغة والأدب الإسباني بكلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر.

صـــدر لـــه:

- المنور– غازلة الأحلام، لأنطونيو بويرو بارنجو (ترجمة).
- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، وزارة الأوقاف.
- شبهات حول الإسلام، وزارة الأوقاف.

التصحيح اللغوى: عـــادل سميـــح

الإشراف الفنـــى: حـــسن كـــامـــل